
مكتبة مصر
جسر
الشيطان
عبد الحميد جودة السحار

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ثروت اباظة

القاهرة

جسر الشيطان

جسر الشيطان

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ بشارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي الفجالة

١

وقف على فى شرفة غرفته بفندق « أطلانتيك » يطل على البحيرة الجميلة التى ابتدعتها يد البشر عند مصب نهر الألستر ، وقد انعكست على مرآتها ظلال الأشجار ، والأنوار المتلألئة كالفضة على قمم الأعمدة المشرفة ، فكانت لوحة رائعة .

وتلفت حوله فإذا أبراج مخروطية خضراء لكنائس متناثرة ، بدت كأنما نبتت من أضواء مدينة « هامبورج » المتألقة ، وارتفعت سامقة لتوحى بأنها الصلة بين الأرض والسماء .

ومد بصره إلى الأفق فألفى ألوان الشفق لا تزال تترقرق على صفحته وإن كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة . كان الوقت صيفا فكان الليل أقصر من أن يرضى أولئك النائحين الملتمسين من الفجر أن يتريث ، أو يروى غلة المتعطشين إلى ذرف الدموع على هجر الحبيب فى هدأة الليل السرمد .

وطفق يدير عينيه فى المكان برهة وقد أفعم بتلك النشوة التى يحسها كلما هبط مدينة لأول مرة ، ثم دار على عقبيه وهو يصفر ، واخترق غرفته وكانت بسيطة فى أناقة ، واجتاز الردهة الطويلة التى امتدت الغرف على جانبيها وهو يحيى كل من يقابله بإيماءة من رأسه ،

تخمس أذنيه همسات رقيقة بالألمانية التى لا يعرف منها حرفا ، فتزدهى روحه . كان يستشعر فى تلك اللحظة أنه قادر على أن يضم الدنيا بأسرها إلى صدره .

وهبط فى المصعد وهو يدندن بكلمات لا وزن لها ولا لحن وإن كان طعمها فى نفسه ينم عن فرحة ملأت جوانحه ، واتخذ طريقه إلى باب الفندق الزجاجى الذى يدور مع الداخلين والخارجين ليمنع هواء الطريق البارد من أن يتسرب إلى القاعة الدافئة ، وجعل يتبع بنظره الرجال والنساء المتجهين إلى غرف الطعام وإلى البار الذى انبعثت منه أنغام موسيقى راقصة ، فتتفتح لكل شىء نفسه ، وتتحرك مشاعر المحبة بين جوانبه .

ووقف يشرف على الطريق ويتلفت ، فدنا منه الرجل الطويل الواقف عند الباب فى ثيابه الرسمية وسأله فى رقة :

— تاكسى ؟

فقال على بالإنجليزية :

— نعم .

وأشار الرجل بأصبعه إشارة خفيفة فإذا بتاكسى يقبل ويقف أمام الفندق ، فيهبط على فى الدرجات القليلة الموصلة بين الفندق والطريق ، ويدخل السيارة للرسيدس وهو يقول للسائق :

— « ريبربان » من فضلك .

وتنطلق السيارة وعلى يتلفت ذات اليمين وذات اليسار ؛ كانت الحوانيت مغلقـــة ولـكنها كلها تشع بالنور ، والطرقات

تكاد تكون خالية إلا من بعض السابلة والسيارات المنسابة فى قطار طويل .

ولمح على البعد الأنوار الكهربية الناصعة البياض والخضراء والزرقاء والحمراء تكاد تبهر بصره ، فأحس نشوة ؛ إنه على حافة عالم مجهول مسحور لا يدرى عنه شيئا ، وبعد لحظات سيوغل فيه بحواس متفتحة ، ويصيخ السمع حتى يصغى لنبضات قلبه .

قال للسائق :

— أول ريبربان من فضلك .

ووقفت السيارة وهبط منها على وراح يقلب وجهه فى المكان ، ثم سار الهوينى يتفرس فى وجوه الناس ويقرأ اللافتات ، ويمد بصره داخل الحوانيت والملاهى الممتدة على جانب الطريق إلى مدى البصر .

وبدأ الزحام ، ثم أخذ يتكاثف حتى إنه راح يشق طريقه فى جهد بين الكتل البشرية ؛ كان الناس خليطا من البحارة ، والشباب الذى لعبت الخمر برأسه من الجنسين ، والشيوخ الذين جاءوا ليحركوا رماد نار الشباب الخابية ، والعجائز اللائى جئن لينطلقن فى حرية لعل طيف ليالى الهوى يعود ؛ كان الطريق غاصا بالفارين من أنفسهم الذين جاءوا ليلقوا بذواتهم فى بحر النسيان ، فى الوهم الكبير .

وفطن إلى أن محال الطعام المتناثرة بين الملاهى تبيع كلها صنفا واحدا « سجق » متباين فى الحجم والناس يلتهمونه فى نهم ، فعرج ليشارك الناس طعامهم . ووقف أمام فتاة شقراء ممتلئة الجسم قليلا تهدل شعرها

الأصفر على وجهها حتى كاد يخفي زرقة عينيها ؛ وكانت ترتدي فوق ثوبها معطفاً أبيض ، وتغدو وتروح بالسندويتشات فى نشاط عجيب . ظل صامتا حتى أحست الفتاة به فالتفتت إليه وقالت :

— هامبورجار ؟

فأومأ برأسه أن نعم وهو لا يدرى ما هو هـذا الهامبورجار ، وتحركت الفتاة فى خفة ثم عادت وقدمت إليه صحفة بها سجق غليظ فى لون البرتقال ، وقالت :

— بيرة ؟

— لا . كوكا كولا من فضلك .

وأسرعت إليه بزجاجة الـكوكا كولا وهى تديم النظر إليه وتبتسم ، وراح يأكل السجق وهو يتلفت ، فأحس أن الرجل الآخر الذى يعمل فى المحل يرميه كلما مر به بنظرة طويلة متفحصة ، والتقت عيناه بعينى الفتاة أكثر من مرة وهى غادية رائحة ، ورفت على شفتيها أكثر من ابتسامة ، وراح يلوك « السجق » المنسوب إلى مدينة هامبورج والذى انتشر فى كل أرجائها .

ورفع زجاجة الـكوكا كولا ، وقبل أن تمس شفتيه أمسكت عيناه بعينى الرجل الآخر وهما تختلسان النظر إليه ، فابتسم الرجل وترك ما فى يده واقترب من على وهو يقول : معذرة ياسيدى ، عيناك السوداوان وشعرك الفاحم وسمرة وجهك تجذب إليك عينى ، إنك خطر على فتياتنا يا سيدى .

وضحك الرجل ضحكة قصيرة ثم عاد إلى عمله ، وراح هو يشرب الكوكا كولا فى هدوء ؛ لم توقظ كلمات الرجل غروره ، كان قد جاوز الخامسة والثلاثين ، وكان على يقين من أن جماله لايسبى العقول ولا يعبث بقلوب العذارى !

ووضع الزجاجة الفارغة على النضد الطويل الفاصل بين رواد المحل والعاملين فيه ، وقبل أن يتحرك خفت الفتاة إليه وقالت وعلى شفتيها بسمة وعيناها تتجولان فى وجهه :

— أية خدمة أخرى يا سيدى !

— شكرا .

— هل أنت إيطالى ؟

— إننى من إفريقية .

وارتفعت أصوات حادة فالتفت خلفه ، فألفى على قيد خطوات منه شابين لعبت الخمر برأسيهما يتشاجران ، فانسل فى خفة ، وسار فى الطريق الذى غص بالناس يعاود قراءة اللافتات ويشاهد صور الراقصات العاريات ؛ كانت أغلب ملاهى الحى تعلن عن استعراضات التعرى .

ووقف أمام محل واسع كان الناس يموجون فيه موجا ، فدخل يتلفت ؛ كان المحل زاخرا بألعاب التسلية ، ثبتت فى حوائطه صناديق كهربية مختلفة . فإذا وضع فى ثقب فى جانب أحد هذه الصناديق دويتش مارك من الفضة ، تحركت فى داخله طيور أو وحوش ، ويخرج من هذا الصندوق سلك كهربى مكسو بمطاط أسود فى نهايته بندقية

يصوبها المتسابق إلى الطيور أو الوحوش ، فإذا أصاب الهدف أضاءت أرقام تسجل عدد الإصابات ، وتظهر النتيجة فى النهاية مكتوبة بالحروف : إما متوسط ، أو جيد ، أو ماهر ، أو ممتاز .

وصندوق آخر إذا وضعت فى ثقبه الجانبي قطعة من النقود المعدنية ، تحركت به كرة صغيرة من النيكل فتسقط بين حواجز يحركها مقبض مستدير فى أسفل الصندوق ، فإذا نجح المتسابق فى إسقاط الكرة فى ثقب تحت الحواجز دق جرس ، وخرجت قطع النقود من فتحة قريبة من المقبض وهى توسوس وسوسة تشنف آذان المقامرين .

وصناديق أخرى فى واجهاتها عدسات تعرض صور نساء عاريات فى أوضاع مختلفة ، ووقف عند هذه الصناديق بعض البحارة وقد وضعوا أعينهم النهمة على العدسات ، ليسعدوا لحظات بسراب لا يروى غلة .

وفى قاعة المحل وضع نضد على هيئة ملعب كرة ، وفوق النضد وقف الفريقان متقابلين ، أحدهما مطلى باللون الأحمر والآخر باللون الأزرق . فحارس المرمى مثلا تمثال من خشب يمر فى وسطه قضيب دقيق من الحديد فى نهايته مقبض مثبت فى جانب النضد ، يحرك به الحارس يمينا أو يسارا ليضرب الكرة برجليه إذا قذفت أمامه ، وكذلك الحال بالنسبة لكل ظهير ، ولكل لاعب فى خط الدفاع أو خط الهجوم .

وراح شخصان يتباريان يحركان المقابض فيقذفان الكرة أو يصدانها أو يصوبانها إلى المرمى ، والتف حول النضد جمهور من الفتيات والرجال

يشاهدون المباراة تظهر عليهم الغبطة كلما أصاب أحد اللاعبين المرمى .

جعل على يجوس خلال المناضد يقلب البصر خلال كل ما يرى ، حتى إذا بلغ باب الخروج ألفى عنده غرفة صغيرة للتصوير ، فجلس فيها ووضع ماركا معدنيا فى ثقب وراح يغير أوضاع وجهه ، وبعد لحظات خرج له من فتحة جانبية شريط به ست صور .

وفى الطريق مر بملهى ليلى غارق فى النور الأحمر وقف ببابه شاب يغرى المارة بالدخول . دنا الشاب منه وقال :

— تفضل ياسيدى لترى ما يسرك ، أجمل الفتيات عاريات رهن إشارتك . . أشرطة سينمائية لرجال ونساء . . . لقردة ونساء . . . أجرأ أشرطة يمكن أن تقع عليها عيناك . . إنها فرصة العمر . . تفضل .

فابتسم على وسار فى طريقه ، وإذا برجل آخر واقف بباب مرقص يعترض سبيله ويقول له :

— هنا يا سيدى أحدث مرقص فى ريبربان ، مرقص التليفون . . . تفضل . . انظر . . . فلن تخسر شيئا .

وفتح له باب المرقص فدخل ، وإذا برجل يتلقاه ويقوده إلى نضد حوله ثلاثة كراسى وضع عليه أباجورة صغيرة ينبعث منها ضوء أحمر خافت ، وإلى جانب الأباجورة تليفون وردى . سحب الرجل كرسيه وأشار بيده أن تفضل ، فجلس على وظل الرجل واقفا ينتظر أوامره ، فسأله على :

— ماذا عندك ؟

— ويسكى ... شمبانيا .. بيرة ...

— لا ... لا ... أنا لا أشرب .

— كاساتا . . . قهوة . . .

— كاساتا من فضلك .

وذهب الرجل وراح على يجول بعينيه فى المكان ؛ كان فى وسطه حلبة مستديرة للرقص صفت حولها الموائد تنبعث منها أضواء الأباجورات الخافتة ، وجلس حول الموائد رجال ونساء ، وعلى مرتفع من الأرض قريب من حلبة الرقص اصطفت الفرقة الموسيقية ، بينا تحلقت فتيات المحل بعض الموائد المتناثرة .

وعزفت الموسيقى ، وأخذ النسوة يدعون الرجال بالتليفون ليراقصوهن . وفطن على إلى أن تقاليد المحل أن يختار الفتيات من يروق لهن من الرجال فسرت فيه رعدة خفيفة سرعان ما انقشعت ، وأقبل الجرسون بالكاساتا فنقده على الثمن لينصرف وقتما يريد .

وبقى يرقب ما يدور فى المقهى ، وخطر له أن ينهض ليستأنف سيره فى الحى الذى تشتعل فيه نزعات الجسد المحموم ، وتحرك فى مقعده وإذا بجرس التليفون يدق فخفق قلبه ، ورفع سماعة التليفون وهو مضطرب وقال :

— ألو !

وإذا بصوت نسوى رقيق يداعب أذنه يقول بإنجليزية ركيكة :

— أتسمح لى بشرف هذه الرقصة ؟

فقال فى ارتباك :

— بكل سرور .

ووضع سماعة التليفون ونهض يتلفت ، فألفى فتاة شقراء زرقاء العينين ناصعة بياض البشرة ملفوفة الجسم ترتدى ثوبا أسود يكشف عن صدرها حتى ليظهر الأخدود الغائر بين ثدييها فى وضوح ، تخطر نحوه وترف على شفتيها بسمة تـكاد تـكشف روحها ، إنها خفيفة الظل تفضح عيناها ميلها إلى الدعابة .

ودنت منه حتى أصبحت على بعد خطوة أو خطوتين وقالت :

— تسمح !

ودارت على عقبيها وسارت نحو مكان الرقص وعلى خلفها خافق القلب زائغ البصر ، فقد مضت سنون طويلة منذ آخر مرة رقص فيها . كان يرجو فى قرارة نفسه لو أن اختيارها لم يقع عليه .

وهبطت إلى حلبة الرقص واستدارت له فلف ذراعه حول خصرها ، ورفع ذراعه الأخرى يسند أناملها بأنامله ، وراحا يرقصان فى صمت ؛ ولم يرضها تحفظه ، فأرادت أن تذيب الثلج الذى بدأ يتكون ليفصل بينهما وإن ألصقت صدرها بصدره فقالت :

— من البرازيل ؟

— لا .

— من أمريكا ؟

فقال وهو يبتسم :

— لا .

— من أين إذن ؟

— قولى أنت .

— إيطالى ، إيطالى ولا شك ، فطنت إلى ذلك من أول ما رأيتك .

— لا ، ولكن لماذا يتمنى كل الفتيات هنا أن يلتقين بإيطالى ؟

فقالت وهى تضحك ضحكة ماجنة وتغمز بعينها :

— سمعتهم طيبة !

فقال ليجاريها فى حديثها :

— السمعة الطيبة رأس مال كبير ، ولكن هذه السمعة تختلف من مكان إلى مكان ، فسمعة الإيطاليين قد يكون لها قيمة هنا فى ريبر بان وفى كل مكان فيه نساء متعطشات إلى الحب المصنوع ، أما خارج هذا النطاق فلا أدرى كم تساوى هذه السمعة الطيبة !

فقالت وهى تنظر فى عينيه السوداوين وأنفها يكاد يلمس أنفه :

— لم تقل لى من أين أنت ؟

فقال وهو يدور بها دورة رشيقة :

— أنا عربى .

فقالت فى نغمة تشف عن الاستخفاف :

— عربى !

وضحكت ضحكة خبيثة ماجنة أحس على أنها وخزات تحز شعوره ،

فقال فى إنـكار :

— ما الذى يضحكك فى هذا ؟

فقالت وهى تتفرس فى وجهه بعينين تشعان شقاوة :

— أأقول ولا تغضب ؟

فقال فى لهفة :

— قولى .

فأدنت شفتيها من أذنه وهمست بجملة قصيرة ثم انفجرت ضاحكة فى خلاعة ، وأحس على كأن أتون نار صب فى جوفه ، وثار غضبه حتى إنه عجز عن أن يكبت مشاعره فتلون وجهه ، ولم يخمد حنقه محاولته أن يقنع نفسه أن ما سمعه إن هو إلا دعابة ماجنة من فتاة من فتيات الليل كل همها أن تفتح أبواب الجنس على مصاريعها .

ورأت الدم الذى احتقن فى وجهه فقالت :

— قد لا يكون ذلك الشذوذ فيك أنت .

ولم يستطع صبرا فتركها وحدها وانطلق خارجا لا يلوى على شىء .

وانساب بين الجموع وهو غاضب ، ولفح الهواء البارد وجهه فأخذت ثورته تموت ، وسرعان ما رد إلى هدوئه فراح يستأنف التطلع إلى واجهات الملاهى التى تشع أنواراً تـكاد تقلب سواد الليل نهاراً ساطعا يبهر العيون .

ووقف أمام ملهى « كازينو دى بارى » وفـكر فى أن يدخل ، ولـكنه ألفى الناس لا يزالون فى سيرهم يتدفقون ، فعزم على أن يسير

معهم وأن يشاهد الحى كله ، ثم إذا وجـد فسحة من الوقت عاد إلى الـكازينو أو إلى أى ملهى آخر ليرى ما يجرى بين جنبات علب الليل ، وما يوحى به الفن العارى الذى لا هدف له إلا تحريك غرائز البشر .

وسار مع السائرين ، وانتهت الملاهى الممتدة على جانب الطريق الأيمن ، وخطر له أن يعود ولـكنه ألفى سيول الناس لا تفتأ منطلقة فانطلق معهم ، وعرجت الجموع ناحية اليسار وسارت قليلا فى طريق يخترقه « الترولل باس » ، ثم عادت وعرجت ناحية اليسار مرة أخرى . كانت تقصد مكانا بعينه ولا شك .

وألفى على نفسه فى شارع به حاجز خشبى يرتفع ثلاثة أمتار ويسد ثلاثة أرباع الطريق ، والناس يتدفقون من فتحة بين الحاجز وجدار بيت قديم . وتمهل فى سيره وراح يجيل البصر فيمن حوله . . كانوا فتيات وشبانا ، ورجالا ونسـاء ، وعجائز وشيوخا ، وبحارة يترنحون من السكر .

وتجاوز الحاجز ، وما سار خطوات حتى رأى على جانبى الشارع معارض زجاجية جلس فيها نساء عاريات يعرضن أجسامهن فى صورة مبتذلة ، فدار رأسه ووقف مشدوها ينظر وهو حزين .

كان النساء العاريات يجلسن على كراسى ، وخلفهن ستائر ، وخلف الستائر أسرة تظهر بعض أجزائها من الطريق ، وراح بعض الشبان يعاكسونهن ويقدمن إليهن الموز . كن أشبه بقردة بيضاء فى أقفاص من

زجاج والناس لا يكفون عن مشاكستهن ، فأحس وقدة نار فى حلقه ، وخيل إليه أن البشرية كلها تتمرغ فى الطين .

ووقعت عيناه على امرأة عارية كل لمحة فيها تشى بالسنين الطوال التى قضتها فى هذا الذل المهين ، وعجزت صبغة الشعر والأدهان والمساحيق عن أن تخفى حقيقة عمرها ، فلم يعد يرى شيئا فقد امتلأت عيناه بالدموع .

وسار مطأطىء الرأس يستشعر مهانة حتى خلف الشارع وراءه ، ووقع بصره على لافتة تحمل اسم الشارع : « سان باولى » فلوى شفته السفلى فى زراية ، وهمس فى نفسه : « ياللسخرية ! كيف طاوعتهم ضمائرهم على أن يطلقوا على هذه البؤرة اسم القديس بولص ؟ ! »

وعاد إلى ريبر بان وراح يتطلع إلى دور اللهو المنتشرة على الجانب الآخر من الطريق ، والتقطت أذناه أنغام موسيقى نحاسية كانت تزداد وضوحا وصخبا كلما تقدم فى سيره . وبلغ الحانة التى تتجاوب فى أرجائها الألحان الراقصة المنبعثة من القرب والآلات النحاسية ، فصعد بضع درجات ، ثم اجتاز الباب الزجاجى فإذا هو فى قاعة واسعة فى صدرها منصة عالية ، وقف فوقها رجال الفرقة الموسيقية يرتدون قمصانا بيضاء وبنطلونات قصيرة وعلى رءوسهم قبعات خضر مزينة بريشات ، ورأى فوق مدخل القاعة شرفة واسعة ، وعلى جانبيها مقاصير صغيرة ، وانتشرت فيها مناضد كثيرة التف حولها ناس من كل جنس وقد وضعوا على رءوسهم الطراطير .

راح يتخلل الجموع فى جهد ، وكانت الموسيقى تعزف والراقصون وقوف يهتزون فى أماكنهم فلم يكن ثم مكان يسمح لهم بالتحرك . ووصل إلى

منتصف القاعة فلم يجد مكانا واحدا خاليا ، ومد بصره إلى مقصورة قريبة فرأى عجائز يجلسن على مقاعدهن يتمايلن مع الأنغام ، فكن أشبه بالمنفصلات فى زار ، أو المشتركات فى حلقة ذكر .

ورأى مقعدا خاليا ، فنظر فرأى فتاة فى الثامنة عشرة وإلى جوارها شابان قد ناما على النضد ، فقال للفتاة :

— أتسمحين ؟

فقالت وهى تبتسم :

— تفضل .

وجلس والموسيقى النحاسية تصخب وتحجب صيحات المخمورين المنبعثة في كل الأرجاء . . وأقبلت سيدة بدينة تحمل بين أصابعها أكواب البيرة الكبيرة ، وتمر بين الراقصين فى خفة دون أن تضطرب البيرة فى الأنخاب . ووزعت الأكواب على الناضد ، ثم أقبلت نحوه فقال لها :

— كوكا كولا .

فقالت فى حدة :

— ولماذا لا تشرب بيرة ؟ !

— إنى لا أشرب .

فقالت فى غضب وهى تطوح بذراعها :

— ما الذى جاء بك إلى هنا ما دمت لم تفطم بعد ؟ !

وتركته وانسابت تدفع الراقصين بمنكبها ، ولمح الفتاة التى شاركها منضدتها تبتسم فقال لها :

— سويدية ؟

— لا . أنا من النرويج .

وأشار برأسه إلى الشابين اللذين كانا فى سبات :

— وهذان ؟

— صديقان لوالدى خرجا معى إلى مصر ، ونحن الآن فى طريق عودتنا إلى بلادنا .

— رجلان وامرأة

فنظرت إليهما فى زراية وقالت فى مرارة :

— كانا طوال الرحلة كما ترى ، لم يفيقا من السكر .

— ما كانا فى حاجة إلى شراب وهما فى رفقة هذا الجمال .

— ليتنى لم أخرج معهما فهما لا يختلفان عنى .

وابتسمت ابتسامة هازئة فقال مداعبا :

— ليتنى كنت أحدهما .

فلم يتلون وجهها ولم تطأطىء رأسها تتظاهر بالخجل ، بل قالت وعيناها فى عينيه :

— ياليت .

وصمتت الموسيقى ، وعاد الناس إلى مقاعدهم ، وأقبلت السيدة البدينة وفى أصابع إحدى يديها أكواب البيرة وفى يدها الثانية زجاجة الكوكا كولا ، فوضعت الزجاجة أمام على وهى تقول :

— تفضل ياطفلى الصغير .

وتحرك أحد الشابين ورفع رأسه فوقعت عيناه على على ، فرنا إلى الفتاة فقالت له :

— هذا صديق الجديد ، ألا تحييه ؟

فقال الشاب دون أن يرفع ظهره :

— ماذا تقول بلغتك : à la votre « فى صحتك » ؟

فقال على وهو يبتسم :

— أنت كلب .

فرفع الشاب كوب البيرة ودق بها زجاجة الكوكاكولا وهو يقول :

— أنت كلبو .

فضحك على حتى بدت نواجذه وقال :

— أنت كلبو .

ورفعت الفتاة كوبها ودقت بها الزجاجة وقالت فى ابتهاج :

— أنت كلبو .

وصعد الرجل إلى المنصة يترنح ، وتناول من « المايسترو » عصاه وأشار بها للفرقة فوقف رجالها متأهبين ، وسرعان ما جلجلت الموسيقى النحاسية تهز الناس من أعماقهم ، وأسرع الرجال والنساء إلى حلقة الرقص ، ونهض على وقال للفتاة :

— أتسمحين !

فقالت وهى تنهض :

— بكل سرور .

ونهض أحد الشابين وقال :

— هيا ننصرف . . أريد أن أنام .

وهز زميله من كتفه وهو يقول :

— هيا . إننا منصرفون .

وقام الشاب الآخر وهو لا يقوى على فتح عينيه ، ثم سار الشابان والفتاة بينهما تكاد تنفجر من الغيظ . وظل على يتبعهم بنظره فإذا بالشاب الذى بادله الأنخاب يعود إليه فيخلع الطرطور من على رأسه ويلبسه إياه ويقول :

— أنت كلبو .

ثم يعود أدراجه وعلى يرقبه وهو يبتسم .

ونظر على فى ساعته فإذا الليل قد انتصف ، وفكر فى أن يعود إلى الفندق فقد رأى الكثير فى الساعتين اللتين أمضاهما فى الحى الذى يخفق قلبه بالشهوات ، ولكنه فضل أن يمضى بقية الليل فى ملهى من الملاهى التى تقدم استعراضات التعرى ، ثم يغسل يديه من الحى كله ولا يعود إليه ، فما كان من طلاب اللهو الرخيص .

وغادر حانة البيرة وراح يعبر الطريق متجها إلى كازينو دى بارى ، وكانت الرجل قد خفت بعد أن اختفى الناس فى النوادى الليلية والحانات والمطاعم والكازينات والمواخير ، ولم يبق إلا فتيات الليل المتسكعات المتلفتات كالقطط ، كأنما كان « سان باولى » يفتقر إلى أول تجارة عرفت فى التاريخ .

ودلف إلى الكازينو ، وكان المسرح فى مواجهة الداخل ، وعلى جانبه الأيسر الفرقة الموسيقية ، وأمامه حلبة الرقص على هيئة نصف دائرة صفت حولها الموائد .

وخف إليه الجرسون وقاده إلى مائدة لا يفصلها عن حلبة الرقص شىء ، وما إن أخذ مكانه حتى أطفئت الأنوار وظهر على المسرح أمام الستار رجل يرتدى زى البحارة قد جاوز الخمسين ، ولكنه عريض الصدر مفتول العضلات ، بيده ميكروفون راح يدنيه من فمه ويقول بالإنجليزية :

— سيداتى وسادتى . تبدأ الآن سهرتنا الرائعة ، نقدم لكم فيها أجمل نساء العالم فى أروع الرقصات . تسعدون الليلة بمشاهدة حسناوات باريس وفيينا وبرلين ، باقة جمعت من كل روض من رياض الجمال لتشرح صدوركم . . لتدخل البهجة على نفوسكم . . لتبعث الدفء فى عروقكم . .

وأشار بيده إلى الستار وقال :

— والآن نقدم لكم الآنسة « شمبانيا » .

وانسحب والموسيقى تعزف والستار ينحسر عن المسرح رويدا رويدا .

كان المشهد فى الحمام ، وفى الوسط « بانيو » ملىء برغاوى الصابون تمددت فيه فتاة لا يظهر منها إلا رأسها ، وإلى اليسار خادم وقفت أمام « تواليت » صغير تعيد تنظيم زجاجات العطور .

وانتصبت الفتاة فى البانيو وكان يغطى جسمها طبقات من رغاوى الصابون ، ونادت خادمتها فأسرعت إليها وبيدها فرشاة راحت تزيح بها الصابون عن وجهها ، ثم عن عنقها ، ثم هبطت تزيحه عن كتفيها

وصدرها ، وتركتها هنيهة — وثديا الآنسة شمبانيا الشاهخان نهب لنظرات الجمهور — واتجهت إلى التواليت ، ثم عادت ووضعت فى إحدى يديها مرآة تشاهد فيها جمالها ، وتبعد بالأخرى خصلات الشعر المتهدلة على عينيها .

ثم عادت الخادم تستأنف عملها ، فهبطت بالفرشاة تزيح الرغوة عن الخصر النحيل ، ثم عن الأرداف المستديرة ، ثم هبطت تزيح ما على الساقين ، وتوقفت هنيهة ، واشتد عزف الموسيقى كأنما أصيب العازفون بالهستريا .

كانت الآنسة « شمبانيا » عارية تماما ، ولم يكن الصابون يغطى إلا ما بين ساقيها . ومدت الخادم يدها بالفرشاة لتزيح آخر ما بقى من الرغوة ، بينا أسرعت دقات الطبلة ، وترددت الأنغام الموسيقية فى لهوجة كأنما هى أنفاس لاهثة .

وتحركت الفرشاة فى رفق ، وأسرعت الآنسة « شمبانيا » تخفى ما بين ساقيها بالمرآة التى فى يدها ، وأسدل الستار والتصفيق يدوى من كل جانب .

ثم خف العمال يصلون بالمسرح منصة مستطيلة تمتد فى حلبة الرقص حتى تصل إلى المناضد الأمامية ، وفرشوها بسجاد أحمر . ومالبث البحار أن ظهر من وراء الستار وبيده الميكروفون .

— سيداتى وسادتى ! تشاهدون الآن « الجياد البشرية » .

وغمز بعينه وانسحب ، وعزفت الموسيقى ، وانفرج الستار عن راقصات عاريات تماما صففن شعورهن على هيئة ذيل الحصان وألصقت بمؤخراتهن ذيول طويلة . كانت الآنسة شمبانيا فى الوسط ، وعن يمينها

أربع راقصات ، وعن يسارها أربع راقصات أخر ، أخذن يرفعن أرجلهن ويهبطنها مقلدات الجياد ، ثم سرن على المنصة فى خطوات سريعة فترتج صدورهن العارية .

ورحن يستعرضن أجسامهن البضة ، يقبلن ويدبرن ، ويتبخترن فى دلال ، ويخطرن فى رقة ، ويتلفتن كأنهن غزالات شاردات .

وانتهى العرض وأسدل الستار ، وعاد البحار وبيده الميكروفون وراح يروى بعض النكات المكشوفة بأكثر من لغة ، ثم أعلن :

— والآن سيداتى وسادتى نقدم لكم الفرقة كلها فى أغنية « أحب باريس » ، وستهبط الحوريات إليكم لتشتركوا معهن فى هذه الأغنية .

فدوى المكان بالتصفيق والهتاف ، وانسحب البحار وانحسر الستار . كان الراقصات يرتدين جوارب سوداء طويلة تخفى سيقانهن وأفخاذهن حتى منابتها ، وغطت صدورهن النافرة ريشات خضر ، وغرست ريشات خضر أخر فى مؤخرات رءوسهن ، وغطيت سررهن بنجمات من صدف تعكس ألوان الطيف كلما وقعت عليها الأضواء المسلطة على المسرح .

وانبعثت الأصوات الرقيقة تردد : أحب باريس ، ورفعت السيقان فى توافق ، والتفت الأيدى بالخصور ، وراحت المجموعة كلها تتحرك صفاً واحدا ، وأمامهن واحدة منهن بيدها الميكروفون تغنى وتتحرك فى رشاقة ، وتغن فى النطق لتوحى بأنها من غانيات باريس .

وتقدم الفتيات على المنصة ، وهبطن إلى حيث يجلس الجمهور وانتشرن بين الموائد . ووقفت الآنسة شمبانيا إلى جوار نضد على ومدت

له يدها ، فقام ووضع يده فى يدها ، ووضع يده الثانية فى يد جارة له .
وأمسكت الأيدى بالأيدى ، وارتفعت الأصوات تردد الأغنية ، والأذرع مع اللحن تتحرك ، والأجسام تتمايل ، والعيون تخاطب العيون ، وأفعم المكان بالنشوة ، والصدور بالغبطة ، وأحس على بالسعادة تمور فى جوفه ، وبروحه تسبح فى عالم مسحور .

وانسحب الفتيات من القاعة وعدن إلى المسرح يستأنفن الرقص والغناء حتى انتهت الأغنية ، فتجاوبت فى أرجاء المكان عاصفة من التصفيق .

وارتفع الستار ثانية ، فإذا البحار وإذا الآنسة شمبانيا وعن يمينها فتاة وعن يسارها فتاة أخرى ، كن ثلاثتهن فى لباس البحر « البيكيني » .
وتقدم البحار فى المنصة وقال :

— والآن تجرى مسابقة الأزياء .

والتفت خلفه وقال :

— معنا هنا ثلاث حوريات جميلات .

وعاد يوجه كلامه إلى الجمهور :

— ألسن جميلات ؟ جميلات ولا شك . إنى أرى من هنا البريق الذى يشع من أعينكم .

ومال يخرج من صندوق جاء به أحد عمال المسرح ثوبا من قماش ، نشره على يده وقال :

— فى هذا الصندوق ثلاثة أثواب من القماش ودبابيس ، وسنختار

من بينكم ثلاثة رجال يتبارون فى كسوة الحوريات الثلاث ، فمن صنع من القماش والدبابيس أجمل ثوب ، فله جائزة .. زجاجة شمبانيا .

وضج المكان بالصياح ، وسرت فيه موجة حماس ، وتقدم البحار بضع خطوات وقال :

— والآن نختار الرجال .

وأشار إلى رجل يجلس بين ثلاث ألمانيات شقراوات ، فنهض وهو يبتسم والفتيات يضحكن ويدفعنه من ظهره يشجعنه على التقدم ، وأشار إلى على فراح يتلفت حوله فى اضطراب دون أن يتحرك من مقعده ، وراح البحار يستنهضه وهو يبتسم فى خجل ويود من أعماقه لو أن البحار اختار رجلا غيره .

وأحس بأيادى تمتد إليه وتدفعه فى رفق ، فالتفت فإذا برجل وامرأة كانا خلفه أقبلا نحوه يدفعانه ليصعد إلى المنصة ، فنهض وسار يتعثر . ومرت لحظات كلها قلق ، كان فى شبه غيبوبة ، فلم يشعر إلا وهو إلى جوار الآنسة شمبانيا وبيده علبـة دبابيس وعلى ذراعه ثوب من القماش المنقوش ، بينا وقف إلى جوار الفتاتين الأخريين رجلان وضعا القماش على ذراعيهما وتأهبا للعمل .

وتقهقر البحار وهو يقول :

— استعدوا ! سأعطى شارة البدء .

وصفق وهو يقول :

— هيا . . ابدءوا .

والف على الثوب حول جسم الآنسة شمبانيا ، وبدأ بالثديين فترك الأخدود الغائر بينهما عاريا ، حتى إذا هبط إلى الخصر راح يشد القماش ويلفه حولها ، وأراد أن يثبته بالدبابيس فخاف أن يحرك يده ليتناول الدبابيس فيفسد كل ما فعل ، فرفع علبة الدبابيس إلى الآنسة شمبانيا وقال :

— هل لك فى مساعدتى ؟

فقالت وهى تبتسم :

— بكل سرور .

والتقت عيناه بعينيها فى لمحة ، ولم يكتف بما نطقت به العيون بل قال :

— شكرا ، ناولينى دبوسا من فضلك .

فناولته الدبوس فغرسه فى الثوب فى حرص شديد ، وعلى الرغم من حرصه وخزها وخزة خفيفة فأهت أهة خافتة ، وأحس بما فعل فقال وهو يعاود النظر إلى وجهها :

— آسف ، إننى مضطرب قليلا .

فأشرق وجهها بابتسامة وقالت :

— وعلى م الاضطراب ؟ إننا هنا لندخل السرور على قلوبكم لا لنبعث القلق فيكم . . .

أتريد دبوسا آخر ؟

— لو تكرمين .

وناولته الدبوس فثبت به القماش عند نهاية الخصر ، ونشر ما بقى من

الثوب فألفاه طويلا أطول مما يريد ، فراح يفكر ماذا يفعل بالقماش الزائد وهو يلف الأرداف لفا محكما .

وراحت تناوله الدبابيس عند طلبه ، والتقت أعينهما أكثر من مرة ، واتخذت الابتسامات طريقها إلى ثغريهما ، وانتهى من تشكيل أسفل الثوب على هيئة جرس ، ولكنه فطن فى اللحظة الأخيرة إلى أن ذلك يتنافر مع الصدر العارى ، فعاود لف الجسم ليصنع ثوبا طويلا من ثياب السهرة .

وجلس على الأرض يلف الساقين العاجيتين ، وضجت القاعة بالضحك والتصفيق عندما ربت على ساقها لتضمها إلى ساقها الأخرى ، وانتهى من تشكيل الثوب ولم يبق إلا أن يثبت طرفه الأخير ، فرفع وجهه ورنا إليها بعينيه السوداوين وقال :

— دبوس من فضلك .

فمدت يدها بالدبوس فتناوله فى عجلة وثبت به نهاية الثوب ، ثم قام منتصبا ووقف عن يسار الآنسة شمبانيا ينتظر .

وانتهى الرجال الثلاثة من عملهم ، وتقدم البحار يسأل الجمهور رأيه ؟ فارتفع الصياح من كل جانب ، وراح على يتلفت وهو مشدوه ، فلم يكن يصدق أن الثوب الذى صنعه هو الذى نال إعجاب أكثر الذين أدلوا بأصواتهم .

وأعلن البحار فوز على ، وقدم إليه زجاجة الشمبانيا ، فتناولها منه واستدار وصافح الآنسة شمبانيا وقال لها :

— لو أنصفوا لمنحوك أنت الجائزة ، فالفضل لجسمك البديع . هل لك أن تنالى بعض حقك ؟

ومرر يده على زجاجة الشمبانيا بحنان .

فرفت على شفتيها بسمة لطيفة وقالت :

— بكل سرور .

وهبط على إلى مائدته ، واختفت الفتيات وراء الستارة .

وأسرع عمال المسرح يزيلون المنصة ، فعادت حلبة الرقص خالية . وعزفت الموسيقى فقام الرجال والنساء يتخاصرون ويدورون فى رشاقة ، وقد ترقرق البشر فى محياهم وسرى الدفء فى صدورهم .

وناول على الجرسون زجاجة الشمبانيا وجعل يتلفت حوله متفتح النفس ، ولمح الآنسة شمبانيا مقبلة نحوه فنهض يستقبلها بابتسامة عريضة ويعاونها على الجلوس .

وعاد الجرسون وبين يديه جردل من معـدن يتلألأ وضعت فيه زجاجة الشمبانيا وحولها ثلج مجروش ، فوضع الجردل على المائدة ، وقبل أن يفعل شيئا قال له على فى بهجة :

— ناول الآنسة شمبانيا كأس الفوز ووزع الباقى على جيراننا .

ونظرت إليه برهة ، وقالت :

— أنت مسرور ؟

— نعم . فما أجمل أن يفوز المرء ! إن البهجة تشع فى نفسه إن فاز فى الشطرنج أو فى البنج بونج أو فى أية لعبة وإن كانت تافهة ، التفوق

فى أى شىء لذيذ يبعث الرضا فى القلب . وأنت ألست سعيدة ؟

فقالت ورفت على شفتيها بسمة فيها مرارة :

— واجبنا أن نجعلكم سعداء ، هذا هو المهم .

وتناولت كأسها ، وقبل أن ترفعها إلى شفتيها فطنت إلى أن كأسه فارغة ، فقالت وهى تبتسم :

— ألا تشرب كأس فوزك ؟

— إننى لا أشرب .

فضحكت ضحكة ساخرة وقالت :

— وما الذى جاء بك إلى هنا ؟

— لست من رواد الليل ، إننى عابر سبيل .

— من أين ؟

— من مصر .

— ما اسمك ؟

— على . وأنت ؟

— آنى .

فراح يردد فى صوت خافت أقرب إلى الهمس :

— على . آنى . . على آنى . هذا جميل . هذا لا ينسى .

فقالت وهى تضحك هازئة :

— أنا واثقة أنك ستنسى هذا الاسم قبل أن تغادر ملهانا ، إننا شىء طالما أنتم هنا ، ثم لا شىء إذا قضيتم مآربكم .

— أليس لك أصدقاء ؟

فقالت وهى تجول بعينيها فى المكان :

— كل هؤلاء الرجال أصدقائى ، والذين يفدون إلى هنا غداً سيكونون أصدقائى ، وكل من تطأ قدمه هذا المكان ، طالما أنا هنا ، صديقى ، وعلى أن أقدم له كل ما يرضيه .

— إننى لا أسألك عن رواد الكازينو بل أسألك عن الأصدقاء الحقيقيين .

فقالت وقد التمعت عيناها الزرقاوان ببريق غريب :

— أتؤمن بهذا الوهم ؟

— أى وهم ؟

— وهم الصداقة .

— إنها ليست وهما ، إنها حقيقة ، وما أبشع الدنيا لو خلت منها .

— إننا نعيش فى الأدغال ، ولا تغرنك المدن الجميلة التى بهرت عينيك ، القوى يلتهم الضعيف ، والكل يحاول أن يشبع غرائزه ويرضى نزواته ، وإن تقرب إنسان من إنسان فالغاية من هذا التقارب تحقيق مصلحة ذاتية .

ومررت يدها على شعرها الأشقر تعيد خصلة تهدلت على جبينها وقالت :

— آسفة . أنا هنا لأدخل السرور على قلبك لا لأثير جدلا فارغا لا طائل تحته .

فقال وهو يبتسم .

— إنى سعيد بهذا الجدل ياصديقتى العزيزة .

— أشكر لك مجاملتك ياصديقى العزيز .

وضحكت فى زراية فقال لها :

— أتؤمنين بالأمومة ؟

— لا أعرفها ولم أذق طعمها .

— ألم تلاحظيها فى الحيوانات ، فى القطط والـكلاب مثلا ؟

— بلى .

— إذن فعاطفة الأمومة موجودة !

— نعم .

— إذا كنت تعترفين بالأمومة فلا بد أن تعترفى بالصداقة ؛ لأن الصداقة أمومة ثانية .

ونظر فى عينيها ونظرت فى عينيه ، ومرت لحظة صمت ثم قال :

— إنى أعرض عليك صداقتى .

واستشفت الصدق فى لهجته ولـكنها أبت أن تصدق ما يقول ، فقالت ساخرة :

— نحن لا نملك أن نرفض ما يقدم إلينـا — يا أمى العزيزة — وإن كان وهما ، وما أكثر ما قدم إلينا من أوهام .

ولم تجرحه سخريتها ، ومد يده فى جيبه فأخرج بطاقة وقلما قدمهما إليها وهو يقول :

— أرجو أن تتكرمى بكتابة عنوان بيتك لأننى من الغد سأزورك .

فراحت تكتب العنوان فى هدوء ، ثم قدمت إليه البطاقة والقلم وهى تقول :

— أنا واثقة أنك ستمزق البطاقة قبل أن تقوم من مكانك يافارسى الجميل .

فأعاد البطاقة والقلم إلى جيبه وقال :

— غداً فى الخامسة مساء سأمر عليك ، لا لشىء إلا لتحيتك .

— غداً فى الخامسة مساء ستكون مع إحدى المتعطشات للحب ، وما أكثرهن فى هامبورج . لقد قرأت ما تحاول أن تخفيه ، فأنت تشتهى النساء يا أبى العزيز ولكنك تهاب المجربات ، تريد فتاة غريرة ، وآسف إذا كنت أقوض أمانيك فلن تجد مثل هذه الفتاة هنا فى بلادنا .

فقال فى هدوء :

— لقد وجدتك وهذا يكفينى ، ولن أبحث عن مجربة أو غريرة ، غداً فى الخامسة سأمر عليك ، أتأذنين ؟

— وهل يستأذن الصديق صديقه فى زيارته ؟

ونهض مصافحاً وقال :

— آسف إن كنت أخذت منك وقتا طويلا دون مقابل .

فقالت وهى تمد له يدها مصافحة :

— هذه إحدى مساوىء الصداقة .

— بل إحدى حسناتها،إنها تعلمنا كيف نجود دون أن ننتظر جزاء .

— أو يطعمنا هذا ؟

— ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

وخفض رأسه محييا ثم قال :

— إلى الغد .

فقالت وهي تستدير منصرفة :

— وداعا يا أمي العزيزة .

— بل إلى اللقاء .

وخرج إلى الطريق وكانت الساعة الثالثة صباحا وقد لاحت في السماء تباشير الصباح . وكان الهواء باردا ولكنه لم يتأفف فدفء مشاعره يشع في جوفه ، والسعادة تغمره ، والرضا يملأ أقطار نفسه .

ومر به تاكسي فأشار له بيده ، فوقف على بعد خطوات منه ، خف إليه وغاب فيه وهو يقول :

— فندق أطلانتيك من فضلك .

وفاضت غبطته فراح يدندن :

— « بالله يا ليل تقول للفجر يستنى . . . »

٢

راح يفكر فى هدية يحملها معه ، وهو يخرج من الصوان بذلته الكحلية الأنيقة التى خصصها للحفلات الهامة التى يدعى إليها ، ثم وهو يغدو ويروح أمام المرآة يصلح ربطة الكرافاتة بأصابعه .

أيشترى لها قرطا أو عقدا من المحل المواجه للفندق ؟ أيكتفى بباقة ورد ؟ ! أو بعض الحلوى والشيكولاتة ؟ ! وراح يحاول أن يقنع نفسه أن ما سيقدمه لها إن هو إلا رمز لصداقته ، سواء أكان وردا أم عقدا أم قرطا أم زجاجة عطر أم بعض الحلوى ، ولكن لم يعجبه ذلك المنطق ، وطفق يستعرض فى خياله كل ما لفت نظره فى واجهات المحال الكثيرة المنتشرة على جانبى الطرق التى مر بها .

وتذكر فجأة أن بالممر المواجه لبار الفندق معرضا يبيع التحف الشرقية ومنتجات خان الخليلى . . سيحمل إليها هدية من صنع بلاده ، واستراح للفكرة فراح يتم زينته وهو منشرح الصدر تطوف به موجات من السعادة والرضا .

واطمأن إلى أن البطاقة المدون على ظهرها العنوان فى جيبه ، ثم ألقى على صورته فى المرآة نظرة أخيرة ، وانطلق نشيطا صوب المصعد .

وهبط إلى ردهة الفندق ، واتخذ طريقه إلى الرجل الواقف خلف

نضد على شكل نعل الحصان لاستقبال رواد الفندق والرد على استفسارات نزلائه ، وقدم إليه البطاقة وهو يقول :

— كيف أصل إلى هذا العنوان ؟

فتناول الرجل البطاقة وراح يقرأ بصوت مسموع ، ثم قال بالإنجليزية :

— جسر الشيطان ! إنه بعيد من هنا يا سيدى ، إنه هناك عند شركات بناء السفن خلف مبانى شركة دويتش ويرف .

فقال على وهو يتناول منه البطاقة :

— شكرا لك ، إننى أعرف هذه المنطقة فعملى هناك .

وانطلق فى الممر الطويل الممتد فى الجناح الأيسر من الفندق ، وكانت على جوانبه صناديق زجاجية عرضت فيها أدوات الزينة ، وتحف وتماثيل من الصينى ، وملابس داخلية للنساء . وبلغ معرض التحف الشرقية ، وكانت السجاجيد العجمية تغطى الأرض والحوائط ، وفى الوسط نضد مثمن الشكل مطعم بالصدف وفوقه صينية صفراء كبيرة ، وفوق الصينية مجمرة من نحاس أصفر مغطاة بغطاء على شكل نصف كرة مزخرف بزخرفة مفرغة يعلو قمته هلال ، وانتشرت فى المكان مقاعد سروج الجمال ، ومقاعد أسطوانية من جلد مزركش ، ووضعت فى ركن شيشة حولها بعض الحشايا ، وتدلى من السقف قناديل من نحاس أصفر مفرغ مزركش .

واتجه إلى حيث تعرض صوانى خان الخليلى ، وتناول صينية متوسطة

الحجم وسأل عن ثمنها فألفاه خمسة أضعاف ثمنها فى بلاده ، فتواضع والتقط صينية صغيرة دفع ثمنها وانصرف .

وخرج إلى الطريق وكان المطر يتساقط رذاذا ، فقلما كان يمر يوم دون أن تمطر السماء ، وسار إلى محطة الأوتوبيس ، فلما أقبل صعد فيه وجلس شارد الفكر يحاول أن يسبق الأحداث بخياله .

وظل غارقا فى تصوراته ، يجرى ما يشاء من الحوار بينه وبين طيفها ، ورآها أكثر من مرة وهى عارية تماما بجسمها الممتلئ عند الأرداف وصدرها النافر ، فكان يهرع بتفكيره إلى أشياء أخرى ؛ ليمحو تلك الصور العارية التى كانت تبعث القلق فى نفسه

ولاحت على أرصفة الميناء روافع كثيرة ، وأحواض عائمة ، وسفن ضخمة كاد العمل ينتهى فيها ، وهيا كل سفن من الصلب العارى ، وقطاعات من سفن لم تتم بعد ، فانتصب واقفا يتأهب للنزول .

وهبط من الأوتوبيس والمطر لا يزال يتساقط رذاذا ، فكان أول ما فعله أن أخفى الهدية فى طيات ثيابه خشية أن تبتل ، ثم راح يهرول ليجتاز الطريق وينطلق إلى مرفأ النهر .

ووقف تحت مظلة يتلفت فلا يجد أثرا لجسر ، ونظر فى ساعته فألفاها الخامسة إلى ثلثا ، إن أمامه عشرين دقيقة ليصل إليها وهو لا يدرى أين منزلها ، وبدأ الضيق يزحف إلى صدره ، ومس أذنيه وقع أقدام فالتفت فرأى رجلا قادما يسير فى تؤدة وقد نشر مظلته يتقى المطر ، فأحس شيئا من الراحة .

وسأل الرجل :

— أين جسر الشيطان من فضلك ؟

— فى الضفة الثانية ، وها هو ذا الزورق البخارى الذى يعبر النهر قادم .

فقال على وهو يتلفت :

— ولكنى لا أرى جسراً !

فقال الرجل وهو يبتسم :

— ليس الشيطان فى حاجة إلى جسر من جسورنا ليعبر النهر يا سيدى ، فما أكثر جسور الشياطين وإن كنا لا نراها .

ووقف الزورق عند المرفأ وهبط منه رجال ونساء ، ثم قفز إليه على والرجل الذى كان يحادثه فما كان هناك غيرهما ، وعاد الزورق يعبر نهر الألستر إلى الضفة الأخرى .

وراح على ينظر إلى المطر المتساقط فى النهر ، وإلى الروافع الكثيرة الممتدة على مدى البصر ، ويقرأ أسماء السفن المدونة على جوانبها ، ويصغى إلى صوت الزروق وهو يهتك السكون الشامل المسيطر على المنطقة جميعها .

ووصل الزورق إلى مرفأ صغير فنهض على يتلفت ، وإذا بالرجل الذى كان يحاوره يقول له :

— هنا جسر الشيطان . . تفضل .

فقفز على إلى الأرض ووقف ينتظر تحت المطر المنهمر ، كان يحسب أن الرجل لاحق به ، ولكن خاب ظنه لما تحرك الزورق نحو مرفأ آخر .

وصعد بضع درجات فألفى نفسه فى الطريق العام ، وعن يساره انتشرت منازل من طبقتين سقوفها مخروطية الشكل مغطاة بقرميد أحمر معرج ، وحولها حدائق يانعة ، ازدهت فيها الخضرة وشبت الورود وتفتحت وتمايلت فى خيلاء كأنما تستشعر جمالها .

ورأى سيدة قادمة على دراجتها ، فخف وقدم إليها البطاقة فقرأتها فى تؤدة ولم تتبرم بالمطر الذى اشتد تساقطه . أشارت له أن يعرج فى أول طريق يقابله ، وقالت له بالألمانية « أربعة » وأكدت ذلك بأصابعها .

فشكرها ودلف إلى الطريق الذى دلته عليه ووقف أمام باب البيت الرابع . ونظر فى ساعته فوجد أن عليه أن يتريث خمس دقائق قبل أن يطرق الباب . لقد قال لها إنه سيزورها فى الخامسة ، فليس من حقه أن يزعجها قبل ذلك .

وتحركت فى جوفه موجات من القلق ، وبدأ يضايقه المطر ، وراح ينقل الهدية بين ثيابه من مكان إلى مكان حتى لا يصل إليها الماء ، ونظر إلى البيت يتفحصه فإذا هو من الخشب ، ولكنه على الرغم من صغر حجمه كان أنيقاً ، بعيداً كل البعد عن البيت الذى رآه بعين خياله شامخاً يكاد يصل إلى السحاب !

ومرت الدقائق الخمس فطرق الباب فى رفق ، وقد سرت فيه رعدة خفيفة واستيقظت حواسه جميعاً . ومس أذنيه همس أقدام تقترب فخفق قلبه وثبتت عيناه فى محجريهما .

وانفرج الباب عنها وكانت فى روب أسود يلف جسمها لفاً ويبرز

كل فتنتها ، ولما وقعت عيناها الزرقاوان عليه لاحت فى وجهها الدهشة ، وقالت فى نبرة فيها ارتياح :

— أهو أنت ؟ ! تفضل .

ودخل وأغلقت وراءه الباب ، وسارت أمامه تقوده إلى غرفة متوسطة أثثت بأثاث بسيط : بعض المقاعد الوثيرة ، وبساط على الأرض ، وستائر من كريتون طبع عليه ورود جميلة ، ونضد منخفض فى الوسط صفت فوقه بعض الهدايا ، وزينت الحوائط بأطباق من الصينى عليها مناظر من ألمانيا ، وفى مواجهة الداخل صورة كبيرة لها وهى عارية تماما .

قالت له وهى تبتسم :

— لقد جئت وصدق وعدك .

فقال لها فى ارتياح :

— أنا إن وعدت نفذت وعدى .

وجلس وجلست :

— رواد الليل وعودهم سراب .

— ولكنى لست منهم .

وقدم إليها الصينية وهو يقول :

— تذكار متواضع من بلادى .

فقالت وهى تتناولها منه :

— شكراً .

وفضت الغلاف فى حرص ، وفتحت صندوق الورق فوقعت عيناها على النقوش العربية فصاحت فى إعجاب :

— مدهشة !

والتقطت الصينية من صندوق الورق فى حرص شديد كأنما هى من خزف أو زجاج ، وراحت تقلبها بين يديها وتتفرس فيها :

— رائعة !

وهبت واقفة كأنما تذكرت شيئاً ، فوضعت الصينية على مقعدها وقالت :

— آسفة ، ثيابك مبتلة ولم أفعل شيئاً سوى إظهار فرحتى بالهدية ، عيبى أنى أنانية ، أعرف ذلك ولكننى لا أستطيع أن أصلح أمرى .

وابتسمت وأطلت مرارة نفسها من زاويتى شفتيها ، ومدت يدها وهى تقول :

— الجاكتة من فضلك .

فنهض وخلع جاكتته وقدمها إليها ، فلمحت حافظة النقود فى جيبها الداخلى فقالت مازحة :

— خذ نقودك ياسيدى قبل أن تختفى .

فقال وهو يبتسم :

— وأين هى حتى تختفى ؟ إنها تتوارى فى حافظتى خجلا .

ودارت على عقبيها وسارت والجاكتة معلقة بأصبعها ، وهو يتبعها بنظرة تشيع فيه راحة وتموج فى جوفه سعادة هادئة ، وغابت عن عينيه فاضطجع فى جلسته وجعل يتلفت يفحص عن كل ما فى الغرفة : كانت

الألوان متناسقة ، وقطع الأثاث تنم على الرغم من بساطتها عن ذوق سليم ، والصور والتماثيل متباينة تمثل أذواق بلاد مختلفة وإن كانت كلها أوروبية . ستكون صينيته شيئاً فريداً فى هذه المجموعة .

ووقفت عيناه عند صورتها العارية وراح يديم النظر إليها ؛ إنها جميلة متناسقة الأعضاء ممتلئة الصدر مستديرة الأرداف ؛ ولكنه لا يستشعر راحة كلما رآها عارية . . فهو يطمئن إليها ويحس أنها أقرب إلى نفسه وهى فى ثيابها ، فلا تنتابه موجة الرهبة التى يثيرها برمه بأن تعرض امرأة مفاتنها على الملأ .

وأقبلت تحمل صينية عليها إبريق الشاى ووعاء اللبن ووعاء السكر وفنجانان ، ووضعتها على النضد وقالت :

— كم قطعة من السكر ؟

فقال وهو ينظر فى عينيها :

— ثلاثاً .

— لبن ؟

— شكراً .

وقدمت إليه فنجان الشاى ، وتناولت فنجانها وعادت إلى مقصدها .

كانت الصينية التى أهداها إليها حيث تركتها ، فمدت يدها وتناولتها وعاودت التفرس فيها .

— نقوش دقيقة .

— إنها صناعة يدوية .

— حقاً ؟ ! إنها بديعة ، ولـكن لا أحسب أن هذه التي في الوسط نقوش .

وكانت تمرر أصبعها على ما كانت تقصده فقال :

— إنها كتابة بالخط الـكوفي ، وهو طراز قديم من الخطوط العربية يستعمل غالبا في الزخرفة .

— وماذا تقول هذه الـكتابة ؟

قال باللغة العربية :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم راح يترجم ذلك إلى اللغة الانجليزية .

فقالت وهي تقلب الصينية في يدها :

— لا بد أن هذه الصينية مأخوذة عن أصل قديم . . مغرق في القدم .

فقال وهو يضع فنجان الشاي :

— وما الذي جعلك تظنين ذلك ؟

— لأن هذا الـكلام قديم لا مكان له اليوم في دنيانا . لم نعد نؤمن إلا بما تلمسه أيدينا ، أو تراه أعيننا ، أو تسمعه آذاننا ، أو تشمه أنوفنا ، أو تذوقه ألسنتنا .

فقال لها في هدوء :

— ولـكننا لا نبدأ عملا إلا ونذكر اسم الله عليه .

— مجرد عادة .

— بل عن إيمان عميق منا ، إن الله معنا أينما كنا ، نستشعره فى نفوسنا ونقدم إليه كل أعمالنا ونسأله العون والفرج إذا أقدمنا على عمل أو حاق بنا الضيق ، وقد عودنا أن يستجيب لدعائنا .

فقالت فى انفعال :

— لم أحس وجود الله فى أية لحظة من لحظات حياتى ، . كنت أسير فى الظلمات وحدى أتجرع المر ، وأتمرغ فى الطين ، ولا أحد يرحم ضعفى أو يأخذ بيدى ، لو كان لله وجود ما تركنى دونما ذنب للهوان والتشريد .

— ذلك لأنك أغلقت قلبك دونه ولم ترفعى بصرك إليه ، فلو أنك دعوته لاستجاب لك وأنار ظلمات نفسك وأمدك بروح من عنده ، فهو رءوف رحيم .

فقالت فى حدة :

— أمن الرحمة أن أجد نفسى فى هذه الدنيا ضالة لا أعرف من أنا أو من أين جئت أو إلى أين أسير ؟ وهذا الاسم الذى أحمله أأطلقه على أبواى أم أطلقه على أناس آخرون ؟ أهيم بين خرائب هامبورج التى دكها الحلفاء كالكلاب الضالة ، أبحث عن لقمة تمسك على نفسى أو مأوى يؤوينى من البرد والمطر والجليد المتساقط ، ولا أطمع فى حذاء أدس فيه قدمى العاريتين المقرورتين ، وغاية أمانى أن أجد ثوبا ألف به جسمى الذى يكاد يتجمد . ما أكثر الليالى التى كنت أفترش فيها الأرض وأنا أضم إلى صدرى كلبا من كلاب الطريق ليبعث الدفء فى أوصالى .

كم بكيت ! كم قاسيت وتعذبت ! لماذا ؟ قل لى لماذا كل هذه القسوة

الظالمة ، وما كنت فعلت بعد شيئا أستحق عليه ما تحملت من عذاب !

فقال فى هدوء :

— لعل له فى هذا حكمة ؟

فقالت فى سخرية :

— أى حكمة ؟

فقال فى إخلاص :

— لست إلها لأعرف حكمته ، وليس لى أن أسأله عما يفعل ولا أن أحكم بعقلى المحدود على أفعاله .

فقالت فى حزن وقد شردت ببصرها وزوت ما بين حاجبيها :

— وأين كان الله يوم كنت طفلة عزيزة لم أبلغ الثانية عشرة ، وجاء إلى جندى من جنود الحلفاء فأغرانى بطعام لذيذ وشراب جعل الدفء يسرى فى عروقى ، ثم راح يعبث بى . وليته اكتفى بذلك بل أخذنى إلى رفاقه السكارى وخلع عنى ثيابى وأوقفنى بينهم عارية ، حتى إذا دارت رءوسهم قاموا إلى كوحوش كاسرة ولم يتركونى إلا وأنا أكاد ألفظ الروح ! إن مارأيته من أهوال لا يمكن أن يراه إله ويسكت عنه ، فلو كان الله موجودا لماسكت على ما فى الأرض من شرور

— الله أرأف بالناس من أنفسهم ، فلو أنه آخذهم على ما اقترفوا من آثام لما أبقى على أحد منهم ؛ ولكنه يمهلهم لعلهم يستغفرونه ويتوبون إليه فيتوب عليهم ويدخلهم فى رحمته ، إن الطريق إلى الله ، زاخر بالآلام والدموع ، بالشرور والآثام ، مرارته مهما تطل قصيرة الأمد إذا قيست بحلاوة الخلود .

ونظر إليها فى عطف وقال :

— من يدرى لعلك تسيرين فى طريق الله .

فضحكت ضحكة تقطر مرارة وقالت :

— أنا أعرف الطريق الذى أسير فيه وأعرف أين ينتهى ، إنه ينتهى هناك فى سان باولى ، فى النوافذ الزجاجية التى تجلس فيها نساء عاريات يعرضن بضاعة أعرض عنها المتغطرسون ، الذين يملكون مالا يستطيعون به شراء الأجسام الشابة النابضة بالحيوية والسحر .

ونظرت بعينين زائغتين وقالت :

— أرأيت نساء سان باولى فى نوافذهن الزجاجية ؟

فهز رأسه أن نعم وقد انتشرت فى وجهه موجة من الأسى وانقبض قلبه حزنا ، وقالت فى صوت فيه خوف ودموع وإن لم تطفر عبرة إلى مآقيها :

— هذا هو المستقبل الذى ينتظرنى .

فقال فى حماسة :

— لن يكون هذا مصيرك إذا أنت لم تستسلمى للهزيمة . إن أول بوادر الهزيمة تنبت فى أنفسنا . . فى داخلنا . . فإن أردنا أن نقضى على منابت الضعف فينا فعلينا أن نملأ أنفسنا بإيمان عميق تفيض به جوانحنا ، وليس هناك إيمان أعظم من الإيمان بالله .

— أتريدنى على أن أومن بوهم ؟

— إن الله حق ، ولا قيمة لحياة الناس إن هم فقدوا الإيمان به ،

فالذين أنـكروا وجود الله لم يستطيعوا أن يعيشوا بغير إيمان فخلقوا لأنفسهم آلهة جديدة ، أتدرين ما الذى أنزل الهزيمة بالنازية ؟

— طائرات الحلفاء التى دكت برلين .

— أبداً ، فقد دبت الهزيمة فى قلوب الألمان قبل ذلك بكثير ، عندما تزعزع إيمانهم بدينهم الجديد الذى غرسه هتلر فى نفوسهم .

— أى دين ؟

— الدين الذى كانت أبواق الدعاية تبثه فى صدور الألمان . فقد انتزع هتلر الإيمان بالله من قلوب أتباعه وغرس مكانه إيمـانا بأنهم أفضل البشر ، وأن عليهم أن يسودوا العالم وأن يرفعوه إلى مصافهم . ظل ذلك الإيمان يعمر جوانحهم ما داموا منتصرين ، وزادت انتصاراتهم فى تعصبهم للدين الجديد ؛ ولـكن ما إن دارت الدائرة عليهم وذاقوا أول هزيمة ، حتى تبخر ذلك الوهم ولاحت لهم الحقيقة السافرة : إنهم كسائر البشر ولا فضل لهم على من سواهم . كان الدين الجديد قميئا لم يستطع أن يملأ الفراغ الهائل الذى خلفه انتزاع الإيمان بالله من صدورهم . ودبت الهزيمة فى أغوار نفوسهم فلم يعد ثم ما يحاربون من أجله . ففترت موجة الحماسة التى كانت تدفعهم إلى التضحية بذواتهم وهم راضون ، فلاذوا بالفرار ينجون بأرواحهم ، فالروح تصبح أعز ما فى الوجود إذا ما انهزمت المثل العليا التى تذود عنها .

فقالت وهى تضع ساقا على ساق :

— كانت الشيوعية ملحدة وكانت النازية ملحدة ، فلماذا صمد الروس وانهزم الألمان ؟

— لأن دين النازية انهار قبل دين الشيوعية ، ولسوف تنهار الشيوعية يوم يتزعزع إيمان المتعصبين لها . . يوم تتضح لهم الحقيقة .

— وهل هناك حقيقة على وجه الأرض ؟ ستظل الحقيقة ضالة يبحث عنها الباحثون ويدعى كل فريق أنه عثر عليها .

فقال فى إقناع :

— هناك حقيقة واحدة لم تتبدل منذ الأزل وستظل كما هى إلى الأبد ، من أسلم لها نفسه عاش آمنا مطمئنا ، ومن جحدها قاسى من القلق والخوف . . هذه الحقيقة هى الله .

فقالت وهى ترنو إليه بعينيها الزرقاوين ، وكانتا كنافذتين تطلان على دنيا سحيقة مغلفة بضباب :

— أأنت من رجال الكهنوت ؟

— ليس فى ديننا رجال كهنوت

— أقصد أأنت من المشتغلين بالدين ؟

— أبداً ، فأنا مهندس جئت أتسلم سفينة تبنى لحسابنا هنا فى هامبورج .

فقالت فى دهش :

— مهندس سفن كهؤلاء المهندسين الذين يسكنون حولنا ؟ إنى لا أكاد أصدق هذا !

— لماذا ؟

— لأننى لا أعتقد أن بينهم من يهتم بأمر السماء مثل اهتمامك ، فهم غارقون فى كتب الهندسة ، وأحسب أن ذلك أنفع لهم وأجدى .

— هل حدث أن قرأت يوما فى الـكتاب المقدس ؟

— لم تقع عيناى عليه أبداً .

— لو كان لك حظ وقرأت فيه لأحسست سكينة عجيبة تنزل على قلبك ، ولعرفت أن الروح قد تكون فى حاجة إلى الغذاء أكثر من حاجة الجسم إليه.

فقالت وهى تتفرس فيه :

— الله . الروح . غذاء الروح . . سكينة النفس . . الـكتاب المقدس ! من كان يدور بخلده أن يكون هذا أول حديث بين شاب أسمر فاتن وامرأة تمتهن عرض محاسنها على الناس ؟ لقد خلوت ومئات الرجال ولم يحدث أبدا أن حدثنى واحد منهم عن الله وقدرته ، والروح والـكتاب المقدس كانوا جميعاً يطرون محاسنى ويتغزلون فى جسدى ، كانوا واقعيين !

فقال لها فى هدوء دون أن ينفعل أو تطرف عيناه :

— آسف ياصديقتى إن كنت خيبت ظنك .

— بل أستميحك عذراً إن كنت أثقلت عليك بطرف من مأساة حياتى ، فما كان كريماً منى أن أثقل كاهلك بهمومى .

— إننى قدمت إليك صداقتى عن طيب خاطر ، وأبسط حقوق الصداقة أن يشارك الصديق صديقه فى سروره وأحزانه .

— ألم يضايقك ما ثرثرت به ؟

— بالعكس . لقد أرضانى وأكد لى أنك قبلت صداقتى وفتحت لى قلبك .

فشردت ببصرها وقالت :

— ما أجمل أن نجد الصديق الذى نطمئن إليه ونبثه لواعج نفوسنا !
أمرنا عجيب ! ، أطمئن إليك بعد لحظات وأصارحك بماضى دون خجل أو نفاق ، بينا أحاول أن أخفيه عن زميلاتى اللاتى قد لا تكون ظروف حياتهن أفضل من ظروف حياتى !

فقال وهو يبتسم :

— أمرنا عجيب حقا ! اكتشفنا كل ما حولنا ، ثم عرجنا إلى السماء وطمعنا فى أن نرتاد الكواكب والنجوم ، بينا لم نكتشف أنفسنا وما يجرى فى داخلنا . قد نكون نحن البشر أكثر تعقيدا مما فى الكون جميعه . كيف نفكر ؟ كيف تتباين أفكارنا ؟ كيف نفعل ؟ لماذا نضحك إذا سررنا ونبكى إذا حزنا ؟ لماذا تتفتح قلوبنا لأناس وتغلق دون آخرين ؟ كيف نحب وكيف نكره ؟ كيف أن القلب الذى يتفتح للحب هو نفس القلب الذى ينز مقتا وبغضا وكراهية ؟ وآلاف الأسئلة الأخرى التى لا نجد لها جوابا ! إن الإنسان هو آية الله فى خلقه .

فقالت فى ثقة :

— أظن أن داروين كشف لنا سر الحياة ، وارتاد فرويد أنفسنا وهتك أسرارها ، وألقى أنشتين وأترابه أضواء على الكون فانجاب ما كان يغلفه من ظلام . إننا نعرف الآن كل ما يدور حولنا ، بله ما تنبض به قلوبنا وما يعتلج فى نفوسنا .

فرنا إليها رنوة طويلة وقال :

— كل مابلغه هؤلاء العلماء الأجلاء إن هو إلا قطرة من محيط علم الله ،

ولو أردنا أن نقرب إلى عقولنا المحدودة مقدار عظمة الله ، فلنفكر فى أن كل ما أنار عقول البشر منذ بدء الخليقة إلى أن تقوم الساعة إن هو إلا قبس من نوره ، وأن جميع الكائنات فى الأرض أو فى السماء من صنع يديه ، وأن كل ما يقتات به الناس والحيوان والطيور فيض من كرمه ، وكل ما بهر القرون من جواهر ولآلئ وذهب ويواقيت صدفة فى خزائنه .

وصمت فجأة إذ وجد أنه لو استرسل فلن ينتهى من ذلك الحديث أبدا ، وحول عينيه عنها فوقعتا على صورتها وهى عارية ، فارتد بصره إليها وقال :

— هل قرأت شيئاً لدارون وفرويد وأنشتين ؟

فنهضت وهى تبتسم وقالت :

— تفضل معى ..

فقام وسار وراءها حتى دلفا إلى غرفة واسعة على حيطانها أرفف صفت عليها كتب كثيرة ، وفى ركن منها مكتب صغير أنيق عليه أباجورة للقراءة . وراح يقلب عينيه فى المكان فى دهش ، مما دار بخلده أن يجد عند فتاة تتجر بالجسد كل هذه الكتب ، وقرأت فى وجهه ما خطر على قلبه فقالت :

— أيدهشك أن يكون عند مثلى هذه المكتبة ؟ ليس لى رفيق فى بيتى إلا كتبى ، فهى أنيسى فى وحدتى ونافذتى التى أطل منها على الدنيا الزاخرة بالتجارب النابضة بالأحداث ..

فقال شارد الذهن كأنما يحدث نفسه :

— وهل جلبت لك الكتب طمأنينة القلب وراحة النفس ؟

فقالت فى استنكار :

— ومتى كانت المعرفة تجلب الطمأنينة والراحة ؟ . إننا كلما أوغلنا فى ظلمات الحياة لنكشف أسرارها ، مار فى أعماقنا القلق وعذبتنا الهواجس . فما يعرف الطمأنينة إلا الطفولة ، طفولة الناس وطفولة البشرية .

— ولماذا لا تكون هذه المعرفة قد خدعتنا فحرفتنا عن الطريق القويم وألقت بنا فى التيه ؟

— لقد قادتنا المعرفة إلى واقعنا لتكشف لنا عن الحقيقة ، وسيان عندها أكانت حلوة أو مرة ؛ رفيعة أو هابطة . إنها لا تحاول أن تتملق عواطفنا ألبتة .

— ولماذا لا تكون المعرفة قد ضلت الطريق ، وهى مقتنعة فى قرارتها أنها تسير على الصراط ؟

— علامات الطريق تؤكد أنها منطلقة إلى غايتها .

— ولماذا لا تكون تلك الظواهر التى بهرتنا فى التيه فحسبناها حقيقة ، إن هى إلا سراب ؟ إذ لو كانت ماء لأروت الظمأ الذى يكاد يخرط حلوقنا .

يخيل إلى أننا نسير فى طريق مواز لطريق الحق ، ولن نصل إلى اليقين إلا إذا عرجنا إلى طريق الإيمان . طريق الله

— لم نكن نعرف طريقنا فى وقت من الأوقات كما نعرفه الآن ، إننا واقفون على أرض صلبة لا تخفى علينا عناصر تكوينها ، ولا ما فوق سطحها ، ولا ما فى جوفها ، ولا السماء التى تظلها . حتى أجسامنا عرفنا مما تتكون ، وعرفنا أن عناصرها لا تساوى دويتش مارك لقد وضع المعمل أيدينا على لب الحقيقة

— أفلو قدمنا للمعمل العناصر التى يتكون منها جسم الإنسان يستطيع أن يعيد تركيبه ، بله أن يبث فيه الروح ؟

واستدرك سريعاً :

— آسف إن كنت ذكرت الروح وأنا أتحدث عن المعمل . أيستطيع المعمل أن يعيد تركيبه وشحنه بالكهربا ؟

ولم ينتظر رداً ، كان على ثقة أن سؤاله لا جواب له ، قال :

— عيبنا أننا معرورون . تطاولنا على الله فنزعناه من ضمائرنا ، لا لشىء إلا لأننا توصلنا إلى بعض أسرار خلقه ، واستطعنا فى المعمل أن نركب مواد لم نخلق عناصرها . إن الذرة التى حطمناها لم نخلقها نحن ولكن خلقها الله ، والفضاء الذى ارتدناه كان موجوداً قبل أن تدب على الأرض دابة ، أو يخلق أول إنسان ، ولا أقول أول قرد من أجدادنا ... إن معامل الأرض جميعاً — الآلهة الجديدة — لم تستطع حتى هذه اللحظة أن تقضى على الأنفلوانزا . وحاشاى أن أقول أن تخلق بعوضة ، فما كان الخلق من صفاتها .

— لقد أتت المعامل بالمعجزات ، ولا يمكن لإنسان يحترم عقله أن يجحد أثرها فى كشف أسرار الكون ، وسيطرة العلم وقضائه على الأوهام .

— إننى لا أجحد فضل المعمل وأقدره حق قدره ، وأعتبره من عوامل تثبيت الإيمان فى النفوس ، لأنه كلما توصل إلى كشف جديد ألقى ضوءا جديدا على قدرة الله . وحتى لو نجح الإنسان فى خلق جنين

فى أنبوبة اختبار ، فلن يزعزع ذلك إيمانى ، لأن الإنسان لم يخلق النطفة التى يكمن فيها سر الحياة . إن مثل من يحاول صنع جنين خارج بطن الأم كمثل الطفل يستنبت القمح على قطعة قطن مبللة بالماء ، تجارب لا طائل وراءها ، فلن تملأ أطفال الأنابيب الأرض ، ولن تشبع الحنطة المستنبتة على القطن جوعان ، ولكنها تجارب ترضى سذاجتنا وتداعب غرورنا .

وعادا إلى غرفة الاستقبال فالتفت إليها وقال :

— الجاكتة من فضلك ، آسف إن كنت عطلتك عن الخروج ، أو كنت أثقلت عليك بهذا الحديث ، فما كان هنا مكانه ولا أدرى كيف انجرفنا إليه .

— أما الحديث فلا موجب للأسف فأنا أحب هذا الجدل ، وأما تعطيلى عن الخروج فأنا لا أخرج إلا إلى الكازينو ولم يحن موعده بعد ، وأما زيارتك فقد أسعدتنى وأرجو أن تتكرر .

فقال وهو يبتسم فى رضا :

— شكرا لك ، ولكنى لا أستطيع أن أعود إلى زيارتك إلا بشرط

فقالت فى اهتمام :

— وما هو ؟

— أن تزورينى مرة .

— وما حكمة هذا الشرط ؟

— أن تشعرينى أنك قبلت صداقتى وأنى لا أتطفل عليك .

فقالت وهى تبتسم :

— معقول

فقال فى ابتهاج :

— غدا فى الخامسة أنتظرك فى فندق أطلانتيك ، فنتناول الشاى معا .

— ولماذا هذه العجلة ؟

فقال وهو ينظر فى عينيها الزرقاوين :

— لأرد لك الزيارة بعد غد .

فقالت وهى تضحك :

— ليكن موعدنا غدا . .

وأدبرت وهو يتبعها بنظرة ، حتى إذا غابت عن الحجرة ألفى قوة خفية تلوى عنقه وتثبت عينيه على صورتها وهى عارية ، وأحس مشاعر لذيذة تتحرك فى أغواره فاستنام لها ، وخطا نحو الصورة خطوتين يتفرس فى محاسنها . ولكنه سمع وقع أقدامها فعاد إلى مكانه مسرعا ومد بصره إلى الباب الذى اختفت منه . أقبلت ترفع الجاكتة فى يدها ، فخف إليها يحاول أن يحملها عنها . ولكنها نشرتها بين يديها تعاونه على ارتدائها ، فدس ذراعه فى كم وذراعه الثانية فى الكم الآخر ، وقال :

— إلى الغد .

وانصرف وهو يقول :

— مساء الخير يا آنى .

وسره أنه نطق اسمها لأول مرة ، وقالت فى رقة :

— مساء الخير يا على . .

— ٣ —

لم ينم فى تلك الليلة ملء جفنيه ، فقد كانت الأحداث التى مرت عليه فى ذلك المساء تحتل تفكيره ، والحوار الذى دار بينه وبينها يرن فى جوفه . وكثيرا ما كان خياله يشرد ويتصور فعالا لم تكن فى واقع الزيارة ولكنها تفور فى أوهامه فتقلقه وتضنيه . رآها تقبل عليه فى غرفة الاستقبال وهى عارية وترتمى فى أحضانه ، ورأى نفسه يستجيب لها ويبادلها العناق والقبلات ، وحاول جاهدا أن ينحى تلك التصورات عن مسرح ذهنه ، ولكنه نجح للحظات قصار ؛ وسرعان ما عادت تملأ أقطار نفسه ، وتستولى على كل حواسه .

وشبت فى جوفه معركة عنيفة : هب الرجل الآخر الذى فى داخله يلقى فى وجهه الاتهامات ، وهب هو يحاول أن يدحضها ليعيد إلى صدره السكينة التى أفسحت مكانها للقلق والشك ، قال الرجل الكامن فى أعماقه :

— إنك اشتهيتها مذ وقعت عيناك عليها وهى عارية .

— لو كنت اشتهيتها لما أشحت بوجهى عنها ، ولما انقبضت نفسى لمنظر اللحم العارى وهو نهب لعيون الناس .

— أشحت بوجهك عنها إرضاء لغرورك الكاذب ، وانقبضت نفسك لأن آخرين شاركوك فى النظر إليها ، فلو أنها كانت عارية فى غرفة معك

وحدك لما انقبضت نفسك .. . أنانى . . منافق حتى مع نفسك ، لماذا لا تعترف أنك اشتهيتها ؟

— إننى لم أشتهها لحظة .

— إن لم تكن اشتهيتها فلماذا تصورتها وهى عارية مرتمية فى أحضانك ؟

— وسوسات شيطان رجيم ولم أستسلم لها . أنا لم أدع أبدا أنى ملاك معصوم من الخطأ ؛ ولكنى بشر يحاول الشر أن ينفذ إلى قلبى فأغلق فى وجهه كل المنافذ ، ليس ما يعيبنى أن تتحرك الرغبة فى حناياى ، ولكن يعيبى أن أسلس لها قيادى وأن أتردى فى مهاوى الرذيلة .

— وما الذى يمنعك من التردى فى مهاوى الرذيلة ؟

— خشيتى من الله .

— بل خشيتك من نفسك ، إنما تخاف أن تخذلك نفسك لأنك لا تملك الشجاعة التى تواجه بها امرأة .

— إننى رجل متزوج وأعرف النساء .

— ولكنها ليست كزوجك ، إنها امرأة مجربة ونفسك تقاصر أمام المجربات ، وتخاف أن تدخل فى تجربة قد تخفق فيها .

— لم تراودنى قط فكرة الدخول فى تجربة ، أنا واثق من نفسى وأعرف طريقى ، هل بدر منى ما يوحى بأنى حدت عن طريقى ؟

— إصرارك على مقابلتها يؤكد أنك تعلقت بها .

— وهل فى عرض صداقتى عليها ما يشين ؟

— ولماذا لم تعرض هذه الصداقة على الفتاة النرويجية التى قابلتها فى حانة البيرة ؟

— لأنى وجدت آنى وحيدة . . فى حاجة لمن يمد لها يده ليعيد إليها ثقتها فى الناس وفى نفسها .

— وهل من المألوف أن يتجشم المرء ما تجشمته فى سبيل الوصول إليها ؟ لقد حملت إليها هدية ، وخرجت تحت المطر ، وانتقلت إلى جسر الشيطان ، وعبرت النهر فى زورق ، كل هذا من أجل صداقة بريئة ؟ . .

— ألا يحمل الصديق إلى صديقه المريض هدية ؟ ألا يقطع المسافات البعيدة ليعوده ؟ إن آنى مريضة وأنا صديقها ، فعلى أن أزورها .

— إن كانت آنى مريضة فأوروبا كلها مريضة ، فلماذا لا تزور كل من فيها ؟

— لو كان بوسعى أن أزورهم جميعا لأحدثهم كما حدثت آنى لفعلت . .

— لتحدثهم عن الله والإيمان وقدرة الله وعظمته ؟

— نعم ، لأبصرهم بالحقيقة التى أغمضوا عيونهم عنها .

— على شرط أن يكونوا من النساء .

— لمــــاذا ؟

— لأنك تحاول دائما أن تتسامى أمام النساء لتقيم بينك وبينهن سدا تحصن به نفسك ، خشية أن تنزلق إلى تجربة تفزع منها .

— إنى أفزع حقيقة . . أفزع من الحرام لأنى أخاف الله .

— كذب . إنك إنما تخاف نفسك ، تخاف أن تدمى كبرياؤك . فلو كنت واثقا من نفسك لما أعرضت عن المعاصى ولنهلت من اللذات .

— لا تحاول أن تزعزع إيمانى بنفسى . فأنا مؤمن بسلوكى ، واثق من تصرفاتى .

— لو كنت مؤمنا بسلوكك ما اختلست النظر إلى محاسنها كلما أدبرت ، ولما لوت الرغبة عنك إلى صورتها العارية تتفرس فيها فى نهم .

تململ على وراح يفكر أين وقرت فى ذهنه فكرة أنه يخشى النساء المجربات . قالت له ذلك آنى يوم عرض عليها صداقته لتفتح حديث الجنس ليدخل منه ويصل إلى ما ظنته بغيته ؛ ولكنه أوصد ذلك الباب مادام يؤدى إلى طريق لا مأرب له فيه .

وكادت نفسه تصفو بعد أن عرف من أين جاء ذلك الاتهام ؛ ولكن الرجل الآخر الكامن فى أعماقه لم يهدأ ، قال :

— غاصت فى أعماقك بنظرة ثاقبة فوجدتك مليئا بالخبث ، خبث مغلف بغشاء كاذب من الطيبة .

— ما كانت عيناها الزرقاوان الجميلتان بقادرتين على كشف مكنون صدرى ، حتى ولو كان ذلك الاتهام حقيقة . أنت واهم ، ولن أستسلم لكل هذه الأراجيف .

— عيناها الزرقاوان الجميلتان ؟ أيجذب الجمال المادى الرجل الصوفى الذى يدعى أنه يمد يد الصداقة البريئة ليعيد امرأة ضائعة تضرب فى بيداء الضلال على غير هدى ، إلى نور الإيمان ؟ إنك تشتهيها ، ولكن خوفك

منهـا هو الذى يدفعك إلى إقامة الحواجز بينك وبينها ، هذه هى الحقيقة . .

— العبره بالنتائج . . فإننى وأنا معها لا أحس أية رغبة تتحرك فى أعماقى ، بل أستشعر راحة وطمأنينة ، وأكاد وأنا أحدثها عن الله أذوق حلاوة الإيمان .

— بل العبرة بالدوافع . . فإن كان مايدفعك إلى التحدث فى الروحانيات هو مجرد إقامة حواجز بينك وبينها لأنك تخشاها ، أو إن كنت فى قرارة نفسك تشتهيها ، فأنت منافق . أما إن كان ما يدفعك إلى دلك هو الإيمان الذى يعمر قلبك فأنت رجل صالح .

— ومن أين لى أن أميز المنابع ؟ تـكفينى راحة النفس التى أستشعرها وأنا ألقنها الإيمان .

— وما أدراك أن هذه الراحة ليست من نفس معين الشهوة التى يحسها الشيخ الفانى إذا تحدث إلى حسناء ؟ . . فمن يفقد لذة الجسد لا يحرم اللذة الذهنية . .

— ولـكنى لا زلت شابا تجرى فى عروقى دماء حارة وتجيش فى ضميرى الرغبة الجامحة إذا تهيأت لأدوب فى الحلال .

— قد تميت الرهبة هذه الرغبة ، فتصبح كالشيخ الفانى ، ليس لك إلا اللذة الذهنية .

— لماذا تعذبنى كل هذا العذاب ؟ أمن أجل حديث عابر قالته مازحة أو مداعبة ؟ أنا لا أخشى المجربات . . لا أخشى المجربات .

— ما أكثر ما قالته فى أحاديثها ، ولكن هذا الاتهام وجد أرضا طيبة فى نفسك فنما وترعرع .

— لا . . أنت الذى تحاول أن تغرسه بيديك لتزعزع ثقتى بنفسى .

— إننى لا أعرس شيئاً ، كل ما أفعله أنى ألقى ضوءا على الكهوف المظلمة فى أغوارك التى تحاول جاهداً أن تخفى فيها رغباتك ، أو أنبش قرارك لأخرج أحاسيسك الدفينة المحجوبة عن بصيرتك . كفى رياء وكن صريحاً مع نفسك . إن كنت تريدها فما أقصر الطريق إليها ، ولا يدفعنك خوفك منها إلى إقامة حواجز بينك وبينها فيصبح من العسير عليك يوماً أن تجتازها . وإن كنت لا رغبة لك فيها فولها ظهرك وسر فى طريقك ودعها تسير فى طريقها

— إننى عرضت عليها صداقة بريئة وقد قبلتها ، فلن أتخلى عنها أبداً . ثمن يدرى لعلى أستطيع أن أقدم إليها بعض الخير

— ما أمهر الإنسان فى خداع نفسه . . الصداقة أمومة ثانية . . الصداقة البريئة . أنا لا أصدق أن تقوم بين رجل وامرأة صداقة خالصة لا يشوبها اشتهاء حسى أو اشتهاء روحى .

— لماذا تحاول دائما أن تشوه كل جمال ؟ أن تدنس العواطف الطاهرة ؟ أن تشكك فى النوايا الحسنة ؟ .

— واجبى أن أزيح الرياء عن وجه الحقيقة ، وأن أدق ناقوس الخطر كلما أحسست بالعدو القابع فى حناياك يتحرك . فكلما أصخت السمع لدقات ناقوسى فأنت بخير ؛ أما إذا أعرضت عنى ووضعت أصابعك

فى أذنيك فلا تلومن إلا نفسك .

— صدقنى إنى حتى هذه اللحظة لا أعرف حقيقتك . فأنت لغز كبير، إذا فكرت فى الخير حرضتنى على الشر ، وإذا فكرت فى الشر زينت لى الخير . يختلط على الأمر فى بعض الأحيان فلا أدرى أشراً تريد بى أم تريد بى خيراً ؟

— إنك ما تزال تخلط بينى أنا ضميرك وبين شيطانك .

— وما أدرانى أنك لست شيطانى وتظهر فى ثوب ضميرى ؟

— ستظل فى هذه الحيرة حتى تقضى على أحدنا ..

— ليتنى أستطيع أن أكتم أنفاسكما جميعا وأستريح . أريد أن أنام . . أنام . . أنام . . .

وراح يتثاءب لعل النوم يداعب جفنيه ؛ ولكن الأفكار كانت تموج فى رأسه وتتدفق وتتدافع ، فيفر النوم ويصحو ذهنه ، ويصبح مسرحاً لأحداث نابضة يستسلم لها تارة ويتبرم منها تارة أخرى ، فيصيح بضميره :

— بالله ارحمنى ، أريد أن أنام . .

— وما ذنبى أنا إذا كانت النشوة تملؤك لأنها ستجيئك غدا فى الخامسة . قل لى : ماذا ستقدم لها ؟ شايا أم نبيذاً أم شرابا خفيفا . . ؟

— لا أدرى . ولكنى أحسب أن الشاى يقدم فى الخامسة . . أما فى العشاء فسأعرض عليها أن تطلب ما تشتهى . .

— فى العشاء ؟ إنك دعوتها لتتناول قدحاً من الشاى معك ، فما فكرة العشاء هذه ؟

— مجرد تغيير حتى لايتسرب الملل إليها .

— كل ما التمسته منها أن تزورك لتؤكد لك أنها قبلت صداقتك راضية . . وأنك لا تفرض نفسك عليها فرضا . . فلماذا تفكر فى دعوتها للعشاء ؟

— لأخرجها من الحياة الهابطة التى تحياها إلى الحياة النظيفة التى يعيشها الناس ، فقد قالت لى : إن الكازينو الذى يرتاده السكارى الذين تأتلق عيونهم بالشهوة هو كل دنياها . إنها لا تتنفس فى الجو الخانق الذى دفعتها إليه ظروفها الظالمة القاسية إلا سموما ، وأريدها أن تملأ رئتيها بهواء نقى لعلها تألف النقاء .

— بل تريد أن تسعد بالنشوة التى تحسها كلما جلست إليها . .

وتململ على وتقلب فى فراشه ، ثم أسبل جفنيه وعزم على ألا يستسلم لأفكاره ، وأن يكتم أنفاس كل خاطرة تحاول أن تطفو على ذهنه ، وبدأ الفتور يدب فى جسمه رويدا رويدا حتى خطفه النوم .

وأصبح الصباح ، واستيقظ نشيطا على الرغم من أنه لم ينم إلا غرارا . وكانت نفسه صافية فقد خبت النار التى كانت تتأجج فى جوفه طوال الليل ولم تخلف إلا الرماد .

وانطلق إلى عمله وكان قريبا من جسر الشيطان وراح طوال الطريق يفكر فيها ، وخطر له أن يذهب إليها ويلقى عليها تحية الصباح ، ولكنه أعرض عن الفكرة لأن الوقت غير مناسب ؛ ففتاة الليل لا تستيقظ قبل منتصف النهار .

وهمس الرجل الآخر الكامن فى نفسه :

— بل تخشى إن أنت زرتها الساعة أن تكتفى بهذه الزيارة فلا تجىء فى الخامسة .

وانصرم النهار ، واقتربت عقارب الساعة من الخامسة وهو جالس فى مقعد وثير قبالة الباب فى قاعة فندق أطلنتيك . كان يرتدى أجمل ثيابه وكان شعره الأسود يلمع من أثر الدهان الذى اشتراه ذلك الصباح . من محل التجميل المواجه للفندق ، فما كان ممن يستعملون أدهنة الشعر وكان كل ما يفعله أن يمشط شعره بمشط صغير فى جيبه .

وكانت عيناه السوداوان المتألقتان ترقبان الباب ، وفى جوفه قلق يكاد يطفو على النشوة المعربدة بين حنبيه . واشتد وجيب قلبه وانتصب واقفا حين لمحها مقبلة خلف رجاج الباب .

أقبلت ثابتة الخطو وقد أشرق وجهها بابتسامة ، فخف إليها يستقبلها فى غمرة من النشوة ، وقبل أن يلتقيا التفتت يسارا وألقت نظرة خاطفة على الفتاة الأنيقة الواقفة فى معرض صغير للآلئ والجواهر والساعات ، ثم التفتت نحوه فألفته يمد لها يده فصافحته ، وانطلقا بين الكراسى الجلدية الوثيرة حتى بلغا القاعة الداخلية فجلسا فى ركن هادئ بعيدا عن أنظار الداخلين أو الهابطين فى المصاعد أو القاصدين مكتب الاستعلامات .

وأشار إلى الجرسون فأقبل ووقف ينتظر أوامرهما فى أدب جم ، فسألها على :

— ماذ تشربين ؟

فأجابت وهى تبتسم :

— لقد دعوتنى لتناول الشاى .

— كان ذلك مجرد سبب للدعوة ، أما وقد جئت فلك أن تطلبى ما تشائين .

فالتفتت إلى الجرسون وقالت :

— شاى من فضلك .

وطلب على من الجرسون أن يحضر شايا وقطعا من الجاتوه والحلوى .. وأقبل رجال ونساء من جنسيات مختلفة : بعضهم من الألمان ، وبعضهم صينيون ويابانيون ، وبعضهم من أجناس أخرى لا يمكن التمييز بينها ، واتخذوا مكانهم فى الركن المقابل للركن الذى جلس فيه على وآنى ... وشغلوا عن كل ما حولهم بحديث جاد وكانت ملامحهم جميعا توحى بأنهم يتفاوضون على عقد صفقة هامة . وأخذت آنى تنظر إليهم طويلا ثم قالت:

— ما أعظم الفرق بين الناس هنا وبينهم عندنا فى الكازينو . .

فأسرع على يقول :

— إنهم هنا يعملون وعندكم يلهون ، هنا يجمعون وعندكم يبذرون ، هنا يعلوهم الوقار وعندكم يعربدون .

وهم أن يقول : « هنا يرتفعون وعندكم يهبطون » . . ولكنه كبح جماح لسانه حتى لا يجرح شعورها فقالت :

— لم أقصد ذلك بل قصدت عكسه . . يخيل إلى أن الناس هنا يمثلون ، يخفون وجوههم وراء أقنعة كاذبة ، أما عندنا فهم على سجيتهم

بلا رياء ولا أقنعة ولا تمثيل .. تفك الخمر عقد ألسنتهم فيثرثرون ويبعثرون كنوز أسرارهم ، يصبحون كتبا مفتوحة تروى كل ما فيها لمن يحاول أن يقرأها .

— وما مفتاح ألسنة الذين لا يشربون . . ؟

فابتسمت وقالت :

— المعاشرة .

وأقبل الجرسون فوضع الشاى على النضد أمامهما ، وجاء بعده رجل يدفع أمامه عربة صغيرة عليها ألوان من الجاتوه والفطائر والحلوى . وقدم الجارسون إلى آنى صحفة وشوكة صغيرة ، فاختارت قطعتين من الجاتوه ، ولم يرض ذلك على فمد شوكته والتقط قطعة ثالثة وضعها فى صحفتها وهو يقول :

— جربى هذه . .

ورنت إليه وهى تبتسم ، وانهمك فى اختيار بعض الحلوى لنفسه ، ثم التفت إليها وقال :

— كم قطعة من السكر ؟

— ثـــلاثة .

— لبن ؟

— قليـــل .

وانهمك فى وضع السكر فى قدحها وصب الشاى واللبن ، ولمحت خاتم الزواج فى إصبعه ، ولم تـكن هذه أول مرة تراه فيها فقد لمحته فى أول

مقابلة لهما فى الـكازينو ، ولـكنه لم يـكن فى تلك الليلة يعنى شيئاً بالنسبة لها ، فما كان على فى نظرها أكثر من « شىء » لا يفترق فى قليل أو كثير عن «الأشياء» التى تملأ القاعة وتحملق فى الأجساد العارية ، أما الآن فهى تحس وجوده ، وقد شغلت بالتفـكير فيه وفى كل كلة تحركت بها شفتاه منذ الليلة الماضية

فبعد أن انتهت من غدائها ذلك اليوم تناولت كتاباً لتقرأ فيه كعادتها ، فألفت نفسها تشرد عما فى الـكتاب وتفـكر فيما قاله لها ، فيرن فى أعماقها قوله : « وحتى لو نجح الإنسان فى خلق جنين فى أنبوبة أختبار ، فلن يزعزع ذلك إيمانى » واسترسلت فى تفـكيرها فوجدت نفسها تفـكر فى أنبوبة الاختبار ذاتها ، إنها قياساً على ما قال ليست من خلق البشر ، وأنـكرت فى بادىء الأمر استسلامها لمثل هذه الأفـكار التى ما كانت تخطر لها على قلب ، ولـكنها أسلست لها قيادها .

واستشعرت وهى ترتدى ثيابها نوعا من القلق جديدا عليها . إنها تعلم أنها جميلة وأن فنها تدير رءوس الرجال ، ولـكنها استشفت من مقابلتهما الأخيرة أنه لا يجرى وراء غانية ، بل يريد سيدة يشتهى عقلها أكثر من رغبته فى جسدها

ووقفت أمام صوان الملابس طويلا لا تدرى أى ثوب تختار ، فلو كانت على موعد مع ذئب من ذئاب البشر لارتدت ثوبها الأحمر الذى يذهب بعقول الرجال ؛ ولو كانت منطلقة إلى مجتمع فيه نساء يعرضن جمالهن لارتدت ثوبها الأسود الذى يزيدها فتنة ويملأ العيون إعجابا واشتهاء

وغيرة . . ولكنها ذاهبة إليه ، لا ليطرى جمالها بل ليحدثها وهو هائم يكاد يذوب فى المجهول حديثاً لا عهد لها به .

ووقع اختيارها على ثوب رمادى قلما كانت ترتديه إذ كان يضفى عليها وقارا ، وما كانت قبل فى حاجة إلى وقار ، ووضعت على رأسها قبعة رمادية أخفت شعرها الذهبى الجميل ، ونظرت إلى نفسها فى المرآة فامتلأت غبطة . . كانت تبدو سيدة حقيقية لا زيف فيها .

رفعت فنجان الشاى ورشفت رشفة وهى تتجول بعينيها فى وجهه الأسمر ، ثم قالت :

— أعندك أولاد ؟

فقال فى انشراح :

— طفل وطفلة .

ودس يده فى جيبه الداخلى وأخرج صورة قدمها إليها ، فتناولتها منه وجعلت تتفرس فيها . كانت لطفل فى الخامسة وطفلة فى الثالثة ، وطافت بوجهها موجة من الحنان وقالت :

— ما أحلاهما . . نفس العيون السود والشعر الأسود الجميل ، إنهما صورة منك . .

ونحت الصورة عن عينيها وشردت برهة ، ثم قالت :

— جميل أن يكون للمرء بيت وأهل وذرية . .

ولاح فى وجهها الأسى وتهدج صوتها وهى تقول :

— كل ما أذكره عن أمى وأبى والبيت الذى ولدت فيه مجرد طيف

لا أدرى أكان حقيقة واقعة أم كان من صنع أوهامى ، ياطالما ذبت شوقاً إلى ذلك الوهم ، وما أكثر الليالى التى ناحيت فيها أمى ! وكم مرة رأيتها فى أحلامى تضمنى إلى صدرها فى حنان . أما فى واقع الحياة فلم أر أمى إلا قليلا ، وكنت فى ساعات يأسى وكربى أستنزل عليها اللعنات لأنها سبب وجودى ، سبب آلامى أحزانى ؛ ولكن سرعان ما كنت ألوم نفسى ، فما كان لوالدى الخيار يوم تركانى فى هذه الحياة وحدى ، فكنت أحس ذلك الشعور بالذنب الذى يحسه من لعن مقدساته فى ثورة غضبه .

وصمتت قليلا ثم قالت وهى تزفر :

— ما أقسى أن يجد الإنسان نفسه فى هذه الدنيا ضائعا وحيدا بلا أصول ولا فروع

فقال فى حماسة :

— إن لك أصولا لا ريب فى ذلك ، ولا يضير الشجرة أنها لا ترى جذورها العميقة الضاربة فى بطن الأرض . أما الفروع فأنت قادرة على إنباتها ، فأنت شابة جميلة تستطيعين إن شئت أن تنجبى الأولاد وأن تجددى شباب شجرة الخلد وملك الإنسان .

فابتسمت فى مرارة وقالت :

— ما أيسر أن يقول هذا من كان مثلك يستطيع إن شاء أن يذكر جدوده حتى الجد التاسع وأن يلقى نظرة على هذه الصورة فيرى فروعه خضراء نابضة بالحياة . أما من كانت مثلى فماضيها ظلام ، ومستقبلها ضباب ، وآمالها سراب . . إنى ريشة فى مهب الريح .

— حتى البذرة التى تتقاذفها الأعاصير وتلعب بها الأنواء إذا استقرت فى الأرض وأرويت بالماء أنبتت وأثمرت ، لأن فى أعماقها نفخة من روح الله ، هى سر الحياة . إنك فى حاجة إلى استقرار ، إلى رجل يغمرك بحبه ويسير معك فى طريق الحياة ، فتعرف الطمأنينة طريقها إلى نفسك .

وصمت قليلا ثم قال وهو يرمقها بنظرة فاحصة :

— ألم يخفق قلبك بالحب يوما ؟

والتمعت عيناها ببريق أخاذ وتضرج وجهها لأول مرة بحمرة خفيفة ، ولاح عليها الاضطراب ، وظل فمها مطبقا ولم تتحرك شفتاها بكلمة ، واستشف من سهومها أنها لا تريد أن تخوض فى هذا الموضوع ، وأن قلبها حديث عهد بالجراح ، فرأى أن يحترم رغبتها وألا يعاود الخوض فى هذا الحديث ، فقال لها :

— ما رأيك فى أن نتمشى قليلا على شاطىء الألستر ؟

فقالت وهى تنهض :

— لا بأس .

وقاما فسارت أمامه وهو يتبعها ، وألقت على الصور الزيتية التى تزين قاعة الفندق نظرة سريعة ، وكان أغلبها يمثل مناظر بحرية ، وبلغت معرض المجوهرات واللآلىء والساعات الفاخرة فالتفتت إلى الفتاة الواقفة فى وسطه ، ثم انطلقت إلى الباب الخارجى وعلى فى أثرها .

فلما خرجا إلى الطريق لفح الهواء وجهيهما فأنعشهما ، وانطلقا إلى شاطىء النهر الذى كان يفصل بينه وبين الفندق شارع واحد ، فعبرا جسرا

صغيرا من الخشب يؤدى إلى مرفأ صغير فى النهر اصطفت عنده قوارب صغيرة من الصاج أشبه بسيارات السباق بكل منها مقعد يتسع لراكبين وعجلة قيادة ، وتحت أرجل الراكبين دواسات كدواسات الدراجة إذا أديرت بالأقدام انطلق الزورق يشق عباب الماء .

كان المرفأ غاصا بالفتيان والفتيات ، وكان كل شاب يأخذ بيد فتاته لتقفز فى زورق ، وخطر على ذهن على أن يذهب إلى الجوسق القريب فيدفع إيجار زورق لساعة ولـكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة ، فظل واقفا ينظر ويلتفت إلى آنى فيلمح فى وجهها رضا واستكانة .

ورأى بعض الشبان يبتعدون ثم يعودون وفى أيديهم جيلاتى يقدمونه إلى فتياتهم ، وأثار عجبه أن رأى الفتيات يدفعن ثمن ما يقدم إليهن ، وحتى الذاهبات للنزهة فى النهر كن يشاركن رفقاءهن فى دفع إيجار الزورق .

وشغلت آنى بمراقبة ما يجرى فى المرفأ والنظر إلى قرص الشمس وهو ينحدر ليغوص فى الأفق . وانسل على إلى الجوسق الصغير الذى يبيع الجيلاتى والحلوى واشترى ما يريد ، ثم عاد وقدم إلى آنى قطعة من الجيلاتى ملفوفة فى ورق مفضض .

وراحت آنى تقضم الجيلاتى وتتلفت فى مرح ، واستشعرت فى أعماقها أحاسيس لم يكن لها عهد بها من قبل . كانت كل خالجة فيها تحس مشاعر الطفولة البريئة التى تحوطها رعاية أبوية رحيمة .

وانقضى بعض الوقت وهما يرقبان الزوارق والمراكب الشراعية الخارجة من المرفأ والعائدة إليه ، والشباب المتألق صحة وسعادة . واشتهت

آنى أن تقفز إلى زورق ، وأن تمرح كما يمرح أترابها من الفتيات ، ولـكنها أحست ثقلا فى أعماقها بدد تلك السعادة الطارئة . . إنها ما تزال فى سن أولئك الفتيات اللائى يقفزن كالأطياف ، ولـكنها لا تدرى ما الذى يربطها بالأرض ويشدها إليها شدا .

واستأنفا سيرهما على الشاطىء وكانت الخضرة تغطى الجزء الأكبر من الطوار ، والعشاق يتهادون اثنين اثنين يلف كل منهما ذراعه حول خصر صاحبه ، أو يتعانقان ويغيبان فى قبلة طويلة ، أو يتمددان على الأرض والصدران متلاصقان والشفاه تعبث بالشفاه ، وما كان شىء من ذلك يستهجن أو حتى يستوقف النظر .

والتفتت آنى ناحية اليسار وألقت نظرة على المبانى الممتدة على طول الشاطىء وقالت :

— كل هذه الدور كانت خرائب . . كانت أنقاضا دكتها القنابل ، لن تستطيع مهما أسهبت لك فى الوصف ، أن تتصور الدمار الذى حل بها ، لم يكن هناك حائط واحد قائما وكنا نهيم بين الأنقاض كالجرذان ، ألا ما أبشع الحروب !

— انقضت تلك الأيام ، واستطعتم بعزمـكم أن تعيدوا مدينتكم أجمل مما كانت .

— ولـكن بصمات تلك الأيام العصيبة ما تزال واضحة فى نفسى ، تسيطر على ذهنى فجأة حتى فى أمتع ساعات حياتى فتعكر كل إحساس جميل يخفق بين جنبى .

— يبدو أنك قاسيت كثيرا .

— كنت أتلوى من العذاب .

فقال وهو ينظر إليها فى إشفاق :

— من الألم تخرج النفوس الكبيرة ، فالمحن تصهر الروح وتنقيها من الشوائب وتجعلها أكثر صلابة وطهرا .

أطرقت ولم تنبس بكلمة ، وأحست وخزا فى ضميرها لم تحاول أن تقاومه أو تمنعه ، بل استسلمت له وراحت تكشف منابعه . عزمت على أن تكون صادقة مع نفسها طالما هى معه ، فقد أحست أنه ليس كالآخرين الذين تحاول أن تستدر عطفهم أو تخفى عنهم حقيقة مشاعرها . .

وبلغا مطعم ألستر وهو مبنى أنيق على الطريق يطل على النهر ، وجدا عند مدخله قاعة فسيحة صفت فيها مناضد ومقاعد حول حلقة الرقص ، وفى ركن منها أوركسترا تعزف ألحانا راقصة راح بعض الرواد يرقصون عليها . ويؤدى المدخل إلى قاعة أخرى مستطيلة صفت فيها موائد الطعام ، بعضها يطل على قاعة الرقص ، وبعضها يطل على النهر . وبين القاعتين مكان منخفض فيه بيانو وبعض الآلات الموسيقية . انطلق على وآنى إلى مائدة بعيدة تكشف النهر وامتداد الشارع وقد بدأت الأنوار تتالق فيه .

لاحت الحقيقة لعينيها فهى تكذب عليه كما كذبت على كل من قصت عليه قصة حياتها ، ومبعث ذلك الوخز أن شيئا ما استيقظ فيها بعد طول رقاد . نظرت إلى النهر فى شرود وقالت :

— نحن نحب أن نبدو ضحايا مغلوبين على أمرنا طحنتنا الظروف القاسية وجرفنا تيار الحياة ، لنستدر عطف الناس علينا ولنخدع أنفسنا أحيانا ونحاول أن نقنعها أن الهاوية التى تردينا فيها إنما دفعتنا اليها أحداث ظالمة أقوى من إرادتنا .

حقيقة كانت حياتى مأساة ، ولكنى لم أكن الفتاة الوحيدة التى وجدت نفسها محرومة من الأهل والحنان تهيم فى الخرائب مع الكلاب الضالة ، وحقيقة لم أكن الفتاة الوحيدة التى عبث بها جنود الحلفاء ، فما أحسب أية فتاة كانت تعيش فى الظروف التى كنت فيها نجت من عبثهم . كانت فى أيديهم الأقوات وكنا محتاجات إليها ، ولكن الفرق بينى وبين الأخريات أنهن عندما أتيحت لهن فرصة العمل فى المتاجر والمصانع ، وما كان أكثرها ، أقبلن عليها وبدأن حياة جديدة ، أما أنا فقد استمرأت الأمر وانغمست فيه حتى غرقت فيه لأذنى .

لم يكن ذلك تلبية لنداء الجسد أو إطفاء لشهوة فائرة ، بل نتيجة تفكير ومقارنات عقدتها بين مهنتى التى أمارسها وعملى فى متجر أو مصنع ، إنى أكسب من مهنتى كثيراً ، وما كنت سأتناوله أجراً فى الأسبوع أستطيع أن أحصل عليه فى ليلة ، وما أفعله مع روادى ربما فعلته مع صاحب المصنع أو المتجر أو مع زميل من زملائى دون أن آخذ عليه أجراً . وجدت أن العمل لن يحصننى ، وأن كل ما يحققه لى أنه يقلل من دخلى ، وأنا أريد أن أصبح غنية أستغنى عن الناس فى يوم من الأيام .

فقال لها فى هدوء :

— وهل أصبحت غنية ؟

— لا . . ليس بعد .

— ولن تصبحى غنية مهما ادخرت من مال . .

— لن أصبح غنية ، لماذا ؟

— لأن المال كالماء الملح كلما شربنا منه لم نرتو . فطالب المال لا يكتفى أبداً ، ويعيش فى قلق لا يعرف الراحة ولا الاستقرار . . إن حاجاتنا فى هذه الأرض محدودة ، وكل ما زاد على ضرورات الحياة فهو هباء . . إن من يرد أن يكنز حقاً فليكنز فى السماء : يعاون الناس ويكف عنهم أذاه . . يغيث الملهوف ويعطى السائل والمحروم . . بذلك يدخر حسنات تنفعه فى حياته الأبدية ويجزيه الله عنها خير الجزاء .

— وإذا أدركه الفقر فى دنياه ، وكانت الأبدية وهما من الأوهام ؟

— لا يدرك الفقر إلا من يخشاه وإن تكدست أمواله فى المصارف والخزائن . إن أشد الناس فقرا عبيد المال . لقد نظرت فلم أجد أحدا خرج من الدنيا إلا وقد خلف وراءه شيئا من مال أو متاع . عرفت فى القاهرة رجلا فقيرا كان كل عمله أن يوصل الخضر واللحوم وحاجات المنازل إلى بيوت بعض الناس لقاء دراهم معدودات ، فكان إذا حصل على ما يكفيه فى يومه رفض أن يقوم بأى عمل من الأعمال مهما كان الأجر الذى يتقاضاه عنه . كان قانعا راضيا زاهدا ، ينام ملء جفنيه ولا يرسف فى أى غل من الأغلال .

وذات يوم منحه أحد الذين يحملون أشياءهم مبلغا من المال فاض عن

حاجة يومه ، فادخره ولم ينفقه ، وراودته فكرة أن يزيد رصيده المدخر فأعجبته وراح ينفذها ، فانقلب الرجل الهانىء القانع إلى رجل آخر جافى الطباع طماع ، لا يكتفى بما يعطاه من أجره بل يطلب المزيد ويلحف فى السؤال ، فكان كلما جمع مالا زاد ظمؤه إليه ، وهكذا فقد الرجل راحة النفس وصار فريسة للقلق والهوان .

وشغلت رأسه بعض الأمانى الصغار ، ولكنه كان يكتم أنفاسها خشية أن يفقد بعض المال ، فكر مرة أن يشترى ثوبا جديدا ، ولكنه لم يحقق أمنيته وأقنع نفسه أن ثوبه المرقع يستره وفيه الكفاية ، وفكر مرة أخرى أن يركب تاكسى ولكنه طرد الفكرة من رأسه فهو طول حياته يسير على قدميه ، إن لذة النظر إلى المال وهو يربو تفوق اللذة العابرة التى ينعم بها وهو فى تاكسى لحظات .

ومرت الأيام وهو يزداد جشما ويفرض على نفسه أشد الحرمان ، إلى أن سقط فريسة للمرض وحمل إلى المستشفى ، وهناك راح يجود بأنفاسه ويقول لمن حوله :

— إذا مت فاحملوا جثمانى فى سيارة . .

ومات وحمل جثمانه فى سيارة ، ولكنه كان جثة هامدة لم ينعم باللذة العابرة التى حرم نفسه منها . فلما دفن وسددت نفقات الجنازة بقى جزء من ماله المدخر وزع صدقة على روحه . . فحتى ذلك الرجل الذى كان يعيش عيشة الكفاف خلف وراءه مالا . .

— إننا نجمع المال لننفقه على أنفسنا ونؤمن به شيخوختنا .

— أنا لا أحقر المال ولا أنهى عن جمعه ، ولـكنى أحذر من أن نصبح عبيدا له فنبيع راحتنا وأمننا وشرفنا وكل جميل فينا لقاء وهم كبير. لا يشغل نفسه بجمع المال حكيم . .

— لماذا ؟ . .

— لأنه يعلم أن الـكل باطل وقبض الريح . .

وأقبل الجرسون وقدم إليهما كشفا بأصناف العشاء والمشروبات ، فسألها على :

— ماذا تأكلين ، وماذا تشيرين على أن آكل ؟

فقالت وهى تبتسم :

— إن كان ولابد أن نتعشى فدع لى حرية الاختيار والدفع .

— لك حرية الاختيار أما الدفع فأنت ضيفتى الليلة .

— هذه عادتنا هنا .

— ولـكنها تتنافى مع تقاليدنا .

وطلبت قطعة من اللحم المشوى وسلاطة خضراء ، وطلبت لعلى طبقا من الأرز والجنبرى بالـكارى ، فقال لها :

— ألا تشربين حساء ذيل الثور ؟

— شـكرا

— نبيذا أو ويسكى أو شرابا خفيفا ؟

فقالت وهى تبتسم :

— لو كنا فى الـكازينو لطلبت شمبانيا لأحصل على عمولتى ،

أما هنا فلن أستفيد من الشرب شيئا . .

والتفتت إلى الجرسون وقالت له :

— هذه طلباتنا . .

وانصرف الرجل وقال لها على :

— كل الألمان يشربون حساء ذيل الثور ، ويخيل إلى أن ذيول ثيران العالم كلها لا تكفى لصنع هذا الحساء . . أنا واثق أنه لا علاقة بين هذا الحساء وبين ذيول الثيران ، فلم أعثر مرة على قطعة ذيل .

— ومم يصنع إن لم يكن من ذيول الثيران ؟

— إنه غسيل الأوانى التى تطهى فيها الخضر واللحوم . .

وضحكت ، ثم التفتت إلى النهر فوقعت عيناها على فتى وفتاة فى زورق ، الفتاة خلف عجلة القيادة تديرها دورات مستديمة فيلف الزورق حول نفسه وهى تضحك فى مرح ، والفتى يشاركها فى ضحكها ويلف ذراعه حولها ويدنى رأسه من رأسها . ظلت ترنو إليهما مدة ، وقرأ على الاهتمام فى وجهها فسألها :

— فيم تفكرين ؟

— فى نفسى التى تحيرنى ولا أكاد أفهمها ، فقد اشتهيت ونحن عند المرفأ أن أقفز إلى أحد الزوارق وأن أمرح كما تمرح الفتيات ، ولكنى أحسست أن ذلك لايليق بى فوأدت رغبتى فى نفسى ، وهاهى ذى رغبتى تعاودنى الآن ، وأحس أنى أريد أن أمرح كما يمرحن .

— وما الذى يمنعك من ذلك ؟

— الأثقال التى أرزح تحتها ، فكثيرا ما يخيل إلى أنهن مصنوعات من مادة الطيف وأنى مصنوعة من معدن معتم ثقيل ، إن ذلك الشعور قلما يفارقنى . .

نظر إليها فى إشفاق وطافت برأسه أفكار ، ولكنه لم يحرك شفتيه ليفصح عنها . ونظرت فى عينيه كأنما تنظر فى بئر سحيقة ، وقالت :

— أستطيع الآن أن أقرأ ما يدور فى ذهنك ، فأنت تريد أن تقول : « إن هذه الأثقال هى وطأة تجاربك ، هى حصيلة الليالى التى قضيتها بين أحضان الرجال » . قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟

— أنت فى حاجة إلى البعد عن المشاعر الغليظة ، فالمشاعر الرقيقة هى التى تجلو أرواحنا وتجعلنا نهيم كالأطياف إنى أدعوك لنزهة بريئة فى زورق . .

فقالت وهى تبتسم :

— لتبث فى المشاعر الرقيقة التى ماتت . .

— المشاعر لا تموت ولكنها تتوارى . .

وصمت قليلا ثم قال :

— ما رأيك فى نزهة فى زورق بعد العشاء ؟

— فلنؤجل ذلك إلى الغد . .

فقال فى ابتهاج :

— إلى الغد .

وجاء الجرسون فوضع قطعة اللحم والسلطة والخضراء أمام آنى ،

والأرز والجمبرى بالكارى أمام على ، وبدآ يأكلان وساد بينهما الصمت برهة إلى أن قال على :

— أريد أن أقدم إليك طعاما شرقياً . .

— أين ؟

— طعاما من صنع يدى ولكنى لا أدرى أين . . أريد مطبخاً .

— مطبخى تحت أمرك . .

فقال فى مرح :

— غدا فى الثانية عشرة أكون فى مطبخك لأعد لك غداء شرقياً .

فتناولت حقيبة يدها وأخرجت منها مفتاحا وقالت :

— قد أكون فى تلك الساعة نائمة ، هذا هو المفتاح .

فتناول منها المفتاح وقلبه يخفق بين جنبيه كجناح حمامة . .

أخرج على المفتاح من جيبه وقلبه فى يده وهو نشوان ، فقد نسى كل ما كان بينه وبين الرجل الآخر الكامن فى أعماقه طوال ليلته الماضية وما وجهه إليه من اتهامات ، فقد عنف عليه وأصر على أن تقديم المفتاح إليه إن هو إلا بداية علاقة داعرة وإقرار منها بتسليم مدينتها المفتوحة ، بل أكثر من إقرار ، إنه إغراء وتحريض ، وإن نظرة ماجنة منه كافية بأن تهتك كل ما بينهما من حجب ، ولن تنفعه ساعتها أحاديث الروح ، ولا التعالى الذى يلوذ به ، ولا ما يحاول أن يقنع به نفسه من أن كل غايته أن يوقظ فيها المشاعر الرقيقة ، إنه يعبث بالنار !

وضع على المفتاح فى ثقب الباب وأداره فى رفق ، ثم دفع الباب بكتفه فى حرص شديد حتى لا يصر أو ينبعث منه صوت قد يوقظها ، فهو يريد أن يبقى وحده هنيهة حتى تهدأ أنفاسه اللاهثة ، دخل يتسلل وتحت إبطه كتاب ضخم وفى يده حقيبة من شبك فيها خضر ولحم ولحم مفرى وفاكهة . وأخذ يتلفت حوله يبحث عن المطبخ حتى بلغه فوضع الحقيبة على نضد هناك ، ثم ذهب والكتاب تحت إبطه إلى غرفة الاستقبال فرأى صورتها العارية فراح يدنو منها وهو مفتوح العينين مسحور بالمشاعر التى غمرته .

ومست أذنيه حركة بعيدة فجفل مذعوراً ، ووضع الكتاب على النضد

الذى يتوسط الغرفة وعاد يهرول إلى المطبخ ، يبحث عن أوعية يضع فيها ما أحضره من أشياء .

واتضح وقع أقدامها فراح يتلفت زائغ البصر ، يتظاهر بالانهماك فى العمل والهدوء وإن كانت كل حواسه مرهفة وفى جوفه قلق ممزوج بخوف من المجهول المقبل عليه .

ودخلت عليه المطبخ تسبقها رائحة عطرة ، فرنا إليها رنوة طويلة ، وخف يستقبلها متهلل الأسارير فى عينيه فرح وابتهاج ، قال :

— آسف إن كنت أيقظتك ؟

قالها وهو يعلم أنه لا يمكن أن يكون أيقظها ، فتصفيفة الشعر التى تزين رأسها ، والأحمر الذى يحدد ثغرها فى دقة وإغراء ، والروب الوردى الذى يلف جسمها لفا ويبرز فتنته الصارخة ، كل ذلك يؤكد أنها أمضت وقتا طويلا أمام المرآة . وقتا أطول بكثير من الوقت الذى استغرقه فى الدخول إلى المطبخ والوقوف أمام صورتها العارية . .

قالت فى هدوء :

— أبدا . إنى استيقظت اليوم مبكرة . .

ولم تقل له ما الذى أيقظها ، وفيم كانت تفكر ، ولم ترو له قصة الصراع الذى شب بين جنبيها ، ولا دهشتها من ضميرها الذى استيقظ فجأة ينهاها عن إتيان شىء هو طابع حياتها ، إنها تشتهيه وإنها ما اشتهت رجلا إلا نالته ، فما بال ضميرها يحاول أن يقف بينها وبين هذا الرجل يمنعها من أن تستعمل أسلحتها . . ووقعت عيناها على الخضر والأشياء

التى جاء بها فقالت فى ابتهاج :

— جزر وبسلة وكوسة ولحم ولحم مفرى وطماطم وخوخ . . ماذا ستفعل بكل هذا ؟

— غداء لنا . .

— ومن أين جئت بكل هذه الخضر ؟

— من دكان سيدة سمينة قريب من الفندق ، ألمانية متعصبة لألمانيتها .

فابتسمت وقالت :

— وكيف عرفت ذلك ؟

— رفضت أن تسمع منى كلمة إنجليزية واحدة ، وأمرت ابنتها وهى مستاءة أن تلبى طلباتى

— لعلها لا تفهم الإنجليزية .

— أكدت لى ابنتها أنها تفهمها . . ولكنها لا تحب أن تسمعها أو تستعملها فى حديثها ، وعلمت منها أن مثلها كثيرا من الألمان ، ممن قاسوا ويلات الحرب وشدة وطأة المتكلمين بالإنجليزية .

وهمت بأن تقول له : « لا شك أن الابنة كانت جميلة فاسترسلت فى الكلام معها » لتجره إلى حديث يفك عقدة لسانها ، ولتشجعه على أن يقيم جسرا للشيطان يعبر عليه تلك الهوة التى تفصل بينهما ، ولكنها كتمت أنفاس تلك الخاطرة وقالت :

— هل لى أن أساعدك ؟

— أريد بصلا وبعض الأرز وسكينا ذات حد مدبب .

وأسرعت تلبى طلباته وهو يختلس النظر إليها ويتملى مفاتنها ، ويهم الذئب الكامن فى نفسه أن يرفع رأسه ، ولكن رهبته تستولى على مشاعره وتميت فيه كل رغبة . وضعت ما طلبه على المضد فمد يده وتناول بصلة نظر إليها فى حب وقال :

— هذه البصلة من بلادى ، من الأرض التى أنبتتنى . .

— وشرد ببصره وسرح خياله وانتشر فى وجهه صفاء أخاذ ، فبدا كأنما يستقبل وحيا من السماء . ونظرت إليه هنيهة وهى صامتة ثم قالت :

— فيم تحلم ؟

فالتفت إليها وقال وقد التمعت فى عينيه ابتسامة لم يكتمل مولدها على شفتيه :

— ما أعجب الروح ! تلتقى بمن تحب فى لمح البصر وإن كان على بعد آلاف الأميال . . كنت الآن فى بيتى فى القاهرة ، أقبل أهلى وأضمهم إلى صدرى ، ولا أزال أحس طعم القبل فى كل وجدانى . .

فقالت فى صوت خافت :

— أنت تحن إلى الوطن .

فقال وقد بدأ يقشر البصل :

— إنى أحب بلادى . .

— كلنا يحب بلاده ، ونزداد حبا لها كلما بعدنا عنها وزاد إحساسنا بالوحـــدة .

— هل سبق لك أن غادرت ألمانيا ؟

— ليس بعد ، ولكني زرت كل مدنها ، إني وأنا في برلين أستشعر حنينا إلى هامبورج ويشغل فكري بيتي هذا وإن لم يكن لي فيه زوج أو أبناء .

وأحست أن صوتها تهدج ونم عن ضعف لم يبد لبصيرتها من قبل ، فاضطربت وأشاحت وجهها عنه وهي تعجب في نفسها من ذلك التبدل الذي طرأ عليها . إنها لا تقوى على أن تواجه نظراته هي التي لا تختلج فيها خالجة ومئات العيون تصوب إليها وهي عارية . .

وملأها شعور بالرغبة في الفرار من نفسها فأخذت تتلفت زائغة البصر ، ووقعت عيناها عليه وهو منهمك في العمل فقالت له :

— ألا تبدل ثيابك حتى لا تتسخ ؟

فقال وهو ينظف يديه مما علق بهما :

— يكفي أن أخلع الجاكتة . .

— لا . . هذا لا يكفي . . تعال . .

وسارت وهو إلى جوارها حتى بلغا الدرج الداخلي فصعدا فيه . وانتشر في جوفه خوف وقلق فهو يعلم أن هذه السلالم تؤدي إلى غرف النوم ، وخفق قلبه واستولت عليه رهبة حبست لسانه حتى عجز عن أن ينطق بكلمة واحدة . .

وبلغا بسطة تفتح عليها غرفتان للنوم ، وأسرعت نظراته إلى الغرفة الأولى . . كانت ستائرها مسدلة وهي من نفس القماش الذي صنع منه

مفرش السرير ، وكان السرير يتوسط الغرفة وقد علقت فوقه صورة كبيرة لها وهى عارية . وسرعان ما ارتد بصره إليه وسرت فيه قشعريرة خفيفة .

وجاوزا الغرفة الأولى ووقفا على وصيد الغرفة الثانية ، فقالت له :

— تفضل ، عندك بيجاما على السرير .

وتقدم خطوات ووقف متردداً ، خطر له أن يغلق الباب وراءه ولكنه خجل من نفسه ، كما خجل أن يخلع ثيابه والباب مفتوح وهى تتفرس فيه بعينيها . .

وانسلت إلى غرفتها وجلست على حافة السرير ، ولكنها لم تستطع أن تستقر طويلا فقامت تذرع المكان جيئة وذهابا وهى مطرقة ، ثم اتجهت إلى أزرار الكهربا وأدارتها فانتشر فى المكان ضوء خافت ، وانعكست على صورتها أنوار ملونة جسمتها وبعثت الفتنة فيها ، وأبرز اللون الأحمر جمالها طاغيا يوقظ المشاعر النائمة . .

واختلطت عليها أحاسيسها حتى لم تعد تميز رغباتها . إن كل ما كانت تحسه فى وضوح أنها قلقة ، وأن ذلك القلق شىء جديد طارىء عليها ، فطالما خلع رجال ملابسهم فى غرفتها وهى هادئة لا تعرف الانفعال أو الرهبة .

وعادت إلى أزرار الكهربا وأدراتها فاختفت الأنوار ، ولكن لم يختف القلق فى جنبات صدرها ، فأخذ يعلو وينخفض بأنفاس مضطربة . .

أهى خائفة ؟ ومم تخاف ؟ إن أقصى ما يمكن أن يناله منها تقدمه كل ليلة فى سهولة إلى كل من يدفع الثمن ، ولكن لا ، إن أمرها معه يختلف . إنها لأول مرة فى حياتها تستشعر ضآلتها أمام رجل ، وترتجف فرقا إذا

فكرت فى أن تحتويه فى أحضانها ، فهو يختلف عن كل من قابلتهم من الرجال .

وراحت تسير فى الغرفة وتعود لتجلس على حافة السرير ، ثم تهب واقفة كأنما جلست على شوك . ولم تهدأ هواجس نفسها ، فقدنشب الصراع بينها وبين المرأة الكامنة فى أغوارها التى مافتئت تزين لها إغراءه ونيله ، قالت لها :

— لقد دفع الثمن : الصينية التى قدمها ودعوة الشاى ودعوة العشاء وغداء اليوم . أصبح من حقه أن ينال ما يناله الآخرون .

وأسندت رأسها بيديها وقالت فى حدة :

— كفى ، كفى ! لا تدنسى المشاعر النبيلة التى بدأت أتذوق طعمها . إنه ليس كالآخرين ، إنه أنبل من أن يكون مثلهم .

— كل الرجال سواء . مامن رجل يستطيع أن يقاوم إغراء امرأة جميلة . كل ما فى الأمر أنه يخشى الإقدام على ما يشتهيه . خذى بيده ، وسيجتاز الهوة التى بدأت تتسع بينكما ، وبعدها يذوب فيك ويصبح كالآخرين طوع بنانك .

— إنى لا أريد أن أحطم النبت الجميل الذى بذر بذوره فى نفسى . فقد كنت أومن أن العالم كله شرور وإذا بهذا الرجل يغرس فى إيمانا جديداً بأن الخير موجود .

— بل قولى إنك أصبحت تخشين ألا يستجيب لندائك ، فتندك حصون كبريائك . هذه هى الحقيقة بلا مواربة أو تزوير .

— وحتى لو كانت هذه هى الحقيقة فلن يزعزع ذلك ثقتى فيه . فهو دليل على أنه لن يقبل أن يلوث طهارة الصداقة التى تملأ قلبه الكبير .

— إنه يريدك ، يتورد وهو معك ، تتهلل أساريره وهو يبادلك الحديث ، تمتلىء عيناه بالنشوة وهو يقلبهما فيك .

— من حق كل إنسان أن يحلم وأن يشتهى وأن يتمنى ، وليس لنا أن نحاسبه إلا على ما يفعل ؛ فإن كان يشتهينى حقا وهو يعلم أنى متاع مباح للجميع ثم يكبت عواطفه ، فهو قوى قادر على قهر شهواته ، وما أجمل أن يستطيع إنسان بكل ما فيه من نوازع وطيش ورغبات أن يملك ناصية أمره ويسيطر على الوحش الكامن فيه .

وأحست حركة فالتفتت فرأت عليا فى البيجاما يهرول هابطا فى الدرج كأنما يفر من شىء يطارده ، فهدأت نفسها وسكنت العاصفة التى شبت فى وجدانها أن أطمأنت إلى أنه ابتعد عن غرفة نومها . كانت تخشى أن يدخل عليها فتنسى نفسها وترتمى فى أحضانه ، فتطفىء بيديها ذلك البصيص من النور الذى تسلل إلى قلبها .

وقامت وألقت على نفسها نظرة فى المرآة فوجدت أن أحمر الشفاه يؤكد أنها غانية ، فمدت يدها وتناولت من درج التواليت منديلا راحت تمسح به شفتيها .

وأحست بغريزتها أن روبها الأحمر كله إغراء وفتنة ، وهى فى هذه اللحظة زاهدة فى إغرائه أو فتنته ، فأخرجت من صوان الملابس ثوبا بسيطا من ثياب الصباح وارتدته . وعلى الرغم من محاولتها البعد عن

الإثارة لم تنس أنها أنثى ، فراحت تمرر يدها على شعرها وعلى صفحة وجهها وتصلح هندامها ، لتتأكد أن كل ما فيها جميل . .

وهبطت فى الدرج فى هدوء وذهبت إلى المطبخ ، فوجدته منهمكا فى تقشير الكوسه وتقويرها ، فقالت وهى تنظر إلى حركة يديه فى إعجاب :

— أنت ماهر وإن كنت لا أدرى ماذا تفعل . .

فابتسم وقال :

— بحثت عن مريلة المطبخ لأصون البيجاما أن تتسخ فلم أجد .

— إنها هناك . .

وذهبت إلى باب فى الحائط وفتحته ، وعادت تحمل مريلة من البلاستيك ، وراحت تعاونه على ارتدائها ، فلمس جسمها جسمه أكثر من مرة ، ولفحت أنفاسها الحارة وجهه وهى تلف رباطها حول وسطه ، ودنت شفتاها من شفتيه . . ولو مال برأسه قليلا لأطبق عليهما ولف ذراعيه حول خصرها وعصرها عصراً ، ولكنه أصم أذنيه عن الوسوسات التى كان شيطانه ينفثها فيه .

وابتعدت عنه وهى ترمقه كأنما تتفرس فى مانيكان تعرض ثوبا جديدا ، ثم قالت :

— إنها قصيرة . .

— لا بأس مادامت تؤدى الغرض ، فلن أذهب بها لقضاء سهرة . .

— إنى قلما أرتديها . .

— إنها تصون الملابس .

— إنى قلما أرتديها لأنى قلما أطهو هنا . .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— هل أستطيع مساعدتك ؟

— بكل تأكيد . . أوقدى الموقد . .

— كم شعلة ؟

— ثلاث شعلات ، ضعى عليها ثلاث أوانى ، وضعى فى واحدة منها قليلا من الزبد وفى كل من الأخريين بعض الماء .

وترك الكوسة وراح يخرط البصل ليكون جاهزاً للتحمير ، وانتشرت رائحته فى المكان فقالت :

— رائحته نفاذة ، تكاد الدموع تطفر من عينى . .

فقال ليفر من الوسوسات التى عادت تهمس فى نفسه وتزين له ضمها وتقبيلها :

— دعى لى المطبخ ، فمن يطهو الطعام لا يتذوق طعمه . .

— أريد أن أرى ما تفعل ، فقد أتعلم شيئا . .

وحاول أن ينغمس فى العمل الذى بين يديه ، وأن يوجه كل تفكيره إليه ، ولكن هيهات فذهنه يعمل فى نشاط ، والصراع الناشب فى نفسه تنعكس آثاره على وجهه وحركة يديه ، وآلمه ذلك الوخز الذى يخز روحه ، وأفزعته تلك الخاطرة التى استولت عليه والتى تحرضه أن يأخذ البصل الذى خرطه ، وينطلق إليها فيقف خلفها ، يمد يداً من تحت أحد إبطيها يضع البصل فى الآنية ، ويحرك البصل بملعقة طويلة فى يده الأخرى من تحت إبطها

الآخر وبذلك تـكون كلها بجسدها اللدن بين أحضانه . .

وأحس كأن غيبوبة تحتويه ، وحمل البصل فى يد والملعقة الطويلة فى اليد الأخرى ، وسار مأخوذا بالمشاعر الطاغية التى تستبد به حتى أصبح خلفها ، ولم يبق إلا أن يمد يداً من ناحية ويداً من الناحية الأخرى فينتهى كل شىء ، ولـكن شيئا ما استيقظ فيه فجأة فقال بصوت متهدج :

— من فضلك . .

فوسعت له ليصل إلى الموقد ، فوضع البصل فى الآنية التى بها الزبد ، وراح يحركه بالملعقة وهو يزفر فى راحة ، وهى إلى جواره تنظر ، قالت :

— دع لى هذا فإنه يسير لا يحتاج إلى خبرة . .

فضحك والتفت إليها وقال :

— أرجو أن تبتعدى حتى لا تتخلل رائحة البصل شعرك . .

— لا بأس فالحمام قريب .

وأحس كأنما سرى فيه تيار كهربى . إنها لم تقل شيئا يثير انفعاله ولـكن الحمام ارتبط بذهنه بفعل مثير ، وخشى أن تلحظ أنه فقد هدوءه فراح يمسح وجهه بكم البيجاما ليخفيه من عينيها ، وقال ليبعدها عنه :

— إن كان ولا بد أن تفعلى شيئا فخرطى الجزر حلقات رفيعة .

— وماذا نفعل بهذه الحلقات ؟

— سنضعها فى الماء المغلى لتنضج مع البسلة .

وذهبت إلى النضد خلفه لتعمل ما أشار به ، فتنفس الصعداء فلن تقع عيناه على مفاتنها الموقظة لشيطانه العابث الذى لا عمل له إلا شحذ مشاعر الجنس . .

ومرت لحظات سكون هدأ فيها كل شىء حتى نفساهما ، ولـكن سرعان ما فرت السكينة ، فقد ذهبت ووقفت إلى جواره وكتفها يلمس كتفه وفى يدها جزرة وسكين وقالت :

— ما دام الجزر سينضج فى الماء فلماذا لا أخرطه فى الوعاء مباشرة ؟

يالله . . تقف إلى جواره وكتفها يحتك بكتفه حتى تنتهى من تخريط كل الجزر . لا . . إنه لا يستطيع أن يقاوم كل هذا الإغراء . . إنه سيزل ؛ فيوسف الصديق نفسه هم بامرأة العزيز وهمت به ولم يعصمه من التردى فى الخطيئة إلا رحمة ربه ، وآدم لم يقو على رغبات جسده وعصى ربه ، وهو ليس أفضل من أبيه . سينزلق إلى التجربة . . ويستجيب لتلك القوة المدمرة . . التى تحفزت للانطلاق فى جوفه . . قال لها فى خوف :

— لا . . لا . . لو فعلنا ذلك فسيفسد كل شىء . كل شىء . .

فقالت فى دهش :

— مم تخاف ؟

وهمس فيه هامس : « أخاف نفسى » ولـكنه قال :

— أخاف إن خرطت الجزر فى الإناء مباشرة ألا ينضج بدرجة واحدة .

— آه . . فهمت . .

وعادت إلى الضد ثانية ، وشخص ببصره إلى السقف خاشعاً مدة كأنما يردد صلاة . .

وساد السكون وشغل كل منهما بالأفـكار الدائرة فى رأسه . رأت

آنى بعين خيالها الفتاة التى تعمل فى معرض الجوهرات بفندق أطلانتيك ، ولم تكن هذه أول مرة تفكر فيها ، وهى لا تدرى سبب انشغالها بهذه الفتاة . إنها جميلة وفى وجهها صفاء وسكينة كأنما لم تقاس يوما ضراوة الحياة . ولا شك أن جمالها ليس سبب تفكيرها فيها ، فما أكثر الفتيات اللائى رأتهن وكن رائعات الحسن ، وما تركت إحداهن فى نفسها ذلك الأثر الذى تركته تلك الفتاة . . لعل صفاء وجهها والسكينة البادية عليها هما سبب انشغالها بها ، فالمرء يحن أبداً إلى ما حرم منه . . والنفس تهفو إلى ما لا تملكه ..

وانتهى من إعداد خلطة المحشى ، فحملها وعاد إلى النضد وراح يدسها بأصبعه فى الكوسة والطماطم ، وآنى تنظر إلى حركة يده السريعة ثم تنقل بصرها إلى عينيه المسبلتين، قالت :

— لا أدرى ماذا تفعل . .

— أعد أكلة من أكلاتنا المفضلة . تريثى قليلا فقدقربنا من النهاية ..

وهمس فى نفسه الهامس الذى يعلق على كل ما يقول وكل ما يفعل : « أحقاً قربنا من النهاية أم مازلنا فى البداية ؟ . وكيف تكون النهاية ؟ مشرقة أم هابطة ؟ . إن كل الدلائل تؤكد أنها حسية تفوح منها روائح الجسد ، وإن كنا نحاول أن نخدع أنفسنا بالتظاهر بالتسامى ورفرفة الروح » .

وأحس قدمه تمس قدمها ففزع وسحبها بسرعة كأنما أتى حركة غير إرادية ، وبدأ يجتر ما وقع ، فنشط شيطانه يوسوس له أن يعاود مدرجه ،

وأن يتعمد إلصاق ساقه بساقها ، ثم يحرك مقعده حتى يصبح إلى جوار مقعدها ، ويلف ذراعه حول خصرها ، ثم . . .

وضايقه استسلامه لهذه الأفكار فقال لها :

— يمكنك الآن وضع الجزر والبسلة فى الآنية . .

فقالت وأفاقت من شرودها :

— هه ؟ . آه . .

ثم نهضت إلى الموقد وفى يدها الجزر والبسلة بعد تقشيرها ، وقفزت إلى ذهنه نكتة قديمة طالما سمعها من أصدقائه ومعارفه .

« سألت الفتاة فتاها وكان شارد الذهن : فيم تفكر ؟ فقال : أفكر فيما تفكرين فيه ، فقالت وهى تطرق برأسها خجلا : يا قبيح ! » .

وأحس راحة ، فقد أوضحت له النكتة القديمة حقيقة كانت غائبة عنه . . فإنه ليس وحده الذى يكابد من ضغط مشاعره ووسوسات شيطانه . . ولكنها أيضا وهى المرأة التى تتاجر باللذة . . تقاوم رغباتها لتحافظ على طهارة الصداقة التى توطدت بينهما .

ولم يتركه الرجل الآخر الكامن فى نفسه يهنأ بالفكرة النبيلة التى لمعت فى ذهنه ، بل قال فى سخرية . . :

— طهارة ؟ . . دعك من خداع نفسك ، فإنك ستدنس هذه الصداقة البريئة قبل أن تغادر هذا البيت . . أما إن أردت أن تنجو بنفسك فليس أمامك إلا أن تفر .

— وهل هذا معقول ؟ كيف أفر وأترك لها الطعام قبل أن يتم

نضجة ؟ وإذا تم نضجه فكيف أتركه قبل أن نتغدى ؟ . لو فعلت شيئا من ذلك لكنت مجنونا . .

— يمكنك أن تبقى بجسدك ، وتفر بروحك . .

— كيف ؟

— ألا تدرى كيف ؟ لماذا اشتريت الكتاب إذن ؟

قال لها فجأة :

— هل رأيت الكتاب الذى اشتريته لك ؟

— أى كتاب ؟

— الكتاب المقدس . . إنه هناك فى غرفة الاستقبال . .

فقالت فى دهش :

— الكتاب المقدس . . لماذا ؟ . .

فقال فى راحة :

— لأنه ينبغى ألا تخلو مكتبتك منه .

— لماذا ؟

— لأن القراءة فى الكتب السماوية تعيد الطمأنينة إلى النفوس القلقة وتنزل السكينة على القلوب المعذبة ، لقد قرأت أن أفضل علاج لنزلاء المصحات الذين أتلفت الحياة المادية أعصابهم وأرهقتهم مدنيتنا الزائفة أن تتلى عليهم الكتب المقدسة ، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش مطمئنا مادام بعيداً عن الله . .

وفتر حماسه فجأة وراح يسأل نفسه : « أكان من الكياسة أن

بذكر لها نزلاء المصحات الذين أتلفت الحياة الماديه أعصابهم ؟ ترى أيجرح قوله شعورها أم يمر في يسر دون أن تشك أنه لا يقصد بقوله إلا الإشارة إلى مصيرها ؟ إنه لا يحب أن يسيء إليها . . فالحق إنها ضائعة قلبها هواء لا يعمره إيمان ، يتنازعها القلق والشك والحيرة ، ولكنه لا يرجو لها نهاية الضالين الأليمة . »

وحاول أن يقول شيئا يبعث التفاؤل في روحها ويمحو ما يكون عاق بذهنها من إشعاعات قوله ، ولكن الصور المظلمة توافدت على ذهنه ، فرآها مرة في مصحة من مصحات الأمراض العقلية ، ورآها أخرى في نافذة من نوافذ سان باولي الزجاجية تعرض جسدها العاري على المارة . ،

وتململ في ألم ونهض وهو يزفر بصوت مسموع ، فالتفتت إليه وقالت :

— هل تعبت ؟

— أبداً . . ولكني أفكر في هذا الطعام . . إن إعداده يستغرق ساعات ثم نلتهمه في لحظات .

— ولكنها لحظات لذيذة تنسينا كل ماسبقها من تعب . .

فسار حتى وقف إلى جوارها ، وسألها :

— أنضجت البسلة ؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة جميلة :

— ومن أين لي أن أعرف ؟

فمد للغرفة فأخرج حبات أخذ يضغطها بين أصابعه وقال :

— شكراً . .

— وعلام الشكر ؟

— على الجهد الذى بذلته حتى نضجت . .

فقالت وهى تضحك :

— ليت كل الجهود التى تبذل هينة كهذا . . هل من جهد آخر أبذله ؟

— جهزى السفرة لو تتكرمين . .

وراح يرقبها فى اهتمام . كان يتلهف على مغادرتها المطبخ حتى يطمئن ، فقد كان يخاف أن يستبد به ضعفه فيستجيب لوسوسات نفسه ، ولو فعل فلن يذوق طعم الراحة بعدها . إنه لا ينسى أبدا ذلك العذاب الذى ألهبه بسياطه إذ قبل فتاة الفندق قبلة مداعبا قبل أن يترك لها الغرفة لتعيد تنسيقها . . إن النشوة التى ملأته لحظة القبلة لا تقاس أبدا بالعناء والكرب والضيق والحنق والاحتقار وكل المشاعر المريرة المؤلمة التى تقاذفته بعدها ليالى وأياما . إنه حتى هذه اللحظة يستشعر خزيا كلما تذكر ما فعل . . كان مبعث كل ذلك الألم قبلة واحدة ، فأى عذاب وأى هوان وأى قلق سينزله به لو أنه استجاب للنوازع الشريرة التى يحاول أن يطلقها لشيطانه ! .

غادرت المطبخ بنفس الخطوات التى تذرع بها المنصة وهى تعرض على الناس جسدها ، فكانت كل حركة من حركاتها زاخرة بالإغراء والإثارة ، فحاول جاهدا أن يبعد عينيه عن متابعتها ، ولكنه عجز عن ذلك وظل يرقبها حتى اختفت عن بصره ، وإن استمرت بصيرته تجد فى أثرها . .

وبقى فى المطبخ وحده حتى تم نضج الطعام ، فأطفأ شعلات الموقد وبقيت النيران المندلعة بين جنباته متأججة ، فقد انفرد به وسواسه

وراح يعد ذهنه بألوان من الرؤى المثيرة التى تلهب الحواس وتـكتم أنفاس الخواطر الرزينة العاقلة . .

ووضع الطعام على المائدة ؛ ونظرت إليه آنى فى دهش وقالت :

ــ كل هذا لشخصين ؟

فقال وهو يبتسم :

ــ أخشى ألا تشبعى . .

فقالت وهى تجلس :

ــ لابد أنه لذيذ .

وراحت تذوق ألوان المحشى ثم نظرت إليه وقالت :

ــ لا أكاد أصدق أن هذه الأصناف طهيت هنا فى بيتى . . رائع !

قالتها فى حماسة كأنما شهد بيتها عملا مجيداً ، وكانت حماستها مضحكة حتى إن عليا لم يستطع أن يخفى ابتسامة الاستخفاف التى ارتسمت على شفتيه والتمعت فى عينيه . وشغلت بالطعام وبالتعليق عليه وقالت :

ــ أكلكم لذيذ . . كنت أحسب أن المطبخ الألمانى ألذ مطبخ فى العالم . . إننا مشهورون بألوان شهية من الطعام . . ولـكنى لم أذق من قبل طعاماً أشهى من هذا . . لو أنك فتحت لك مطعماً هنا لأحرزت أروع نجاح .

ــ لـكل جديد لذته وسحره ، فإذا ألفناه فقد لذته ، وقد تعافه نفوســـنا . .

وما كاد ينتهى من قوله حتى قال له الرجل الآخر الـكامن فى نفسه :

— هذا سر سحرها ؟ إنها جديدة حقاً ، ولكن ما أدراك أنها لذيذه ؟ لا تستطيع أن تحكم قبل أن تتذوقها ، خطوة واحدة من قدمك اليمنى فتلتصق فخذك بفخذها ، هيا ولا تكن رعديداً . .

وسحب رجليه حتى أصبحتا تحت كرسيه كأنما كان يخشى أن يغافله الرجل الآخر فيلصق فخذه بفخذها . .

وأراد أن يفر من همزات شيطانه فقال لها :

— سأقدم لك بعد الغداء قهوة مصرية . .

— حقاً ؟

فأومأ برأسه أن نعم ، وهم أن يقول لها : « وسأعلمك كيف تصنع » ولكنه كبح جماح لسانه . خشى أن تعود معه إلى المطبخ وأن يلتصق كتفه بكتفها ، ومن يدرى مادا يحدث بعد ذلك ؟ إن أسلم شيء ألا يتيح لجسده الملتهب فرصة ملامسة جسدها ، وألا يقيم لشيطانه ركيزة فى نفسه يمدعليها جسرا إليها ليجتاز الهوة التى بينهما والتى يعمل جاهدا على توسيعها .

وأتيا على ما فى الصحاف جميعا فقال لها :

— هل شبعت ؟

فقالت وهى تمرر يديها على خاصرتها :

— أسبوع واحد من طعامك وبعدها يترهل جسمى ولا أصلح لعملى .

فقال دون تفكير :

— ياليت .

فرمقته بعيون مفتوحة من الدهش وقالت :

— أتتمنى ذلك حقا ؟

— أتمنى أن يكون لك عمل آخر كملايين الفتيات الألمانيات ، وأن يكونلك بيت وزوج وأولاد . .

وقام منتصبا وقال :

— عن إذنك ، سأعد القهوة . .

وغادرها وذهب إلى المطبخ وما دار بخلده أنه نـكأ جروح نفسها بما قال . فقد شردت ببصرها وراحت تجتر ذكرياتها يلوح فى وجهها الانفعال ، فما تمناه لها قد حلمت به يوما ، وقد سنحت لها الفرصة لتحقيقه فتشبثت بها وعضت عليها بنواجذها ولـكنها تسربت من بين يديها على الرغم منها ، قالت لها المرأة المستكينة فى نفسها :

— لعله لا يرانى إلا غرائز مشبوبة وجسدا نهما لا يعرف الشبع . .

— وهل أنا إلا كذلك ؟

— لا . . لا . . إننى أنثى كالأخريات ، أحن إلى البيت والزوج كما أحن إلى الاستقرار ، أأقص عليه قصتى مع ماكس وكارل ؟

— يالله . . أكلما جلس إليك لا تحدثيه إلا حديث الألم والشقاء ؟

— إنه صديقى ، وإنى أحس راحة كلما أفضيت إليه بأسرارى التى تـكاد تمزق قلبى .

— من حقه كصديق أن يسعد بوقت مصاحبتك .

— إننى أعطيه ما بخلت به على الآخرين ، أكشف له مكنون صدرى . أنا واثقة أنه يقدر ثقتى فيه . سأقص عليه ما جرى بينى وبين ماكس وكارل .

— لماذا ؟

— ليعرف أنى لست غرائز مشبوبة وحسب .

— لماذا ؟

— لأنه أصبح يهمنى رأيه فى .

— لماذا ؟

— لأننى أصبحت أحترمه ، هل استرحت ؟

— تريثى ، فما أكثر الفرص التى ستسنح لك لتقصى عليه كل شىء .

وقفزت إلى ذهنها فجأة صورة الفتاة التى تعمل فى معرض المجوهرات بفندق أطلانتيك ، ولم تدر سر اهتمامها بتلك الفتاة ، وقبل أن تسترسل فى تفكيرها أقبل على بالقهوة وقال :

— أظن من الأفضل أن نشرب القهوة فى غرفة الاستقبال . .

ونهضت آنى وسارت وهو إلى جوارها حتى دخلا غرفة الاستقبال فوقع بصرها على الكتاب المقدس ، فخفت إليه والتقطته وراحت تقلب فيه ، ثم التفتت إلى على وقالت :

— إنه بالألمانية . .

فهز رأسه أن نعم ، وقدم إليها قدحا من القهوة فتناولته ، وأعادت الكتاب المقدس إلى المنضدة التى كانت تفصل بينه وبينها .

وجلسا يرشفان القهوة ، ووضعت آنى ساقا على ساق فراحت عينا على تختلسان النظر إلى الساقين الجميلتين وإلى ما فوقهما ، وغض بصره ولكنه كان يرتد إلى الفتنة فى إصرار ، وبدأ يستشعر فى جوفه حنينا

إليها ، وكاد يملؤه الاشتهاء ، وإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يقول له في قوة :

— فر وانج بنفسك .

فيقول لها على فى صوت فيه رجاء :

— إنى أحب الإصغاء إلى تلاوة الكتب المقدسة ، فهلا تكرمت بقراءة « الجامعة » ؟ إنى أحب حكم الكتاب المقدس .

فقالت فى دهش وهى تنظر فى وجهه . .

— وهل تفهم الألمانية ؟

فقال لها وهو يبتسم :

— اطمئنى ، سأستطيع أن أتتبعك فأنا أكاد أحفظ إصحاحاته عن ظهر قلب .

وترددت برهة ثم تناولت الكتاب وهامس يهمس فى أغوارها : « لعله يحب أن تقرئى أقوال ذلك الحكيم » . وراحت تبحث فى الفهرس عن « الجامعة » وقالت :

— لقد قرأت هذا الكتاب وأنا صغيرة أيام كنت أعيش بين الأنقاض ، كنت أختلف أنا وبعض الفتيات الصغيرات إلى مدرسة أقيمت فى العراء ، وكان بعض العجائز يعلمننا القراءة والكتابة وأحد القسس يزورنا ثلاث مرات فى الأسبوع ويوزع علينا نسخاً من الكتاب المقدس لنقرأ فيها معه ، فإذا انتهينا من القراءة قام بجمعها .

وتوقفت قليلا ثم قرأت :

— الجامعة . . ثلاثة عشر إصحاحا . . صفحة ٦٦٥ .

وراحت تقلب صفحات الكتاب وهى تقول :

— لم أملك نسخة من الكتاب المقدس قبل يومى هذا .

واعتدلت لتقرأ ، وشخص على إلى السقف ، وراحت تتلو الإصحاح الأول كانت تقرأ بالألمانية ولكن عليا كان يحس كل كلمة تنطق بها ، وأخذ يقرأ فى أعماقه بالعربية ما كانت تقرؤه بالألمانية وإن ظلت شفتاه مطبقتين :

— كلام الجامعة بن داود الملك فى أورشليم .

باطل الأباطيل ، قال الجامعة ؛

باطل الأباطيل الكل باطل ؛

ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؛

دور يمضى ودور يجىء والأرض قائمة إلى الأبد ؛

ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؛

دور يمضى ودور يجىء والأرض قائمة إلى الأبد ؛

الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال ؛

تذهب دائرة دورانا وإلى مداراتها ترجع الريح ؛

كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن ؛

إلى المكان الذى جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة ؛

كل الكلام يقصر لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل ؛

العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلىء من السمع ؛

ما كان فهو ما يكون والذى صنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس جديد ؛

إن وجد شىء فقال عنه : انظر . . هذا جديد . . فهو منذ زمان . . كان فى الدهور التى قبلنا . . ليس ذكر للأولين . .

والآخرون أيضاً الذى سيكونون لا يكون لهم ذكر عنـــد الذين يكونون بعدهم ؛

أنا الجامعة . . كنت ملكا على أورشليم ؛

وجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات؛

هو عناء ردىء جعله الله لبنى البشر ليعنوا فيه ؛

رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح .

واستمرت فى القراءة وهو شارد الذهن ، واختلطت فى نفسه بعض آيات القرآن بآيات التوراة ببعض أبيات من الشعر ، ورفرفت روحه وماتت كل شهوة فيه ، وتململت آنى فى جلستها ورفعت رجلا ووضعتها فوق رجل فانكشف أسفل فخذها مرات ، ولكن فتنتها لم تعد تستوقف نظره . . كان هائماً فى السموات يتغـــذى بمشاعر نبيلة يتوجها طهر وصفاء وزهد شديد .

ووضعت الكتاب على ركبتيها وقالت وهى تفكر :

ــ أحقاً كل ما فى الحياة باطل وقبض الريح ؟

فأجاب وهو شارد :

ــ كل شىء ماعدا الله باطل .

وساد بينهما الصمت وأطلق كل منهما العنان لذهنه . كان جسداهما فى غرفة واحدة أما روحاهما فكانتا تهيمان فى عوالم متباينة تفصل بينها آلاف الأميال . . كانت الهوة بين أفكارهما أبعد من المسافات التى بين دنياها ودنياه .

وأفاق من شروده فالتفت إليها وقال :

ـــ هل نذهب اليوم لركوب زورق فى الألستر ؟

فاعتدلت فى جلستها وقالت :

ـــ من غير شك . . فقد حلمت بذلك أمس .

ـــ حقاً ؟

فابتسمت ونهضت وهى تقول :

ـــ هيا نرتد ثيابنا .

واتجها إلى السلم الداخلى وراحا يصعدان فيه جنبا إلى جنب وقد حملت الكتاب المقدس تحت إبطها إذ عزمت أن تضعه فى غرفة نومها ، وبلغا الطبقة الثانية فقالت وهى تتجه إلى غرفتها :

ـــ الكياسة تقضى أن تدخل الحمام أولا لأنك ضيفى ، ولكن الواقع يتعارض مع الكياسة ، إذ يحتم أن أدخل الحمام أولا لأنى أحتاج إلى وقت طويل لأتزين وأرتدى ملابسى . .

ونظرت إليه متطلقة الوجه يشع من عينيها بريق سعادة ، فقال لها وهو واقف بين الغرفتين يكاد صدره يلمس صدرها :

ـــ إننا نمارس عادة قبيحة بعد الغداء ؟ .

— وما هي ؟

— تمدد قليلا وقدننام . إنى أحس ثقلا فى أجفانى . هنيئا لك الحمام . .

وانسلت إلى غرفتها ، ودار على عقبيه فدخل الغرفة الثانية وتمدد فى السرير ، ولم تغمض له عين بل استيقظت حواسه وتوترت أعصابه وأرهفت أذناه . كان يسمع وقع أقدامها على البساط ، وحفيف ثيابها فتقفز إلى ذهنه صور شتى ، ويراها بعين خياله تغدو وتروح فى الغرفة عارية من كل ثياب . .

ودار فى الفراش دورة وأخفى وجهه فى الحشية لعله يمحو الصورة التى احتلت تفكيره ، ولكن هيهات ! كانت المشاعر التى استيقظت فى أعماقه تغذى أخيلته وتمدها بفيض من النشوة والاشتهاء .

وبلغ مسمعيه صوت المياه المنهمرة على جسدها العارى الذى تمثل له فى ذهنه بكل فتنته وإغرائه ،فكان وقعه فى نفسه عجيبا : تارة عذبا أرق من النسيم ، وتارة عنيفا أعنف من موسيقى نحاسية صاخبة تتلف الأعصاب وتبعث الحنق والضيق . .

وتناول حشية وراح يخفى فيها وجهه ويسد بها أذنيه ليفر من المشاعر المتدفقة فى جوفه ، والأفكار المثيرة التى تدور فى رأسه ؛ ولم تهدأ الثورة العارمة الموارة بين جنباته ، بل زاد أوراها تلك المشادة العجيبة التى نشبت فى صدره بين رجلين كامنين فيه أحدهما يشدو نشيد الإنشاد فى إغراء ، والآخر يتلو نصائح الجامعة بن داود فى تحذير . .

— ليقبلنى بقبلات فمه . . لأن ثغره أطيب من الخمر .

ها أنت جميلة يا حبيبتى ها أنت جميلة . . عيناك حمامتان . .

— أمر من الموت المرأة التى فى شباك . . وقلبها أشواك . . ويداها قيود . . الصالح ينجيه الله منها والخاطئ يؤخذ بها . .

— دوائر فخذيك مثل الحلى صنعته يد صناع . . سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج ، ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات . . قامتك شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد قلت أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ورائحة أنفك كالتفاح وثغرك أجود الخمر . .

— اذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تجىء السنون قبل ما تظلم الشمس والنور والقمر والنجوم . . إن ما تشتهيه باطل وقبض الريح . .

— قومى يا حبيبتى . . يا جميلتى وتعالى . . لأن الشتاء قد مضى . . والمطر مر وزال . . الزهور ظهرت فى الأرض . .

فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى .

ها أنت جميلة يا حبيبتى . ها أنت جميلة . .

— باطل الأباطيل . . الكل باطل وقبض الريح . .

وهب من سريره وراح يذرع الغرفة مبهور النفس زائغ البصر ، يقاوم تلك القوة الطاغية التى تغريه بالذهاب إليها . . وتوسوس له أن ليس بينه وبينها إلا أن يدير مقبض باب الحمام ثم ينتهى كل شىء . .

وشخص ببصره إلى السماء وراح يتلو :

— قل رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . .

وجلس على حافة السرير يمسح وجهه بيديه ليمحو آثار المعركة التى كادت تخبو فى نفسه ، وبدأت مخاوفه تنقشع ، وسمع حركة فى غرفتها فلم تذهب نفسه شعاعا . . ونادت :

— على . . الحمام خال . .

وانطلق إلى الحمام هادئ النفس ، وأخذت تشدو بأغنية ألمانية وهو يصيخ السمع فتنتشر فيه مشاعر رقيقة حالمة وإن لم يفهم من أغنيتها شيئا . . وانتهيا من ارتداء ثيابهما وغادرا البيت وعلى يستشعر زهوا ، فقد انتصر على ضعفه وعلى محاولات الإغراء التى كادت ترديه . . ووقفا عند المرفأ النهرى الصغير . . حتى إذا أقبل الزورق البخارى قفزا فيه وجلسا عند مقدمته يرقبانه وهو يشق الماء شقا . .

وشرد على ببصره ، ولمحت آنى فى وجهه دلائل التفكير فظلت ترقبه برهة ثم قالت :

— فيم تفكر ؟

— فى شيئين معا . .

— وما هما ؟

— أولا ، لماذا أطلق على هذا الحى « جسر الشيطان » ؟

فنظرت أمامها كأنما تحاول أن تتذكر شيئا ثم قالت :

— أذكر أن إحدى الصحف كتبت قصة هذه التسمية يوما ، ولكنى

للأسف نسيت القصة . وكل ما أذكره أن ليس للقصة علاقة بما توحيه هذه التسمية ، فلم يعبر الشيطان هذا النهر ولم يعبث بالحى .

فقال وهو يرنو إليها فى خبث : .

— حقا ؟

فقالت وهى تهز كتفيها :

— إنى لا أقرر حقيقة ولا أتكلم عن الواقع ، ولكنى أذكر ما علق فى ذهنى من القصة ، فلو أنها روت شيئا عن الشيطان وفعاله فى حينا لما نسيته أبدا . فأفعال الشيطان عميقة لا تنسى . .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— قلت إنك كنت تفكر فى شيئين . . هذا أولهما . . فما هو الشىء الثانى ؟

— كنت أفكر فى كيفية عودتك فى الليل إذا توقفت هذه الزوارق؟

— أنا لا أعود فى الليل أبدا . . بل أعود مع الصباح والزوارق نشيطة فى غدوها ورواحها .

— وإذا اضطررت إلى العودة فى الليل ؟

— على النهر أكثر من جسر حقيقى غير جسر الشيطان . . أعبر أى جسر وأنطلق على الضفة الأخرى من النهر . .

وأحس أن الفتور بدأ يدب فى أوصاله كما بدأ يدب فى الحديث الدائر بينهما . . فاسترخى وأطبق شفتيه وراح يصغى إلى حديثها . . ولم يكن فيه شىء جديد . كانت تطرى طعامه وتذكر له أنها لن تتناول عشاء فى

ليلتها ، وتقص عليه بعض ما سبق أن سمعه منها . ورانت على ذهنه ضبابة خيل إليه أن عقله كف عن التفكير وغفا غفوة . .

وبلغا المرفأ الخشبي المواجه لفندق أطلانتيك ، ولفح الهواء وجهه فأنعشه فراح يجد السير إلى الجوسق ليستأجر زورقا ، ووقفت آني تنتظره بالقرب من الزوارق الراسية قرب الشاطئ .

وجلست آني خلف عجلة القيادة يغمرها الفرح . . وتستشعر مشاعر الطفولة اللذيذة التي حرمت منها ، وجلس على إلى جوارها وراحا يديران الدواسات بأرجلهما في هدوء فينساب الزورق في رشاقة ، ويمرق بجوار الزوارق الشراعية العاصة بالفتيان والفتيات . .

وراحت فخذها تحتك بفخذه في صعود وهبوط ، واختلس النظر فألفى ثوبها انحسر حتى كاد يكشف منابت ساقيها ، فجرى الدم حاراً في عروقه ، وخفق قلبه بالرغبة ، وراح شيطانه يوسوس له أن يلف ذراعه حولها . وكادت تدك مقاومته تلك الرائحــــة الساحرة العطرة التي ملأت نفسه وخدرت حواسه .

ومال بكتفه نحوها ، ورفع ذراعه ومدها على حافة المقعد خلفها ، ولم يبق إلا أن تنزلق ذراعه فيضمها إليه . وعربدت في جوفه نزواته ، وزحفت شهوته لتطفئ شعاع العقل الذي أضاء روحه ، وفجأة راح يدير الدواسات تحت قدميه في سرعة وقوة وعنف ، ليقضي على المشاعر الطاغية المسيطرة عليه .

والتفتت إليه وقالت :

— ألم أقل لك إنا سنقف قليلا لنستريح . .

ولم يرتح لذلك القرار ، فهو يخشى الراحة التى تجعله لقمة سائغة لرغباته ، وهو يريد أن يجهد نفسه ليميت الإحساسات الزاخرة بالاشتهاء ، قال :

— لا داعى للتوقف ، سنسير الهوينى فى اتجاه برج الكنيسة .

وصمت قليلا ، وإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يقول له :

— فر . . انج بنفسك ، فإن أرهفت حواسك لحركة ساقيها ، واستسلمت لذلك الخدر الذى يسرى فيك كلما لمست فخذها فخذك واحتكت ذراعها بذراعك ، فستسلب إرادتك وتستجيب للحنين وأنت مسحور . .

وانساب الزورق فى رفق ، وانداح فى صدره قلق ممزوج بإحساسات شهية ، وخطر له أن يعاود العنف الذى كان يدير به الدواسات ، ولكنه ألفاها ترمقه بعينيها الزرقاوين العميقتين فخيل إليه أنها تقرأ خبيئة نفسه ، ولم يقو على مجابهة نظراتها فمد بصره أمامه . ورأى برج الكنيسة فقال :

— هل سبق لك أن ذهبت إلى الكنيسة ؟

— أبداً . . ولا أحسب أن لأمثالى مكانا هناك . .

— لماذا ؟

— لأنى مثقلة بالذنوب ، إن كان هناك حقاً حسنات وسيئات . .

— وهل وجدت بيوت الله إلا للخاطئين ، لتغسل بطهارتها ما علق بأرواحهم من أوضار . .

— أنا كما يقول رجال الدين أسير فى طريق الضلال ، ولن يقودنى ذلك الطريق إلى الله أبداً . .

— إن الله رءوف رحيم ، وهو يحب عباده ويبارك حتى طريق الخطاة لأنه يعلم أن ذلك الطريق قد يكون أقصر الطرق إليه ، ولأنه يعلم كذلك أن صلاة الخاطئين العائدين إليه أصدق من صلوات الذين تعودت شفاههم أن تتمتم بالدعوات .

— ليتنى أستطيع أن أومن بذلك فعقلى ينفر من الغيبيات ، وقد بحثت عن الله فى كل مكان فلم أجده .

— وأين بحثت عنه ؟

— فى خرائب بلادى ، وبين أنات المحرومين وصرخات المحزونين ، وفى قلوب البشر القاسية . .

— كل ما يحيق بنا من شرور وما نقاسيه من آلام فمن أنفسنا ، لأننا أعرضنا عن الله ولم نصدع بأوامره ولم ننته بنواهيه ، إن الله لا يتجلى للذين أعمى قلوبهم الحقد والكراهية والبغضاء ، وطمست أفئدتهم الأنانية ، وغرقوا فى المادية الغليظة التى تسدل على أبصارهم حجباً كثيفة ؛ لكنه يتجلى للذين يبحثون عنه بعيون المحبة ، وتشف أرواحهم لتتلقى نفحة الإيمان العميق ، فتطهرهم وتزكيهم وتجعلهم أهلا للاتصال به . إنه لا يبحث عن الله بين الأنقاض ، ولا فى أنات المحرومين وصرخات المحزونين ، ولا فى القلوب القاسية ، ولكن يبحث عنه فى الضمائر المؤمنة .

— بحثت عنه فى نفسى فلم أجده . .

— وهل للغرفة المظلمة التى أغلقت أبوابها ونوافذها وأسدلت ستائرها أن تنكر وجود الشمس الساطعة ؟ إن أرادت هذه الغرفة

أن تنعم بالشمس وأن تسعد بالنور ، فلترفع ستائرها وتفتح نوافذها لينسكب الضوء فيها فيبدد ظلامها . .

وصمتت تتأمل قوله ، وهدأت ثائرته ونزلت على قلبه سكينة عجيبة فلم يعد يخشى نفسه أو يحفل بذلك الجسد الملتصق بجسده ، فقد شحذ حديثه روحه فقويت ، ورنا إليها وقلبه عامر بالمحبة وقال لها :

— سأذهب بك إلى الكنيسة يوم الأحد . .

— لماذا ؟

— لتبددي بعض الظلام الذي ران على روحك .

— ومن أين لي أن أعرف أن لي روحا حقا ؟ إني جسد يحس ويتألم ، ويغضب ويفرح ، ويحب ويكره ، نتيجة تفاعلات كيميائية . .

— حتى إن تجاوزنا عن معتقداتنا وسلمنا بهذا اللغو ، فبيوت الله خير مكان لشحن البطاريات البشرية . .

ومرت بالقرب من زورقهما عوامة تحمل رجالا ونساء وجوههم صافية ، تبدو عليهم آثار النعمة ، فرفع علي يده يلوح لهم محييا فلوحوا له بأيديهم ، وتوجت شفاه بعضهم ابتسامات رقيقة ، وحنى بعضهم رءوسهم في أدب . . فالتفت علي إلى آني وقال :

— إني أقدر في هذا الشعب متانة خلقه وكبرياءه واعتداده بنفسه .

فلوت آني شفتها السفلى وقالت :

— لم تعد تخدعني قشرة المدنية الزائفة التي تخفي حقيقة الناس ، إننا وحوش وإن قصرت أنيابنا وقلمت مخالبنا . لقد عشت مع هذا الشعب

الذى يتألق الآن بالنبل يوم كان يتلوى من الجوع عقب الحرب ، ويهيم على وجهه فى الخرائب ينقب بين الأنقاض على ما يأكله ، ورأيت كيف ينشب الرجل أظفاره فى عنق أخيه من أجل كسرة خبز .

وشردت ببصرها ولاحت فى وجهها قسوة وقالت :

— لو فرضت الظروف القاهرة على هذا الشعب المتحضر أو على أى شعب من شعوب الأرض أن تنقص فيه الأقوات ، لذابت قشور الرياء وبدت النفوس على حقيقتها ، وحوشا كاسرة تسرق وتنهب وتسفك الدماء . أنا لا أنكر أنى فعلت أحط ما يمكن أن يفعله حيوان فى سبيل الحصول على قوته وإسكات عواء بطنه . سرقت ونهبت وكدت أقتل رجلا ، لا لشىء إلا لأحصل على ما معه من الطعام ، وما كنت لأتردد فى أن أقتل شعبا بأسره لو كان قتله يبقى على حياتى . .

— هذه لحظات هابطة فى حياة البشرية تفرضها ظروف قهرية لايقاس عليها ، إنى أومن بالإنسان ، فما أروع الأمثلة التى ضربها المؤمنون فى الإيثار وإنكار الذات والتضحية ! إن أس كل بلاء اعتقادنا بأننا لن نحيا إلا هذه الحياة ، فنتشبث بها ونرتكب كل الشرور والآثام والموبقات لنبقى على ذواتنا . إننا لو آمنا بأننا ضيوف الله فى هذه الأرض ، وأن الدنيا إن هى إلا ممر للآخرة ، وأننا سنحيا حياة أخرى أبدية ، لما تكالبنا على الحياة هذا التكالب الذى حط من إنسانيتنا .

فقالت : أتصدق حقا أنك ستبعث مرة أخرى بعد أن تموت ؟

— لو تزعزع إيمانى هذا لحظة واحدة لكنت أحط أهل الأرض

طرا ، فما أكثر المشاعر الهابطة التى تموج فى نفسى ! وما أبشع الوسوسات التى تتردد فى صدرى ! فطالما أغرانى شيطانى وزين لى العربدة ، وتلبية نداء الجسد ، والمقامرة ، والغش ، والنفاق ، واقتراف كل السيئات . فما الذى ينهانى ويحول بينى وبين أن أتردى فى الرذائل ؟ إيمانى بأنى سألقى الله يوما وأحاسب على ما عملته فى دنياى . . .

— ألم تقل لى إن الله يبارك طريق الخطاة وأنه يغفر الذنوب . . فما الذى تخشاه من هذا اللقاء إن كان سيقع يوما ؟

— إن مجرد التفكير فى أنى سأقف بين يدى الله يوما وأنا محمل بالخطايا ، يملؤنى رعبا ويزلزلنى من الأعماق . .

ولاح فى وجهها السهوم وغشيتها حيرة لم تغب عن عينيه .

فقال لها :

— فيم تفكرين ؟

— فى كل أقوالك ، وفى هذا الانقسام الذى انتاب شعورى فلم أعد أدرى أأحسدك أم أرثى لك ؟

— على م ؟

— على هذا الإيمان الذى لم يدر بخلدى يوما ولم يعرف طريقه إلى قلبى . .

— بم يمتاز الإنسان على الحيوان ؟

— بالعقل ؟

— فإذا اقتصر العقل على تجسيم الألم وبعث القلق وإثارة الجشع

وتغذية الحيرة وخلق أدوات الدمار وتبرير وحشية الإنسان ، أتكون هذه ميزة ؟

— ما الذى تريد أن تصل إليه ؟

— إن العقل إذا لم يقدنا إلى الإيمان فهو نقمة . . . أداة تعذيب ودمار . . فإنما يمتاز الإنسان عن الحيوان بالإيمان . .

وسكت لحظات يستجمع أفكاره ثم قال فى حماسة :

— قد ينبثق الخير عن الشر ، فأنا واثق أن الإنسان فى اندفاعه لاكتشاف الكون وبسط سلطانه عليه سيصل إلى الحقيقة . . سيهتدى إلى الله . .

— هل سيجده فى السماء ؟

— سيجد نظاما محكما دقيقا لا يمكن لغير قوة هائلة عاقلة مدبرة أن تقيمه وأن تصونه ، فلا يسع الناس عندها إلا أن يقولوا : « هنا الله » .

— أتحسب أن الإنسان سيصل إلى هذا ؟

— بل لقد وصل . . فقد قال علماء الذرة أكثر من مرة عندما وجدوا نظاما دقيقا عاقلا لم يدروا تعليله : « هنا الله » .

ونظرت إليه وقالت وهى تبتسم :

— أتطمع بهذا الحديث أن تهدينى . . أن تقنعنى ؟

واستشف فى حديثها استخفافا فلم يغضب ولم تثر ثائرته ، بل قال فى هدوء :

— أنا لا أطمع بل أحب . .

ولاذ بالصمت ، وإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يقول :

— بل أحاول إقناع نفسى وتثبيت دعائم إيمانى .

وساد بينهما الصمت وشرد كل منهما مع أفكاره والزورق يتهادى على الماء . فكر فى الحفنة القليلة من العلماء وأصحاب الآراء والزعماء الذين يسوقون قطيع البشر إلى ما يشاءون من السبل . إن ألحدوا اعتنق القطيع آراءهم وإن آمنوا آمن معهم . ثم إن غضبوا غضب الناس وإن رضوا رضوا . . وإن أعلنوها حربا شعواء كان الناس وقودها . وشغل ذهنه بالتفكير فى الجماهير وتلقيها للأفكار وانفعالها بها ، وفجأة فكر فى آنى وفى كل ما مر بها وتساءل : أكانت صحية ظروفها ؟

وفكرت آنى فيه وعقدت المقارنات بينه وبين ماكس . إنه لم يلفت نظرها أول ما وقعت عيناها عليه فلم يكن يختلف فى شىء عن آلاف الرجال الذين يرتادون الكازينو كل ليلة . كل ما كان يميزه سمرته غير المألوفة فى هامبورج وسواد عينيه وشعره الفاحم ، فلو سار كل شىء فى طريقه المألوف ولم يصر على عرض صداقته عليها لأثار انتباهها لحظة ثم اندماج فى محيط حياتها فلم يبق منه أثر أو ذكر . أما ماكس فقد أدار عنقها لما وقعت عيناها عليه : كان جميلا رائعا فخما من ذلك الطراز من الرجال الذى يأخذ بألباب النساء ويفتح قلوبهن للحب ، وكان حديثه يقطر رقة وعذوبة وتشوبه رنة حزن تمس شغاف قلبها وتعبث بأوتاره .

وجاش صدرها بالذكريات وازدحمت الأفكار فى رأسها ، واستشعرت

رغبة فى الإفضاء إليه بكل ما كان بينها وبين ما كس كأنما أحست أنه ما دخل حياتها إلا ليشاركها فى حمل مأساتها . لقد راودتها فكرة البوح له بقصتها مع ما كس أكثر من مرة فى هذا اليوم ، ولكنها قاومت تلك الرغبة وكتمت أنفاسها بحجة أنها لا تريد أن تثقل عليه ، ولكن تلك الرغبة تلح عليها الآن ولا تستطيع لها دفعا . .

وراحت تتساءل فى نفسها عن الدافع الذى يدفعها إلى سرد قصة حياتها عليه ، ترى أتريد أن تقول له بطريق غير مباشر إنها لن تخدع فيه كما خدعت فى ما كس ؟ وأنكرت ذلك الخاطر فى شدة ، وراحت تؤكد لنفسها أن ذلك الرجل القادم من الشرق يختلف كل الاختلاف عن ما كس وعن كل الرجال الذين دخلوا حياتها . إنه نسيج وحده ، فطالما خيل إليها أنه من عصر غير هذا العصر وأنه وجد على الأرض من قرون ثم بعث اليوم ، فحديثه غريب تفوح منه رائحة القدم ، ولكنها فى قرارتها ترتاح إليه وإن جادلته وعارضته وسخرت منه أحيانا .

وعاد الزورق إلى الشاطئ فخرجا منه وسارا على المرفأ على غير هدى . وإذا بهما يجدان أنفسهما أمام العوامة المتجولة فى النهر وكانت راسية لينزل منها ركابها ويصعد إليها آخرون . وإذا بعلى يدفعها للركوب فى رفق فتصعد شاردة اللب مسلوبة الإرادة ويصعد فى أثرها ، ويتجهان إلى مقعد منعزل فى مؤخرة العوامة ويجلسان صامتين . . .

وانسابت العوامة فى النهر فى عكس الاتجاه الذى كانا ينطلقان بزورقهما إليه . لم يكن لهما غاية ، وما كان يعنيهما أن تصعد العوامة إلى الشمال أو

تهبط إلى الجنوب ، فكل ما يبغيانه أن يظلا معا يتجاذبان أطراف الحديث .

جلست مطبقة الشفتين فى عينيها شرود فقال لها :

— ما الذى يشغل بالك ؟

وكأنما هزها صوته لتفيق من أحلامها فرنت إليه فى هدوء وقالت :

— أنت وما كس . . .

فقال فى دهش :

— ومن هو ما كس ، وما صلتى به ؟

— رجل تسلل إلى حياتى يوما كما تتسلل إليها الآن . .

فقال فى زهو وحرك غروره اعترافها بأنه دخل حياتها :

— إنى لم أتسلل . . إنى طرقت الباب .

— هو أيضا طرق الباب . ولكن الباب الذى طرقه يختلف كل الاختلاف عن الباب الذى طرقته . إنه طرق بابا كثيرا ما فتحته ، ولكنه دق عليه فى رفق وشاعرية حتى إذا ما آنس منى ضعفا واستسلاما تسلل إلى حياتى كالطيف ، فلما اطمأن إلى مكانه انقلب الطيف شيطانا . أما أنت فقد طرقت بابا كان موصدا فى نفسى حتى كدت أنساه .

وراحت تستجمع شتات نفسها لتقص عليه قصة ما كس ، وهى تستشعر نوعا من الرضا لأن الفرصة واتتها لتفضى بها إليه على الرغم من أن مجرد تفكيرها فيها كان يحرك أشجانها ، قالت :

— رأيت ما كس لأول مرة فى الكازينو وكان جالسا بين رفقائه على مائدة قريبة من النضد الذى أخطر عليه ، واستوقف جماله نظرى فقد كان

رائما تهفو إليه النفس ويبعث الأحلام ؛ كان أشبه بأمراء الأساطير .
ووجدت نفسى أتجه إليه ببصرى على الرغم منى ، والتقت عيناى بعينيه مرة فانفرجت شفتاى عن ابتسامة ، وان كانت الابتسامة التى رفت على قلبى أرق وأعذب إذ أحسست طعمها فى أعماقى .

ورحت أذرع المنصة فى مرح ، وأتعمد الوقوف طويلا أمام مائدته فقد كانت السعادة تغمرنى وأنا أتطلع اليه ، واختفيت وراء الستار وما تزال صورته ماثلة أمامى . فأسرعت الى مقصورتى واخترت أجمل ثوب عندى فارتديته على عجل ، وهبطت الى القاعة وأنا أعرف طريقى .

اتجهت الى مائدته فحييته وجلست . ولم أحس وجود أصدقائه معه فقد كان يخيل الى أنه وحده ، ولم أستشعر مهانة لأنى ذهبت اليه دون أن يدعونى فما دار فى خلدى شىء من ذلك . كان كل ما يشغلنى أن أستولى عليه ، أن يبيت معى ليلة . .

— إنه لم يطرق الباب بل وجده مفتوحا على مصراعيه . .

— مهلا وسترى . .

وترقرقت الحياة فى عينيها وقالت :

— ودار بيننا الحديث واشترك فيه كل الرفاق ، ولكن أذنى لم تسمعا إلا حديثه وما يدور عنه . عرفت أنه عضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة من أكبر شركات ألمانيا ، وأحسست أن الآخرين يتملقونه جميعاً ويحاولون إرضاءه ، فزاد ذلك من تعلقى به وإصرارى على نيله . .

ناديت الجرسون وطلبت منه أن يضيف حساب السادة على حسابى ،

فلاحت الدهشة فى وجوههم ، واعترض ماكس ولـكننى لم ألتفت إلى اعتراضه وأشرت الجرسون أن ينصرف ، ثم نظرت إلى ماكس وقلت له : هذه تحية متواضعة لك . وأشرق وجهه بابتسامة رقيقة وقال : هل لى أن أرد هذه التحية ؟ فقلت : يسعدنى ذلك . . وأرهفت حواسى وزاد انتباهى فقد كنت متلهفة على سماع ما ينطق به ، قال : « سنقيم حفلا فى الشركة غداً ويسعدنى أن تـكونى معنا . » فقلت : « متى ؟ » قال : « فى السادسة مساء . » قلت : « يسعدنى ذلك . » وارتفعت أصوات الاستحسان من رفقائه ، ولم أحفل بهم فقد كانت عيناى معلقتين بيده التى دسها فى جيبه ليخرج بطاقة .

قدم إلى البطاقة وهو يقول : تجدين بها عنوان الشركة .

تناولت منه البطاقة وأنا أحس أحساس فتاة تتسلم أول رسالة غرام فى حياتها .

وفى الساعة السادسة من مساء اليوم التالى كنت أصعد فى الدرجات القليلة الفاصلة بين الطريق ومدخل الشركة ، وكان واقفا عند رأس السلم بقامته المديدة وجماله الأخاذ ، ولمحنى وأنا صاعدة فخف إلى يستقبلنى فى مرح وقال : « شكرا لك على تلبية دعوتى . » فقلت « أكنت تشك فى مجيئى ؟ » قال : « ساورنى بعض القلق . » وأرضانى قوله وغبطت نفسى لأن مثله كان يخاف ألا ألبى دعوته .

وصعدنا باقى الدرجات معا ، وقادنى إلى قاعة فسيحة فاخرة تغص برجال ونساء يرفلون فى أبهى حللهم كأنما قدموا ليعرضوا أزياءهم . وتعلقت عيون القوم بنا .

وكنا كلما دنونا من جماعة أفسحوا لنا الطريق وحنوا هاماتهم ورفت على شفاههم ابتسامات مهذبة .

وكان ماكس لا يبدى إشارة حتى يهرع عشرات من مرءوسيه لتلبية رغبته . كان أشبه بقيصر فى بلاطه . قدم إلى أفخر أنواع الشراب وجاذبنى أطراف الحديث ، ولم يكن حديثه سطحيا . . بل كان عميقا يمس بعض نواحى عمله الفنية . ولم أجد صعوبة فى مجاراته فما أكثر ما نقابل من الناس ، ونحن نتعلم من الناس الذين نقابلهم أشياء كثيرة ما كانت تخطر لنا على بال . .

طغت شخصية ماكس على الحفل كله فزاد تعلقى به وإصرارى على الاستيلاء عليه . كان قويا جميلا ظريفا ذا شخصية آسرة . . كان ولا شك مطمع كل أنثى .

ولم ينس ماكس ضيوفه وإن أظهر اهتمامه بى ، وقبل نهاية الحفل طلب منى أن أنتظره بعد انصراف المدعوين لأنه يريدنى ، وأرضانى طلبه ، ووفر على التدبير الذى كنت أنسج خيوطه فى رأسى ، فإن لم يكن عرض على أن أنتظره فقد كنت أنا أدبر سببا للاختلاء به . .

كنت فى قرارة نفسى واثقة مما يريد ، وكنت بكل جوارحى أشتهيه . كان فى تقديرى أن نمضى ليلة ممتعة ثم نفترق ويمضى كل منا فى طريقه ، ولكن ما حدث بعد ذلك لم يخطر لى على بال ولم أكن أطمع فيه . فإنه لما اختلى بى بعد الحفل فى سيارته قال لى : « أنا يا آنى رجل لم تعرف السعادة سبيلها إلى قلبه . أنا بائس على الرغم من كل هذه المظاهر التى تحيط بى » ، وأثار

قوله اهتمامى على الرغم من أنى سمعت مثل هـذا القول من أكثر الرجال الذين مروا بى ، فقلت فى استغراب : « هذا غير معقول . » فقال وهو يهز رأسه فى أسى : « بل هذه هى الحقيقة . » قلت فى لهفة : « وما سبب تعاستك ؟ » قال : « زوجتى ، إنى تزوجت امرأة عجزت عن أن تفهمنى وأوصدت نفسها دونى منذ أول لحظة . كلما دنوت منها تباعدت عنى ونفرت منى حتى أحالت حياتى جحيما . تزوجتها لتـكون صديقتى ولتشاطرنى سرائى وضرائى ، فإذا بها وهى فى عقر دراى تحقد على وتتشفى فى وتتمنى لى السوء . » وطافت به موجة من الأسى فنظر إلى وقال : « لو لم أكن متزوجا لعرضت عليك أن تتزوجينى الساعة » . .

كان ذلك يفوق كل تصورى ، فإن ما حدث كان أسرع مما يخطر على بال ، فلو أنه عقب جلوسى إلى جواره فى السيارة مال على وضمنى إليه وراح يقبلنى لما أثار ذلك عجبى على الرغم من الـكياسة التى يستتر وراءها ، فقد رآنى وأنا أعرض جسدى العارى على الناس . أما أن يبثنى لواعج نفسه ويقرر لجأة أنه ما كان يتردد فى زواجى لو لم يكن متزوجا فهو بذلك قد دق على باب ضعفى ولعب بمشاعرى ، وتسلل إلى أعماقى فى رشاقة فسلبنى كل إرادة ، وهيأنى لأن أبذل كل ما فى طاقتى لأمسح عن صدره الشقاء الذى نزل به دون ذنب جناه . .

قاطعها على فى هدوء :

— أتعرفين ماذا نقول عن الزواج ؟

— ماذا ؟

— تقول إن كل زوجين كانا فى الأصل فولة واحدة فلقت فلقتين ، وبعثرت هاتان الفلقتان فى هذا العالم الفسيح ، فإن حدث والتقى شطر بشطره الآخر كان الزواج سعيداً ، وهيهات أن يحدث هذا ، ولذلك كانت أغلب الزيجات غير موفقة .

فهزت رأسها موافقة وإن ظلت ساهمة تعيش بكل وجدانها فى تجربتها ، فصمت وعزم على ألا يقاطعها حتى تنتهى من قصتها ، قالت :

— وعرض على أن أكون له وحده فوافقت ، وظن أنى لم أفهمه فعاد يقول لى : « لن تذهبى إلى الكازينو . » قلت فى هدوء : « لن أذهب . » قال : « وستمكثين فى الشقة التى أقدمها لك . » قلت « سأنتقل إليها . » قال : « وستكونين زوجتى الثانية . » قلت : « سأكون خليلتك » .

كان عرضه سريعاً وكانت موافقتى أسرع ، فطالما راودتنى فكرة أن أهجر الكازينو وأن أفر بنفسى من العذاب الذى أحتمله كل ليلة وأنا أتنقل من أحضان رجل إلى أحضان آخر كسلعة ليس لها حق الاختيار . لقد واتتنى الفرصة فلم أدعها تمر ، والحق أقول إنى كنت سعيدة بها .

وانتقلت إلى الشقة التى أعدها لى ، وقطعت كل صلة بينى وبين ريبربان وأنا غير آسفة ، وذقت طعم الاستقرار حينا ، ولكن سعادتى تبخرت سريعا فقد اكتشفت أن ماكس الذى يعيش معى رجل آخر غير ذلك الرجل الوسيم الذى تسلل حديثه الحزين إلى قلبى ، كان يسرف فى الشراب فينقلب إلى إنسان تافه ثقيل لا يحتمل ، وقررت إن أصر أن أغلق نفسى على مشاعرى نحوه فقد أعتاد سخافاته ، وما أكثر السخافات التى نألفها ؟

وجئت بقطة تؤانسنى فى وحدتى ، فتعلقت بها وتعلقت بى حتى إنها ما كانت تنزل عن كتفى ، وكانت تمضى الليالى فى أحضانى فقلما كان ماكس يبيت عندى ، فالأزواج يتخففون عندنا من كل متاعبهم ، ثم يذهبون إلى زوجاتهم ليناموا ملء أجفانهم .

وذات ليلة أسرف ماكس فى الشراب وجاء يترنح ليضمنى إليه ، فلما مد ذراعيه ليطوقنى بهما إذا بيده ترتطم بقطتى وكانت فوق كتفى ، فاربد وجهه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وانتزع القطة فى قسوة من فوق كتفى وألقى بها بعيدا ، فما إن رأيت ذلك حتى طار صوابى ورفعت يدى فى الهواء وهويت بكل قوتى على وجهه ، ودوى صوت اللطمة فى أذنى غريبا أشبه بالدم يشم رائحته الوحش الثائر فتزداد ضراوته ، فاستيقظت قوى العدوان فى ، وتأهبت لرد اعتدائه على ، فقد صور لى وهمى أنه لن يسكت على إهانتى ، ولكن كم كانت دهشتى عندما رأيته يستكين وتنهمر الدموع من عينيه ويمرغ وجهه فى صدرى .

حسبت أن الدموع التى ذرفها هى دموع الندم ، وأنه لن يعود إلى قسوته مرة أخرى ولكنى كنت واهمة ، فقد أصبح طابعه أن يقسو على قطتى ولم أكن أسكت له ، فما من ليلة كانت تمر إلا وأنا أهينه وأبالغ فى إهانته وأقسو عليه ، وهو يبكى ويستشعر لذة فى البكاء تفوق النشوة التى يحسها فى ضمى إليه .

وحدث مرة أن هجم على مكشرا عن أنيابه ، وراح يمزق ثوبى الأحمر وينشب أظافره فى لحمى فى قسوة ، فجعلت أضربه فى صدره ، وأجذبه

من شعره ، وألطمه على خديه ، فما يزداد إلا ضراوة ، ووجدت ذراعه قريبة من فمي فعضضتها عضة أسالت دمه ، فلما أن هدأ أخيرا التفت إلى وقال :

— شكرا . . فهذه أروع ليلة فى حياتى . .

وملأ نفسى اشمئزازا فاحتقرته ولم أعد أطيق أن أراه ، ولم يعد فى وسعى أن أغلق نفسى على مشاعرى نحوه . كانت حياتى التى يتلقفنى فيها الرجال أهون من هذه الحياة ، فقد أصادف ضيفا ثقيلا فى ليلة ولكن سرعان ما ينجاب عنى ، أما ذلك الفظ الذى أصبحت أحتقره والذى أصبحت رؤيته تثير اشمئزازى فسيظل جاثما على أنفاسى ما دمت معه ، فقررت أن أهجره وأن أفر بنفسى من هذا الهوان . .

لم تخدعنى مشاعرى يوم قبلت ما عرضه على فقد كنت حقيقة أنشد الاستقرار ، ولكن هذا الذى أصبحت فيه كان عذابا يفوق كل عذاب . .

وانتظرت حتى جاء ، وقبل أن يبدأ الشراب قلت له : « ماكس . . أريد أن نفترق كما بدأنا أصدقاء . . » فقال فى دهش : « نفترق . . ؟ لماذا . . ؟ هل قصرت فى شىء ؟ . » قلت له : « لم أعد أحتمل هذه الحياة . » قال فى استعطاف : « آنى ابقى أرجوك . . ابقى من أجلى . . إننى لم أذق للسعادة طعما إلا معك . . لا أستطيع أن أعيش بدونك . . أصبحت كل شىء فى حياتى . . لا تتركينى . لن أحتمل هذا الفراق . . » قلت له : « آسفة ، لا أستطيع . » قال وهو منكس الرأس : « أعرف أنى مريض ، وأنى فى حاجة إلى امرأة تقف إلى جوارى وتضحى من

أجلى . . آه لو كنت أستطيع أن أفعل شيئا أو كان أمرى بيدى . . ولكن ما أفعله خارج عن إرادتى . . أنت تفهمينى . . أنا واثق من ذلك . . ولن تستطيع امرأة أخرى أن تفهمنى . أتوسل إليك لا تهجرينى . . فأعود إلى ما كنت فيه من تعاسة . »

ومس أذنى صوت ماكس الحزين ، ذلك الصوت الذى تسلل إلى قلبى أول ما سمعته ، فقررت أن أقهر مشاعرى وأن أنسى اشمئزازى منه واحتقارى إياه ، وأن أبقى مادام فى بقائى سعادته ، فقد أرضى غرورى أن أكون مبعث سعادة لإنسان يائس مثل ماكس . .

واستأنفنا حياتنا معا ، ولم يقلع عن شذوذه فكان يقسو على ويمزق ثيابى ثم يعود فيغرقنى بالهدايا والأثواب الفاخرة ، وخفت حدة ثورتى وكدت آلف سخافاته ، ولم أعد ألطمه اللطمات القوية الغاضبة التى كنت أهوى بها على وجهه أو أوله ذلك الألم المبرح الذى كنت أنزله به فى مستهل حياتى معه . وفطنت إلى أنه لم يعد سعيدا كما كان ، وأن استكانتى له هى السبب فى عدم رضاه ، فلم يعد اتصاله بى يطفىء ظمأ نفسه . وعلى الرغم من معرفتى سبب تعاسته فإنى لم ألجأ إلى القسوة عليه ، لأن السأم من هذه الحياة ملأ كل جوانحى . .

وذات مساء كنت أنتظره كعادتى إذ سمعت صوت مفتاحه يدور فى الباب فقمت أستقبله ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت أمامى رجلا آخر ، وقبل أن أفيق من دهشتى تقدم منى ثابت الخطو وقال : « أنا صديق ماكس ، فهو يأسف لعدم استطاعته المجىء الليلة ، وقد أرسلنى لأونس

وحدتك وأقضى الليلة معك . » وابتسم . . وملأنى الغيظ والغضب فثارت ثائرتى وصرخت فيه أن يخرج قبل أن أحطم رأسه .

وحاول أن يسكن غضبي وأن يخفف وقع الأمر على نفسى ، ولكنى ثرت فى وجهه وراح السباب يتدفق من فمى ، فلم يجد بدا من الانصراف. وبقيت وحدى وصدرى يعلو ويهبط وأنفاسى تتلاحق من الغضب . لم يكن دخول رجل غريب على وقضاء ليلة معى بالأمر الذى يفزعنى ، فقد كان ذلك سبيلى قبل أن أستقر فى بيت ماكس ! فالذى ملأنى غضبا وحنقا وجرح كرامتى وكبريائى أن الرجل الذى ضحيت من أجله وتحملت كل سخافاته لأسعده باعنى بيع الكلاب ، واعتبرنى متاعا يمكن أن ينتقل من يد إلى يد بنفس السهولة التى ينتقل بها مفتاح شقتى .

نسيت فى تلك اللحظة أنى لم أكن أكثر من جسد يباع لأى راغب ، وانفجرت فى مشاعر جديدة غاضبة أبت ذلك الإسفاف ، فقررت أن أغادر البيت على الفور وألا أتريث حتى الصباح .

وفيما كنت أجمع حوائجى فكرت فى نفسى فوجدت أمرى عجبا . لقد ثرت لأن ماكس بعث إلى بصديقه ، ولو جاء إلى صديقه من تلقاء نفسه لرحبت به ، ولما وجدت فى قضائه ليلة معى ما يجرح كبريائى وغرقت فى التفكير فوجدت أنى محقة فى غضبى ، فلم أثر لأن الرجل طمع فى ، ولكن لأن ماكس الذى يبعث فى الاشمئزاز والاحتقار أراد أن يبالغ فى إذلالى . .

فطنت إلى أنه ما فعل ذلك إلا ليؤجج نار غضبى ، فتشتد قسوتى عليه

إذا عاد إلى ، وهذا غاية أمانيه ، وعلى الرغم من معرفتى ذلك عزمت على أن أفر من العذاب الذى كنت فيه . .

وفى جنح الليل حملت حوائجى وانصرفت .

وصمتت آنى وقد لاح عليها الانفعال ، فقال لها على :

— وماذا كان من أمر ماكس ؟

— جاء إلى فى الكازينو ، وحاول أن يثنينى عن عزمى دون جدوى فقد أغلقت نفسى دونه . .

ورفعت آنى رأسها ونظرت أمامها فرأت أبراج الكنيسة الخضراء ، فقالت فى دهش :

— لقد عادت العوامة بنا دون أن أشعر .

— عدنا إلى الكنيسة .

وسقط المطر فجأة ، فأسرعا إلى داخل العوامة يحتميان من الماء المنهمر فى خيوط تصل الأرض بالسماء .

٥

رفع على بصره وراح يتفرس فى أبراج الكنيسة الخضراء ، وإذا به يتذكر أن أغلب قباب المساجد التى رآها خضراء ، ووجد نفسه يفكر فى الصلة التى بين اللون الأخضر وأماكن العبادة ، ولم يهتد إلى تلك الصلة على اليقين ، ولكنه علل ذلك بأن الجنة ارتبطت فى أذهان المؤمنين بالخضرة والأنهار الجارية .

وهمس فى جوفه هامس : « الخضرة والماء والوجه الحسن » ، وفكر فى ذلك ، فإذا برموز تفكيره يقرؤها ذهنه فى وضوح : « لو كانت هذه مقاييس السعادة فأنا فى هذه الأيام فى قمة السعادة ، فالخضرة ممتدة على مدى البصر ، والماء يتدفق فى الأنهار ، وآنى معى» .

ومد بصره وهو سعيد إلى أسراب الحمام التى كانت تسير فى الميدان فى دعة وأمان ، وإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يستيقظ ويقول : « هذه مقاييس مادية وضعها رجل محروم كان يهيم فى صحراوات جرداء قاحلة ، لا خضرة فيها ، ولا ماء يطفئ الظمأ ، ولا وجه حسنا أو غير حسن يؤنسه فى الطريق ، فراح يحلم بما لا يرى ، ويشتهى مالا يجد . لو أن الماء والخضرة والوجه الحسن تجلب السعادة ، لكانت هذه البلاد وكل بلاد خضراء تجرى من تحتها الأنهار ويتوج الحسن نساءها مهبط الرضا والانشراح .

ولم يسترسل فى ذلك التفكير . ضايقه أن يشغل باله بمثل ذلك العبث الذى لا طائل تحته ، ونظر إلى السلم الرخامى الذى يؤدى إلى الكنيسة ، وثبت بصره على الباب الكبير ، فقد كان يرصد خروج آنى . .

كان اليوم الأحد ، وكانت الساعة التاسعة والنصف صباحا ، وقد نجح فى أن يحملها على الذهاب إلى الكنيسة ، وأن يجعلها تستيقظ فى مثل هذه الساعة المبكرة بعد سهر مضن طويل . .

وأثلج صدره ذلك النجاح الذى أحرزه . إنه ليذكر ذلك الحوار الطويل الذى جرى بينه وبينها ليلة ذهبا إلى السيرك معا فى حفلة الساعة السادسة . فقد عاد فى تلك الليلة يذكرها بيوم الأحد وبضرورة ذهابها إلى الكنيسة ، وأخذت هى ترنو إليه فى استخفاف وتسخر من مجرد فكرة دخولها الكنيسة . إن ما قالته له ما يزال يدوى فى أعماقه . قالت : « سأذهب إلى الواعظ فأخلع ثيابى وأخطر أمامه وأرى إن كان يستطيع أن يقاوم إغرائى . سأصرعه حتما إن كان رجلا » . وأحس لحظتها عرق الخجل يتفصد منه استشعر أنها تعرض به وبرجولته ، فلو كان رجلا حقا ما ظل جامداً كالصنم باردا كالثلج وإلى جواره جسد تندلع منه ألسنة اللهيب . وكاد أن يستجيب للشيطان الغاضب الذى ثار فى جنباته يحرضه على أن يثبت رجولته ليغسل العار الذى ألصق به ؛ ولكنه كظم غيظه ونجح فى أن يقنع نفسه أن الصلة بينه وبينها لم تعد صلة بين رجل وامرأة ، ولكنها صلة سمت بطهارتها على كل المشاعر الهابطة . .

وهب الرجل الآخر الكامن بين جنباته يسخر منه ، قال له :

« لو كانت الصلة التى بينك وبينها سمت على الرغبة الجامحة ، فلماذا لا تزال تشتهيها وتحن إليها كلما خلوت بنفسك . إنك تخشاها . . وإن خوفك منها يزيد على الأيام . فلو أنك منذ أول ليلة قابلتها نظرت إليها على أنها أنثى لا تختلف عن سائر النساء لما اتسعت هذه الهوة السحيقة التى تفصل بينكما ولما أصبح كل منكما يخشى الآخر . .

وأصم أذنيه عن هذا الحديث فطالما سمعه حتى كاد يألفه ، وراح يفكر فيما جرى بينه وبين آنى طوال الأسبوع للنصرم حتى نجح فى أن يدفعها إلى الذهاب إلى الكنيسة . إنه يراها بعين خياله وهى جالسة قبالته على نضد صغير فى ركن هادئ فى المطعم الروسى ، والجرسونات يغدون ويروحون برءوسهم الحليقة وقمصانهم الحريرية الحمراء المفهفهة ، وبنطلوناتهم التى تكاد تلتصق بأفخاذهم ، والموسيقى الروسية تردد أنغاما قوقازية فتعاون على خلق الجو المنشود . .

وأشار لأحد الجرسونات بإصبعه ، فلما جاء طلب منه طعاما روسيا لا يدرى ما هو وزجاجة فودكا ، فقالت له آنى :

— لمن ؟

— لك . . إنى لا أدرى ما هى الفودكا وهل هى بيرة أو خمر ، ولا أعرف ألونها أبيض أم أحمر فى لون النبيذ . .

— الفودكا شراب قوى .

فقال لها مداعبا :

— ليته يدير رأسك .

والتفت إلى الجرسون وقال له :

— أأنت روسى حقا ؟

فقال الرجل دون لف أو دوران :

— لا . أنا ألمانى .

— ولماذا ترتدى هذه الثياب ؟

— لأعاون على خلق الجو الروسى .

— وهل كل الذين يعملون هنا من الألمان ؟

وهز الرجل كتفيه ولم يحر جوابا وانصرف ، فالتفت على إلى آنى وقال لها :

— هذا الشعب لا يعرف كيف يكذب . .

ثم رأى بعين خياله الجرسون وهو يعود بالطعام وبالفودكا فى قنينة صغيرة ، وكانت فى لون الماء ، فوضع الطعام أمامهما ولم يكن إلا دجاجا مشويا بالكهربا ، فضحكت آنى وقالت :

— الدجاج هو الدجاج وإن اختلفت الأسماء .

وشربت قليلا من الفودكا ثم اعتدلت وقالت :

— أتصدق أنى أصبحت أقرأ كل يوم فى الكتاب المقدس ؟

— حقا ؟

— أصبحت أقرأ فى الليل قبل أن أنام وفى الصباح عقب استيقاظى من النوم مباشرة .

— وما شعورك فى أثناء هذه القراءة ؟

— شعور بالراحة ، ويخيل إلى أحيانا أن طبقات من الظلام الذى يملأ جوانبي أخذت تنقشع .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— الحقيقة إنى لا أدرى أكان ما أقرأه سبب ما أحسه من راحة ، أم كان ذلك بفعل الوهم الذى غرسته فى نفسى . .

— أنا لم أغرس فى نفسك أى وهم . . كل ما فعلته أنى جذبتك إلى دائرة النور ، وما أكثر ما فى أعماقنا من كنور . .

— إنى أكاد أنكر نفسى أحيانا .

— لماذا ؟

— لأنى أصبحت أفكر فى أشياء ما كنت أحسب أن تخطر على قلبي فى يوم من الأيام .

— مثل ماذا ؟

— مثل الأشياء التى يرويها الكتاب المقدس ، والتى ما تفتأ ترددها على سمعى . . أنت ابن بار للكتاب المقدس . .

— أنا ابن بار لكل ما يغذى الروح ، للقرآن والكتاب المقدس وكل كتاب كريم يرفعنى إلى السماء . .

— أتؤمن حقاً بوجود إله لهذا الكون ؟

— بكل جارحة من جوارحى . . بكل ذرة فى كيانى . . أنا لا أستطيع أن أتصور أن يستطيع إنسان أن يعيش عيشة راضية بلا إله . . فالويل لمن لا إله له .

وراح يغدو ويروح أمام الكنيسة ويتسلى بمشاهدة الحمام الذى يسير على الأرض فى وقار أو ينتقل مرفرفا بجناحيه من مكان إلى مكان ، وقفز إلى ذهنه خاطر : إن هذا الحمام لا يختلف عن حمام الحمى الذى يعيش فى الكعبة أو فى الحرم النبوى ، فلو قدر لهذا الحمام أن يلتقى بذلك الحمام لتبادل الجميع القبل وسرعان ما تسود بينهما الألفة والوئام ، فكلاهما من سلالة حمامة نوح التى عادت إلى السفينة تحمل غصن الزيتون ، فما بال أبناء آدم تثور قلوبهم بالحقد والبغضاء والعداوة والكراهية ، وتتعلق أفئدتهم بالقتال وشن الحروب وسحق إخوانهم فى البشرية .

وفجأة راح يفكر فيما كان منه صباح اليوم ، فقد استيقظ مبكرا بعد ليلة حافلة بذلك الصراع الذى ينشب فى جوفه كلما كان على موعد معها ، وانطلق إلى دارها فأخرج المفتاح من جيبه وفتح به الباب ، ثم راح يصعد فى الدرج مهرولا ليوقظها ، وكم كانت دهشته عندما وجدها جالسة على حافة سريرها مرتدية ثيابها تقرأ فى الكتاب المقدس . نظر إليها فى دهش وقال :

— مدهش . . كنت أحسب أنى سأضطر إلى هزك لأوقظك . .

فقالت وهى تبتسم :

— لا أدرى ما الذى أيقظنى اليوم مبكرة .

— نحن نصلى صلاة الفجر فى الصباح الباكر ، فمن اعتاد أن يصلى هذه الصلاة يستيقظ قبل شروق الشمس مهما كان مجهدا ، ولا نعرف تعليلا

لذلك ، أما العوام فهم لا يحبون أن يتركوا شيئا بغير تعليل ، لذلك يقولون إن للصلاة خادما من الملائكة ، وأن وظيفة ذلك الخادم إيقاظ معتادى صلاة الفجر قبل شروق الشمس ، فلعل ذلك الخادم هو الذى أيقظك . .

فقالت وهى تضحك :

— شكرا .

— وعلى م الشكر ؟

— على أنك فكرت فى أن الملائكة تزورنى فى بيتى هذا وأنا نائمة على فراشى هذا .

— إن لم تكن الملائكة تطوف ببيوتنا فلا نزلت ، فما جدوى هيامها فى بيوت العبادة ؟

وعاد يلتفت إلى سلم الكنيسة الرخامى ويرفع بصره إلى الباب فلم ير أحداً خارجا ، فما تزال الصلاة قائمة . واستأنف تفكيره فيما جعله يلح عليها فى الذهاب إلى الكنيسة فقال لنفسه :

— عزمت منذ أول لقاء بيننا على أن أنتشلها من الهاوية التى تتردى فيها .

وإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يستيقظ ويقول :

— وهل بعثت هاديا ؟ . إنك اشتهيتها منذ اللحظة الأولى ولكن خوفك منها جعلك تخدع نفسك وتوهمها أن غايتك أسمى من أن تنالها ، وقد اندفعت وراء وهمك فلما وجدت أن الألفة التى سادت بينكما قد تشجعك على أن تلبى رغبات جسدك ، فزع خوفك وراح يدفعك إلى

دعوتها إلى الذهاب إلى الكنيسة لتحصنها من نزواتك ولتقيم حواجز جديدة بينك وبينها .

— أمرك عجيب ! وما الذى يحرك خوفى إن كانت الألفة التى سادت بيننا كتمت أنفاسه ؟

— قصة ماكس أنسيتها أم تحاول أن تتناساها ؟

— وما علاقتى بماكس ؟

— لما قالت إنها اشمأزت منه واحتقرته ارتجف قلبك فرقا وطار النوم من عينيك . .

— لماذا ؟

— لأنك بت تخشى إن اتصلت بها أن تشمئز منك وأن تحتقرك كما احتقرته .

— وهل يضيرنى احتقارها أو اشمئزازها ؟ إنى سأمكث هنا أياما معدودة ثم أعود إلى بلادى ، وسيفصل بينى وبين احتقارها آلاف الأميال . .

— الخوف لا يخضع لمنطق أو عقل ، لماذا ينتابك القلق إذا صوبت إليك عيون الناس ؟ ما الذى يضيرك من تطلعهم إليك ؟ ألا تتذكر فى لجمة الليل عملا من أعمالك التى خجلت منها فتستشعر تضاؤلا وتحس كأن آلاف العيون تصوب إليك وتعذبك ؟ احتقار الغير لك يتبعك أينما كنت ويقلقك ويضنيك لأنه يعيش فى نفسك ، وقد ينجح فى أن يزعزع ثقتك فى ذاتك فتحتقرها وهذا أقسى ألوان الاحتقار .

— إنى سئمت حديثك فطالما رددته على سمعى ، هل عندك جديد ؟

— إن كنت سئمت حديثى لأنى كررته عليك فلماذا لم تسأم حياتك وهى تتكرر كل يوم ؟ تستيقظ فى الصباح وتنام فى الليل وتقوم بنفس العمل وتقابل نفس الوجوه ، حتى آنى التى تشتهيها لو قدر لك أن تنالها فلن تعثر على جديد إلا ما يمدك به وهمك . لا تقل إنك سئمت حديثى بل قل إنك أصبحت تخشى عينى المفتوحتين اللتين تريان خبايا أعماقك .

— بالله كف عن هذه الثرثرة ودعنى أفكر أين نذهب بعد خروجها من الكنيسة ؟

ورفع بصره إلى السماء فوجدها صافية فقال فى ابتهاج :

— الجو اليوم جميل . . أين نذهب ؟ نركب زورقا فى النهر . . لا . . لا . . نذهب إلى « سيتى هول » نتناول شرابا ونتجاذب أطراف الحديث . . لا . . لا . . نذهب إلى حديقة الحيوان

واستراح للفكرة وعاود النظر إلى باب الكنيسة وإذا بصوت هامس يوسوس له :

— نذهب إلى بيتها نتعانق ونتبادل القبلات .

فرن فى أعماقه صوت الرجل الآخر :

— ماكس .

فقال فى حنق وغضب :

— لعنة الله عليك وعلى ماكس .

وبدأ الناس يغادرون الكنيسة فراح يتطلع إليهم وقد اختفت للشاعر

التى كانت تتصارع فى جوفه . . . أغرقتها موجة جديدة من الرضا والطمأنينة . .

ورآها مقبلة فانشرح صدره ، وصعد درجات دون تفكير يستقبلها عند منتصف السلم ، ثم عاد يهبط معها فى الدرج بادى السرور .

ولم يستطع أن ينتظر حتى يبتعدا عن المكان ، كان متلهفا على سماع ماجرى طوال المده الطويلة التى قضتها فى الصلاة وسماع موعظة يوم الأحد ، وما كانت تلك اللهفة على الموعظة بل كانت على استجلاء مشاعرها ومادار فى رأسها من أفكار ، قال لها :

— أريد أن تقصى على كل شىء . . كل ما فعلته وكل ما خطر على قلبك .

فقالت له وهى تهبط فى الدرج فى خفة :

— ألا تتريث حتى نستقر فى مكان ؟

— لا . . أريد أن أسمع الآن . . لا أستطيع أن أصبر .

وتأهبت لتقص عليه ما يزخر به رأسها ، فقد عاشت تجربتها الجديدة صاحية الذهن مرهفة الحس مفتوحة النفس ، وقبل أن تفتح فمها قال لها فى سرعة :

— فكرت أن نذهب إلى حديقة الحيوان . .

فقالت دون تفكير :

— حسنا !

وصمتت قليلا ثم قالت :

— لم أحس من قبل بمثل الأحاسيس التى ملأتنى اليوم . كان عيى دائما شدة ثقتى بنفسى ، ولكن هذه الثقة تخلت عنى وأنا أسير بين المقاعد زائغة البصر لا أكاد أميز شيئا مما حولى . كنت خائفة حقا ، وزاد فى خوفى خفقان قلبى الذى كان يهز كل مشاعرى . وخطر لى أن أجلس على أول مقعد أقابله ووجدت أن تنفيذ هـذا الخاطر أمر عسير ، فجعلت أتقدم كالمأخوذة حتى بلغت الصف الأمامى ، ولم يعد هناك ما يدعو إلى التقدم فوقفت وأنا أتلفت فى ارتباك ، وإذا بسيدة عجوز تفسح لى مكانا إلى جوارها وتقول فى رقة : « تفضلى يا ابنتى » ، وسكنت دعوتها لى وحنانها المتألق فى عينيها روعى بعض الشىء ، فجلست وأنا فى شدة العجب من نفسى ومما اعتراها . ما الذى أخافنى أنا التى لا تختلج فيها خالجة لو سارت عارية فى شوارع هامبورج ؟ لست أدرى

وجعلت أرصد حركات السيدة لأفعل ما تفعله ، فما كنت أعرف كيف أصلى . وكنت فى بعض الأحيان أصيخ السمع للأصوات الجميلة المترددة فى جنبات المكان ولكنى كنت فى أغلب الأحايين مشغولة بنفسى . وقام الواعظ يلقى موعظته ، وكانت حول التسامح ، وكان يستشهد بآيات من الإنجيل ، وما إن قال : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » حتى انفجر مرجل غضبى وعادت إلى ذهنى صور أيامى الأولى وأنا أهيم بين الخرائب والأنقاض نابضة بالقسوة . رأيت الفتيات الألمانيات عاريات وجنود الحلفاء يسلطن عليهن خراطيم الماء فى الشتاء ، وضحكهم يجلجل حتى يكاد يبلغ السماء . ورأيت أحدهم يتعمد أن يلقى على بعد خطوات

منا فتات موائدهم وكنا نتضور جوعا ، فلم يحز فى نفوسنا أنه يعاملنا معاملة الكلاب ، وهرعنا نلتقط الفتات ، وإذا بسيارة تقبل وتمر على بقايا الطعام قبل أن تمتد إليه أيدينا فتتعالى الضحكات . كان أعداؤنا يلهون بالإمعان فى تعذيبنا . كم رأيت الشبان يساقون إلى الموت زمرا لأوهى الأسباب .

كانوا قساة غلاظ الأكباد أذاقونا صنوف العذاب والاضطهاد ، فبأى عقل يطلب منا أن نعفو عنهم ونتجاوز عن سيئاتهم وقلوبنا زاخرة بالقيح والصديد ؟ رأيت الذكريات السود تتزاحم فى رأسى وأجداث الألمـان ودماؤهم وأشلاؤهم تتراءى لعينى ، وجراحهم وأنينهم وتأوهاتهم وحشرجتهم تصك أذنى وتمزق أعصابى ، ويفح فى صوت أجش بغيض يردد « هيهات أن نصفح . . هيهات أن نصفح » . . وران على عينى وعلى قلبى وعلى ذهنى ظلام دامس ثقيل ، وفجأة أحسست كأن فيضاً من النور أنار رأسى ، ورأيت نفسى أفكر فى هدوء كما تفكر أنت ، خيل إلى أنى أستمرت منك سلامة المنطق وحسن الإدراك . .

انجلت أمام عينى حقيقة ناصعة ساطعة . . فإن كان جنود الحلفاء عذبونا وأذاقونا ذل الاضطهاد ، فجنودنا قسوا على الروس ولم يرحموا شعوب أوربا وداسوا كرامة المغلوبين بالنعال . . إنها الحرب . . إنها كما قلت اللحظات الهابطة فى حياة البشرية .

ما الذى سنجنيه من المرارة التى نختزنها فى أنفسنا ؟ لا شىء إلا أن نترك أفئدتنا للحقد الأسود ينهشها ويضرم فى جوانحنا نيران العذاب .

وهل تجنى البشرية من صيحات الثأر إلا الدمار ؟ .

لابد أن نصفح وأن يصفحوا . . أن نعفو وأن يعفوا . . أن ننسى ما كان منهم من إساءات وأن ينسوا ما كان منا من إساءات ؛ لنعيش فى وئام وسلام . فلن يعرف الناس طعم الطمأنينة مادامت مرارة الضغينة تلسع ألسنتهم وتتدفق من قلوبهم .

أحس فى هذه اللحظة أنى أخف وزنا وأن الجبال التى كانت تجثم على صدرى قد تناثرت وذهبت بددا .

وصمتت قليلا ثم قالت فى حماسة :

— طوبى للمتسامحين . . طوبى لرسل السلام !

فقال فى فرح :

— مرحى . . مرحى . .

— أنا سعيدة . . سعيدة لأنى وجدت نفسى . . كنت ضالة فى أعماق الحقد . . أعمت قلبى البغضاء . . وإذا بالمحبة تنير بصيرتى . ألا ليت دعاة الحروب يهتدون إلى الحقيقة ! ولكن هيهات ! فقد أضلتهم الأمجاد الزائفة .

— أمجاد الحروب مهما عظمت حقيرة ، يحط من شأنها ما تخلفه من ثكلى ويتامى وأرامل ومن جراح فى قلوب الناس . .

— الويل لى . . كنت أحلم أحيانا بحرب أخرى نذيق فيها أعداءنا ذل الاندحار . أنا أحس الآن خجلا لأن مثل هذه الأحلام البغيضة طافت بخيالى . .

— هذا إحساس طبيعى . .إننا لانستشعر الخجل من بعض تصرفاتنا

إلا بعد أن تنير المعرفة أفئدتنا . وقد كان آدم وحواء أول من أحس هذا الإحساس .

— كيف ؟

— لما أكلا من شجرة المعرفة فطنا إلى أنهما عريانان ، فاعتراهما الخجل وطفقا يخصفان عليهما من ورق الشجر . .

— قرأت ذلك فى التوراة ، ولكن ما هى شجرة معرفة الخير والشر ؟

— فى اعتقادى أن هذه الشجرة رمز لفعل . .

— وما هو هذا الفعل ؟

— الفعل الذى ثمرته إنجاب الذرية .

ونظرت إليه مليا ثم قالت :

— أنا أغبطك على قدرتك على عدم جرح شعور الناس .

فرمقها فى دهشة وقال :

— ماذا تريدين أن تقولى ؟

وكتم الاستفسارات الكثيرة التى قامت فى نفسه ، كان السؤال الذى ولد على طرف لسانه « ما علاقة هذا الكلام بما نخوض فيه ؟ » ، فلم يفطن إلى أن هناك رابطة بين الحوار الدائر بينهما وبين غبطتها له على قدرته على عدم جرح شعور الناس ، ولكنه وأد السؤال وأخمد أنفاس أسئلة كثيرة هاجت فى ضميره ، وأرضاه ذلك التقريظ حتى وإن لم يكن له مكان فى الحديث ، وإن برره لنفسه بأن كثيرا ما ينتقل المتكلمون من موضوع

إلى موضوع دون تسلسل منطق ، ودون أن يربط بين الموضوعين أى خيط رفيع ، فكثيرا ما يسدلون الستار على موضوع ثم يرفعونه عن موضوع جديد .

قالت :

— كنت تستطيع ليلة ثرت على الحلفاء ووصفتهم بأنهم وحوش وضوارى أن تذكرنى بما فعلناه فى معسكرات الاعتقال ، بالأفران التى قضت على ملايين البشر وبالأعمال البربرية التى اقترفناها ، فلو أنك سقت هذه الحجج لأفحمتنى وألقمتنى حجرا . لماذا لم تفعل ؟

— لأن غايتى لم تكن أن أفحمك أو أن أنتصر عليك فى مناقشة . كنت أرجو أن تهتدى إلى الحقيقة وأنت راضية مختارة ، فلو أننى حاولت أن أدفعك إليها دفعا للجججت فى العناد وأظلم التعصب الأعمى بصيرتك .

— بل أنت مرهف الحس رقيق لا تحب أن تخدش شعور الناس . هذا جميل وإن كنت واثقة أن كثيرا من الناس لن يفطنوا له ، فأنا لم أهتد لذلك إلا بعد تفكير .

— وماذا يهم إن فطن الناس له أو لم يفطنوا ؟ العبرة بالرضا الذى ينزل على قلوبنا السكينة أو القلق الذى تضيق به صدورنا . فمشاعرنا هى التى تعيش معنا ، أما الناس فلا نكاد نحس وجودهم إذا غابوا عن عيوننا ، وإذا فكرنا فيهم انقلبوا إلى رموز تحرك المشاعر وتبعث الانفعالات .

وكانا قد وصلا إلى حديقة الحيوان ، فإذا بآنى تسرع وتدفع ثمن تذكرتين ، فيلحق بها على ويقول لها :

— قلت لك أكثر من مرة إن هذا يعتبر إهانة فى بلادنا ، يجرح كبرياء الرجل .

فقالت وهى تبتسم :

— أنت ضيفى اليوم . دع تقاليد بلادك وافخــر بأنك أول رجل أنفق عليه .

وعلى الرغم من يقينه أنها تداعبه فإن الدماء الحارة تدفقت فى وجهه ، إن مجرد فكرة أن امرأة تنفق عليه أثارته ، وفطنت إلى تورده وإلى الانفعالات التى ارتسمت على سحنته فقالت له :

— ما الذى أثارك ؟

— لا شىء .

فقالت فى صدق :

— ليتك تفتح لى نفسك كما أفتح لك نفسى ، إنك تغيرت . هل ضايقك حقا أنى دفعت ثمن التذكرتين وعرضت عليك أن تكون ضيفى اليوم ؟

فقال وهو يحاول أن يبتسم :

— هناك رواسب فى النفوس لا يمكننا أن نتخلص منها حتى لو اقتنعت عقولنا بتفاهتها عقلى لا يجد فى أن أكون ضيفك اليوم أية غضاضة ، أما جوارحى فقد استشعرت مهانة .

— أتدرى لماذا ؟

— لعل مرد ذلك إلى أن من مقومات رجولة الرجل عندنا أن ينفق على الأنثى .

فقالت وهى تضحك :

ــ نصف رجال أوربا على هذا القياس لم يستكملوا رجولتهم ، لأن نساء ينفقن عليهم .

فقال فى حماسة :

ــ لو خيرت لاخترت أن أكون فى النصف الآخر ، جميل أن تعطى ، أن تجود .

فقالت وهى ساهمة :

ــ جميل أن تعطى وأجمل منه أن تجد من يقدر عطاءك .

وصمتت ، كانت فى أعماقها تحس معانى أعمق مما نطقت به ، كانت على يقين أنه أعطاها أكثر مما يظن وأنها تقدر ما أعطاها حق قدره . فقد نجح فى أن يثير جوانب من كهوف ذاتها ، وأن يجلو الضباب عن بصيرتها ، وهى سعيدة بما جاد به عليها وتعتبره درة فى حياتها .

وراحا يجوسان خلال الحديقة المنسقة فى إبداع ، والوقت يمر دون أن يحسا مروره ، فسويعات لقائهما كانت قمة الانشراح فى حياتهما .

ووقفا عند حانوت يبيع نماذج صغيرة دقيقة لجميع ما فى الحديقة من حيوان وتماثيل بحارة مختلفة الأحجام ، ومراكب شراعية جميلة يتراوح طولها بين عدة بوصات وبضعة أقدام . واختار على نماذج لأسود ونمور وفيلة كما اختار مركبا واحدة ، وانهمكت آنى فى اختيار ما يجذب بصرها ، وكم كانت دهشتهما عندما وجدا أن ما اختاره أحدهما هو نفس ما اختاره الآخر ؛ فقالت آنى مداعبة :

— لو كنا تزوجنا لاجتمع شطرا الفولة وتطابقا .

ثم قالت فى مرح :

— جميل أن أتصور أننا ، أنا وأنت ، كنا فى الأصل فولة واحدة ، ثم انفلقتا فلقتين ألقيت واحدة هنا فى هامبورج وألقيت الثانية هناك فى بلادك الجميلة .

وأربكه قولها فما خطر على باله أن تتكلم عن الرباط المقدس بمثل هذه البساطة . وزاد فى ارتباكه مشاعر الإنكار والغضب التى ثارت فيه لفكرة أن يتخذ مثلها زوجة له ، فتشاغل بتقليب التماثيل والنماذج حتى لا تفطن إلى الارتباك الذى اعتراه . وانقشعت سحابة الاضطراب التى مرت به ورد إلى طبعه ، فراح يفكر فى هدوء ويتساءل : هل هناك فرق بين امرأة وأخرى ؟ هل تولد امرأة طاهرة وامرأة غارقة فى الدنس؟ هل لو فرضت نفس الظروف القاسية التى عاشت فيها آنى على زوجه ، أكان يختلف مصيرها عن مصير آنى وأترابها ؟

وأفزعه أن يتصور زوجه تدور مثل آنى على الرجال ، وأحنقه أن تطوف برأسه مثل هذه الصور البشعة فكادت تفلت من بين شفتيه أنة مريرة ولكنه نجح فى كتمها ، وعزم على أن يفر من الأفكار القاسية التى راحت تنتشر فى ذهنه فعاد إلى آنى وهو يحمل نموذجا لكنغر وقال :

— أرأيت هذا ؟

— رائع ! أين وجدته ؟

— هناك .

— آتنى بمثله .

واستأنفا تجوالهما حتى بلغا المطعم وكانت الساعة الواحـدة والنصف ظهرا فدلفا إليه ، وقادته إلى مائدة تطل على الحديقة حيث جلسا صامتين .

وشردت آنى ولاح فى وجهها سهوم ، وترقرق فى قسماتها وجد ، وانبعث من عينيها مشاعر حالمة ، حتى إن عليا جعل ينظر إليها وهو مأخوذ فما كان يتصور أن تشع منها هذه الرقة ، وكأنما خشى أن يفزعها فقال لها فى صوت هامس :

— فيم تحلمين ؟

فنظرت إليه وفى مقلتيها بريق مسحور وقالت :

— سألتنى يوما هل عرفت الحب ؟ نعم عرفته ودقت حلاوته وخفق به قلبى ، وشاركت هذه المائدة فيه فقد جلست إليها أنا وكارل وكنت وقتئذ غارقة فى الحب لأذنى ، وتشابكت فوقها أيدينا ، ولاذت ألسنتنا بالصمت وإن كانت جوارحنا تخاطبت بأعذب حديث .

كان لقاؤنا مصادفة : كنت داخلة محلا تجاريا فى عجلة فارتطمت به . فنظر إلى ونظرت إليه وقلت : « آسفة ! » ثم سرت فى طريق دون أن أحفل بما حدث ، فكثيرا ما يرتطم اثنان ويعتذر أحدهما للآخر ويأخذ كل منهما وجهته ، ويمر ذلك الحادث الطارئ كما تمر أغلب الأشياء العارضة فى حياتنا .

وأخذت أجول فى المحل ، وبعد أن اشتريت حوائجى خطوت إلى الوراء خطوة لأدور على عقبى فإذا بى أرتطم بإنسان ، فالتفت لأعتذر له

فإذا بى أجده هو بعينه ، فابتسمت وقلت له : « آسفة مرة أخرى ! » فقال وهو يبتسم: «أرى أن نسير معا حتى نخرج من هنا لئلا نعاود الاصطدام . » وسار إلى جانبى يحادثنى . . كان دمث الخلق بسيطا ، فلم يمر على لقائنا لحظات حتى فتح لى نفسه وأقبلت عليه مغتبطة ، وقبل أن نغادر المحل كنا قد تواعدنا على اللقاء .

وتقابلنا وتحدثنا ، وسألنى عن عملى فقلت دون أن أضطرب أو يطرف لى جفن أو يزوغ بصر : « أتدرب على الغناء . . أحلم أن أكون فى يوم من الأيام مغنية كبيرة . » كذبت أول كذبة ، ولكى ينساق الحديث مع هذه الكذبة تماديت فى الأكاذيب ، فبنيت العلاقة بينى وبينه على أكذوبة .

ترادفت بيننا المقابلات فتعلقت به وخفق قلبى بحبه ، وزرته فى بيته كثيرا ولكنى كنت أنصرف قبل بدء العمل فى الكازينو بحجة أنى لا أستطيع أن أبقى خارج بيتى بعد العاشرة .

وفى ذات ليلة فاضت سعادتنا حتى إنه التمس منى أن أبيت عنده . كنت أشتهى ذلك فقلبى يحرضنى دائماً على أن أمكث معه وألا أغادره . كان قربه منى يخدر كل حواسى ويجعلنى أهيم فى دنيا هفهافة كلها رقة ولطف وأحلام ، ولكن كان لابد أن أنطلق إلى الكازينو فقلت له : « وعدت أستاذى ألا أجهد نفسى وأن أنام فى العاشرة تماما ، وأحب أن أحافظ على وعدى . » فقال فى توسل : « اعصى أوامره مرة واحدة من أجلى . » وكدت أضعف وأمكث معه وليذهب الكازينو وكل من فيه

إلى الجحيم ، ولكنى قاومت التخاذل الذى بدأ ينتشر فى ضميرى وقلت له : « ألا يكفى أنى عصيت أوامره وأفرطت فى الشراب معك ؟ » وانصرفت .

وفى ذات ليلة كنا فى الأوتوبيس معا ، وصعدت فتاة جميلة فأسرعت دون تفكير أرقب عينيه ، فرأيته يختلس النظر إليها فلسعتنى نار الغيرة وانقبض صدرى وساورتنى أفكار بغيضة ، تمنيت لو أستطيع أن أوذيه فى شعوره كما آذانى ، ولكن هذه الأفكار المقيتة التى سولتها لى نفسى انقشعت لما مددت يدى فأمسكت بها يده والتقت عيناى بعينيه ، فقد قرأت فيهما ما يكنه لى من حب عميق .

وكان كلما التقينا يسألنى عن دروسى فى الموسيقى والغناء ، فكنت أحدثه عن البروفات التى كنا نقوم بها فى الكازينو ، وكنت أدخل تحويرا بسيطا على الحديث فأستعمل كلمة « المعهد » بدلا من « كازينو دى بارى » .

وكنت فى بعض الأحيان أغنى له بعضا من أغنيات الكازينو الراقصة ، فكان يمط شفتيه فى استياء ويقول : « ليتك تغنين شيئا أعمق من هذا . » فأقول له : « سأفعل ولا شك . ما هذه الأغانى إلا تمرين لصوتى . » وقال لى يوما : « متى أستطيع أن أذهب معك إلى المعهد وأسعد بمشاهدتك أثناء تدريبك ؟ » فقلت له : « هذا ممنوع ، ستراني فى المعهد يوم تخرجى . . . »

وكان يضايقنى أنى تماديت فى كذبى معه ، لماذا لم أقل له الحقيقة منذ أول يوم تقابلنا فيه ؟ أكان ذلك يغير من الأمر شيئا ؟ ! لست أدرى . كل ما أعرفه أنى تورطت فى الكذب وقطعت فيه أشواطا ، وفكرت

أكثر من مرة أن أعترف له وأن أقول له إنى كذبت عليه ، وأنى لست مغنية ولا أتلقى دروسا فى الغناء ، وأنى أعمل فى كازينو حيث أعرض جسدى على الناس ، ولكنى كنت أحجم خشية أن أقوض السعادة التى كنا غارقين فيها .

كان كارل هو حبى وقد شغف به قلبى ، وأصبح كل أملى أن يدوم هذا الحب الذى ملك على حواسى ، وكانت فكرة أنه قد يأتى يوم يفترق عنى فيه كارل تفزعنى ، فقد أصبحت أعتقد أنى لا أستطيع أن أعيش وهو بعيد عنى

ولم يشرئب عنق طمعى إلى أكثر مما أنا فيه ، وذات ليلة بينما كنت جالسة بجانبه إذ أمسكنى من ذراعى فى حنان ، ونظر إلى بعينين حالمتين وقال : « آنى لا بد أن نتزوج . » وخفق قلبى بشدة وسرت فى بدنى قشعريرة وأحسست أنى سأنهار ، فما دار ذلك فى خلدى ألبتة .

« أنت كنز يا آنى . . » وفى غمرة سرورى نسيت كل شىء إلا أننى سأتزوج من خفق قلبى بحبه . .

وأصبح الوجود كله أنا وكارل ، قال لى وهو يسرح ببصره حالما : « سيكون لنا أربعة أبناء . » فقلت مغتبطة : « سأهب لك ما تشاء من بنين وبنات . » وتحدثنا كثيراً حديثاً رقيقاً عذبا ، واشتعلت فى أنفسنا شعلات الأمانى والآمال فإذا مستقبلنا غارق فى النور . وخرجنا نحتفل بأسعد مناسبة فى حياة الإنسان . . وملأتنى النشوة حتى إنى نسيت نفسى ولم أعد أذكر إلا أنى إلى جوار كارل . . ولم أذهب فى تلك الليلة إلى الكازينو . .

ولم يخطر لى الكازينو على بال . .

وعدت إلى دارى فى الصباح ، فلما صرت وحدى ولا أحد معى إلا نفسى إذا البلابل التى تشدو فى أرجائى تصمت ، وإذا الأطيار التى تغرد بين جنباتى ، وموسيقا الحياة التى تصدح فى وجدانى ، والمهرجان الزاخر بالصخب والانشراح فى ضميرى ، وأرصدة السعادة التى تضخمت فى مهجتى تتلاشى وتجود بآخر أنفاسها .

ورحت أفكر فى أمرى فإذا الخوف يتدسس إلى أعماق كيانى ، وعجبت من نفسى كيف قبلت فى بساطة أن أكون زوجة له قبل أن أهتك حجاب الرياء عن وجهى ؟ قبل أن أقول له من أنا ، من هى آنى كنزه الغالى ؟ ولم أخجل من مهنتى فى يوم من الأيام كما خجلت منها فى ذلك الصباح . .

ما أكثر الرجال الذين يغضون الطرف عن الماضى ويسدلون عليه ستاراً ليبدءوا حياة جديدة مع من شغفوا بهن حبا ، ولكنى فطنت من معاشرتى لكارل أنه ليس من هؤلاء الرجال . .

وملأت كل وجودى رهبة طاغية وصرت كعصفور يرتعد من البلل ، وأشفقت على نفسى من ازورار كارل عنى وفراره منى إذا ما رفعت الغطاء عن ماضى ، وسولت لى نفسى أن أمسى ملكى وأن له الغد ، وكاد ضعفى يقنعنى بهذا الرأى ، ولكن حبى إياه أبى أن أخدعه وصاح بى يقول : إن كان لابد أن أفقده لأنه لايغفر لى ماضى ، فخير لنا أن نفترق قبل الزواج من أن تنشب بيننا العداوة بعده ، إذا قدر له أن يضع أصابعه على أنبائى . .

وقررت أن أخبره بكل ماضى . . بدقائقه وتفصيلاته . . ثم أترك له أن يتخذ ما يشاء من قرار . .

قال على فى استغراب :

— قررت أن تقصى عليه حتى قصتك مع ماكس ؟ . .

وأنكر السؤال بعد أن ألقاه عليها . فهل يختلف ما كان بينها وبين ماكس فى جوهره عما كان بينها وبين كل الرجال الذين اعتصروا جسدها ؟ فما بال ماكس يقفز إلى ذهنه كلما ذكرت ماضيها ؟ أحقا مات يخشى أن يكون نصيبه الاشمئزاز والاحتقار . . وكل الإحساسات المقيتة التى أحستها قبل ماكس ؟

فقالت فى مرارة :

— كان حبى لكارل قبل أن أقابل ماكس بسنة ، ولو حدث أن عرض على كارل الزواج بعد ما كان بينى وبين ماكس لما فكرت فى أن أخفى عنه شيئا .

وشعرت براحة بعد أن استقر رأيى على أن أكشف له عن حقيقتى وأن أعتذر له عن خداعى ، فقد كنت أحسب أنه سيسأم معاشرتى قبل أن ينكشف له أمرى ، ولم يدر بخلدى أن يصل الأمر بيننا إلى حد الزواج . .

ولم أذهب إلى مقابلته فى المساء لأنى أمضيت الليلة السابقة معه حتى الصباح نحتفل بالقرار الذى اتخذناه ، ولأنى كنت أريد أن أمهد لقطع صلتى بالكازينو حتى إذا ما انتهيت من قص قصة حياتى عليه قلت له

إنى على استعداد لقطع كل ما يربطنى بذلك الماضى ، الذى قررت عن طواعية أن أقبره وأن أهيل عليه التراب . .

لم أكن أعرف أن الحب شىء رائع عظيم قبل أن يتعلق قلبى بكارل ، فما إن عرض على الزواج حتى هرعت منشرحة النفس ألبى النداء . . ونسيت فى لحظة كل فلسفتى التى اعتنقتها بعد تدبير وإمعان ، ومحوت كل خطط حياتى التى عزمت على ألا أحيد عنها قيد أنملة . . بنيت فلسفتى على ألا أخجل من مهنتى . . فلا فرق بينى وبين الفتيات اللاتى يعملن فى المكاتب والمصانع والمحال ويقدمن أنفسهن للرؤساء أو الزملاء أو الأصدقاء إلا أننى أجعل للمتعة التى أقدمها ثمنا لا بد أن أتقاضاه ، فإذا بالخجل من كل حياتى يعترينى لما أمسك بذراعى ونظر إلى فى حنان . وكنت قد خططت حياتى على ألا أسهم فى تقديم مزيد من الأشقياء إلى هذا العالم الشرير ، فإذا بى أحن إلى الخلف لما قال لى : « سيكون لنا أربعة أبناء . » وكنت أصررت على ألا يثنينى شىء عن جمع المال ، فإذا الفرح يملأ جوانبي لأنى سأعيش حياتى فى كنف كاتب حسابات . .

وفى المساء ذهبت إلى الكازينو كعادتى وقابلنى المدير وهو غاضب عابس فأرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، وأنا هادئة لا أنفعل ولا أثور ولا أفكر حتى فى الاعتذار ، وهممت أن أقول له إنى لن أعمل ابتداء من هذه الليلة ولكنى آثرت أن أتريث حتى ينتهى العرض ، ويا ليتنى ثرت وغضبت وعدت إلى البيت إذ لو فعلت لما وقعت أفجع مأساة فى حياتى المليئة بالأشجان . .

وعزفت الموسيقى ورفع الستار وأنا واقفة على خشبة المسرح أرتدى ثوبا أسود وجوربا أسود وقفازا أسود وفى يدى مروحة كبيرة من ريش النعام ، فألقيت بالمروحة بعيدا ، وخلعت القفاز على أنغام الموسيقى فى دلال ، وبدأت أخلع الجورب فى بطء شديد وأنا أتعمد أن أعرض جمال ساقى ، وأخذت أخلع ثوبى على دقات الطبلة المثيرة ، ووقفت برهة وأنا بقميص النوم الأسود ، ثم خلعت القميص فى إغراء ، ومددت يدى ورفعت الستيان عن صدرى فقفز نهداى فى حرية ، وقبل أن أتخلص من آخر قطعة تسترنى التقت عيناى مصادفة بعينى كارل ، كان واقفا والشرر يتطاير من عينيه وقد ملأهما غيظ وغضب واحتقار ، وكدت أصعق وارتبكت وزاغ بصرى ، وبحركة لا شعورية خلعت آخر ما كان على وأنا أكاد أنهار . . وأسدل الستار والناس تصفق ، وأنا أبكى من الغيظ وأذوب من الخجل ، فما أحسست قبل هذه الليلة بطعم العار . .

ما الذى جاء به إلى الكازينو فى هذه الليلة المشئومة ؟ لا أعرف حتى الآن . لعله جاء مع أصدقائه يحتفى بقرار الزواج . . ووجد أنه قد يخدش حيائى أن يدعونى إلى هذا الاحتفال فى ريبربان . . فى بؤرة من بؤر الفساد . .

وارتديت ثيابى على عجل وهبطت إلى الصالة أنقب عنه . . فلم أجد له أثرا . . وخرجت إلى الطريق أتلفت وأنا أكاد أنفجر من الغيظ فلم أعثر عليه . . كان قد اختفى . .

وذهبت إلى بيته وطرقت الباب فى شدة . . وأنا أكاد أجن . .

وظل الباب موصدا . وقال لى من خلف الباب فى غضب . . :

— اغربى عن وجهى ، لا أريد أن أدنس نظرى برؤيتك .

أخذت أستعطفه وأتوسل إليه ، وخنقتنى عبرتى وبكيت . ولما يئست من أن يستجيب لى انصرفت وأنا أكاد أموت من الحزن . .

وبعثت إليه برسالة قصصت فيها كل شيء ، وانتظرت ومرت الأيام ولم أتلق منه كلمة . . ولم أستطع أن أخدع نفسى طويلا ، وأصبح من العسير على أن أختفى خلف إصبعى . تيقنت أن كل ما كان بيننا قد انتهى فعقدت العزم أن أغلق نفسى على قلبى المجروح .

وعلى الرغم من انقضاء أكثر من سنتين على تلك الليلة المشئومة . . فإنى لا أنسى أبدا نظرته الهائلة التى رمانى بها وكانت زاخرة بالاحتقار المهين . . إنى حتى هذه اللحظة إذا تذكرتها أرتجف وأحس هوانا وتضاؤلا . .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— إن أبشع ما يسدد إلى إنسان نظرة احتقار . .

والتفتت إليه وعيونها تطرف فى قلق وقالت :

— ألم تحتقرنى فى تلك الليلة التى رأيتنى فيها عارية ؟

فقال فى إخلاص :

— حاشاى أن أحتقر إنسانا فيه نفخة من روح الله . .

٦

دخلت آنى محل كارلشتادت لتشترى هدية لعلى قبل إن يعود إلى بلاده . فلم يبق بينه وبين السفر إلا أسبوع واحد . . فكرت قبل أن تجىء أن تكون الهدية لزوجه ، ولكن سرعان ما استبعدت هذه الفكرة وقررت أن تكون الهدية له لتذكره بها . .

وراحت تسأل نفسها : ما الذى يعود عليها من أن يذكرها ؟ وماذا يضيرها لو أنه نسيها ولم تخطر له على بال . . بعد أن يلتقى بزوجته وأولاده ؟ . . لم تحفل بأن يذكرها أحد من الرجال الذين مروا بها مرور الأيام ، فما بالها تحلم بأن يذكرها على وتتعلق بوهم من الأوهام ؟ ؟

إنها لن تنساه . . لن تنسى العلاقة الفريدة التى قامت بينه وبينها . . ستظل كالثوب النظيف الناصع البياض بين أكداس الأدران . . . وياليته يذكرها . . ويذكر الساعات الموحية التى قضاها معها ، فهى تتمنى ذلك من أعماقها على الرغم من أنها لن تستشعر شيئا لو أنه أغرق نفسه فى التفكير فيها ، وأذهلها أنها أصبحت ترجو أشياء لا تحسها بحواسها . .

وطاف بذهنها قوله : « ما أعجب الروح ! . تتصل بمن تحب فى مثل لمح البصر . . وإن كان بينهما آلاف الأميال . » فكرت فى ذلك وقالت لنفسها : « إننا نجحنا فى أن نبعث إشارات ضوئية وإشارات صوتية وصورا

ورموزا وكتابات عبر المحيطات والقارات . . ألا يكون فى الإنسان محاط إرسال واستقبال ؟ ألا تكون هذه المحاط هى الروح . . أو أن الروح هى التى تمدها بالحساسية والفاعلية والتمييز ؟ » .

قال لها فى معرض السخرية يوما : « الروح بطارية الحياة . » . . وعلى الرغم من المرارة التى كانت تقطر من سخريته فإنه قرب إلى ذهنها الذى ما كان يعيز إلا المحسوسات . . إمكان وجود قوة أخرى فى الإنسان غير الجسد والدم الذى يجرى فى العروق والشرايين وإفرازات الغدد والطاقات » . .

ومرت فى طريقها إلى السلالم الصاعدة بالكهربا إلى الطبقات العليا بنفس المكان الذى ارتطمت فيه بما كس ، وفى طرفة عين طاف بذهنها كل ما كان ، وإذا بها تعقد مقارنات بينه وبين على . إنها اشتهت ما كس أول ما وقع بصرها عليه ، وما أثارت رؤيتها لعلى أى اهتمام فيها . وكرهت ما كس واحتقرته بعد أن عاشرها ولمست فيه ما يقزز النفس ، وترى أكانت تحتقر عليا نفس الاحتقار لو أنه اتصل بها كما اتصل بها ما كس ؟

ولم تعجبها هذه المقارنة ، فما كس طراز من الناس ، وعلى طراز آخر ، وهل من المقبول أن نقارن بين موز وتفاح ؟ موز وتفاح ؟ لا . . لا . . بين حنظل وشهد . . حنظل وشهد . ؟ لا . لا . . حنظل أجل أما الشهد فلم أذقه . . لا أعرف كنهه . لا أدرى إن كان شهدا حقا أو شيئا آخر . . خداعا يوحى بأنه شهد . كيف أنكر أنى ذقته ؟ إن كان جسدى لم يذقه . . ففى شىء آخر ذاقه واستراح إلى مذاقه .

وأعجب به . . ما هـذا الشيء الآخر ؟ لا أعرف كيف أحدده . إنه شيء ينشرح لأشياء لا يمكن تجسيمها . . مثل ماذا ؟ مثل المشاعر والأحاسيس التى تمتلئ بها إذا قرأنا كتابا يلقننا أشياء سامية بعيدة عن المشاعر الغليظة . . أيكون ذلك الشيء ما يعبر عنـه بالروح ؟ لست أدرى . .

أشياء سامية بعيدة عن مشاعرنا الغليظة ؟ . . الروح ؟ . . الـكتاب المقدس ؟ . . ماذا دهاك يا آنى ؟ لو أن شيئا من هذا طاف بذهنك منذ شهر مضى قبل أن تلتقى بعلى لأمتلأ فمك ضحـكا . . فما الذى جرى حتى أصبحت هذه المعانى لا تثير سخريتك ؟ . . تغيرت يا آنى . . أثر فيك مهندس قادم من بلاد بعيدة . . ما إن قضى معك بضعة أسابيع حتى فتح عينيك على عوالم جديدة زاخرة بغموض لذيذ تهفو إليه النفوس وترتاح إليه الأفئدة المثقلة بالهموم والغواية . .

وارتفعت بها السلالم إلى الطبقة الثالثة . . إلى طبقة كل ما فيها يخص الأطفال : من لعب ودمى وملابس . . وجدت نفسها دون تفـكير تسير فى ممراتها وهى تتلفت . . رأت دراجات صغيرة وكرات مختلفة الأحجام والألوان ولعبا كثيرة متباينة لا يكاد يحصيها البصر . . جنوداً وآلات موسيقية وطيوراً وحيوانات وتماثيل صغيرة ونماذج لشخصيات خرافية ، وأطواقا وبالونات وقوارب صغيرة من مطاط وجرادل زاهية الألوان . . أشياء كثيرة حركت مشاعر الحنان فى قلبها . .

وهمس فى جوفها هامس : لو اشتريت يا آنى الهدايا لأبناء على لأرضاه

ذلك أكثر مما لو كانت الهدية له هو نفسه ، فالأب يفــرح بما يسعد أبناءه .

فقررت أن تشترى هدايا لابن على وابنته . .

حدثها على عنهما مرة واحدة ، ورأت صورتهما مرة واحدة ،ومع ذلك فهى تذكر كل شىء عنهما ، وترى الصورة بعين خيالها فى وضوح قد يفوق ذلك الوضوح الذى تراه بعينى رأسها . لـكأنها حفرت الصورة فى نفسها . .

وتقدمت من الفتاة الواقفة عند فرع ملابس الأولاد وقالت لها :

— أريد بدلة لطفل فى الخامسة ، وفستانا لطفلة فى الثالثة .

وقبل أن تتحرك الفتاة قالت لها :

— أريدأشياء فاخرة ، وأن يكون لون الفستان مناسبا لطفلة سمراء جميلة .

وابتسمت الفتاة فى أدب . . وإن لاح فى عينيها تساؤل واندهاش كأنما كانت تستفسر : أنى لهذه السيدة الشقراء الطفلة السمراء الجميلة ؟

وذهبت الفتاة تنتقى من صفوف البدل والفساتين ما تعتقد أنه يرضى السيدة الحسناء ، التى رأت فى ثيابها وفى كل ما تتزين به آثار النعمة والثراء . وراحت آنى تتلفت ، فما تقع عيناها على الأشياء التى تذكر بالطفولة حتى تغمرها سعادة ، وتتحرك فيها مشاعر نبيلة ، ويتدفق فى جنباتها حنان ناعم رقيق يدق على أوتار قلبها أعذب نشيد . .

وعادت الفتاة تحمل بين يديها مجموعة فريدة من البدل وضعتها أمام آنى ثم انصرفت لتجىء بالفساتين ، وانهمكت آنى فى معاينة البدل وتقليبها وإذا بصوت كارل يرن فى أعماقها يقول فى أمل وانشراح :

« سيكون لنا يا آنى أربعة أبناء » . فتطوف بها موجة من الأسى ما تلبث أن تنحسر أمام تيار الحنان الذى راح يتدفق فى حناياها . وراحت تلمس البدل بأناملها بنفس الرقة التى كانت تلمس بها شعر ابنها لو أن لها ولدا ، ورفعت بدلة وضمتها إلى صدرها كأنما تحوى عزيزا بين ذراعيها ، وهمت بأن تلثمها ولو طاوعت نفسها لأمطرتها بقبلاتها ، ولكنها لمحت الفتاة قادمة فأشاحت بوجهها عنها لتمسح بطرف إصبعها دمعة ولدت فى عينيها

وضعت الفتاة الفساتين أمام آنى وهى تقول :

— أية خدمة أخرى يا سيدتى ؟

— شكرا

وراحت آنى تنتقى ما تشاء من البدل والفساتين ، فسألتها الفتاة :

— كم ابنا لك يا سيدتى ؟

فقالت آنى دون تفكير :

— أربعة

وما أسرع ما سرت فيها قشعريرة خفيفة جعلتها تفيق من شرودها وتفكر فى ذلك الذى نطقت به ، لماذا سبق لسانها عقلها ؟ لو أنها تدبرت أمرها قبل أن يجرى لسانها بتلك الكذبة لما وجدت لها ما يبررها ، فماذا يعود عليها من أن تعتقد الفتاة أنها متزوجة وأنها أنجبت أربعة أطفال أو أنها لم تتزوج وليس لها ولد ؟ لماذا كذبت ؟أ كانت ترجو أن تكذب على نفسها أم أن لسانها جرى فى غفلة منها بما كانت تتمنى ؟

قالت لها الفتاة وهى تتطلع إليها وفى عينيها حسد :

— لا بد أنك تزوجت وأنت صغيرة . . من يراك لا يصدق أبدا أنك أنجبت أربعة . .

وابتسمت آني ولم تنبس شفتاها بكلمة ، أرادت أن تغلق ذلك الموضوع الذى يحرك أشجانها ويذكرها بكارل وبالآمال الحلوة التى ما كان من حق من اختارت مثل طريقها أن تحلم بها .

واختارت بدلتين وفستانين ، وذهبت تنتقى بعض اللعب والدمى وهى تستشعر ضعفا وحنانا ، وما أكثر ماطاف كارل بذهنها ، وما أكثر ما أثار فيها من مشاعر وهى تصغى إلى أحاديثه التى كانت ترن فى ضميرها .

وسألت نفسها : « لماذا تحس هذا الأسى الموار فى جنباتها ؟ » وأنكرت على نفسها ذلك الإحساس ، وقالت بلسان عقلها : ليس من حقى أن أحزن على فراق كارل ولا على أبنائه الأربعة الذين وعدنى بهم ، فقد اخترت طريقى بنفسى ، وليس من حق من تختار ذلك الطريق أن تطمع فى رجل بعينه أو يطوف الزواج بذهنها ، إنها قبلت طائعة أن تكون جسدا ، فإن خفـــق قلبها بما لا ينبغى أن يخفق به فقد تنكرت لفلسفتها . وراحت تسأل نفسها : « ترى كم من الرجال يقبلون أن يتزوجوا فتاة مثلها وهم يعلمون دقائق حياتها ؟ » ولم تحاول أن تجيب عن الأسئلة الكثيرة التى قامت فى رأسها . « ما الذى حرك مشاعر الضعف الزاخرة فى وجدانى ؟ لماذا تلح على أفكار الزواج ؟ لماذا أتشبث بكل ما قاله كارل بعد أن وثقت من أنه سراب ؟ لماذا أحن كل هذا الحنين إلى الأولاد ؟ أحرك أبناء على أموىق ؟ إننى لم أفكر فيهم لما جئت

إلى هنا ، كنت عازمة على شراء هدية لعلى ، فما الذى قادنى إلى الطبقة الثالثة بالذات الخاصة بكل ما له صلة بالأولاد ؟

وفى زحمة الأفكار المتلاطمة فى رأسها طفت على سطح ذهنها صورة الفتاة التى تعمل فى معرض الجواهر بفندق أطلانتيك ، وكان أهم مالفت نظر عقلها ذلك الصفاء العجيب فى عينيها ، وسوانح الرضا فى وجهها وعلى شفتيها . ولم تعجب هذه المرة من احتلال صورة تلك الفتاة صفحة خيالها . أحست فى أعماقها أن بعض الضوء بدأ يتسلط على كوامن نفسها ليميط اللثام عما يدفع صورة فتاة الأطلانتيك إلى ذكرها دون أن تعرف لذلك سببا أو دافعا .

وفجأة ملأ رأسها ضباب ، وامتزجت فيه واختلطت صور كثيرة غير واضحة كانت تستشعرها فى أغوارها وما كانت مجلوة لعين تصوراتها ؛ وانتشرت فى ذهنها صورة حى سان باولى بنوافذه الزجاجية التى تجلس فيها نسوة عرايا يعرضن بضاعتهن على المحرومين الذين تكاد أعصابهم تحترق بالشهوة المسعورة . كانت الصورة باهتة ، وكانت صورة فتاة الأطلانتيك مطبوعة فوقها ، وكانت كل من الصورتين تحاول أن تبتلع الصورة الأخرى ، وإذا بأفكار جديدة تغمرها وتطبق عليها .

وحملت آنى ما اشترته وانصرفت ، والفتاة الواقفة عند البدل والفساتين ترقبها وهى حالمة ، وجاءت إليها زميلة لها وسألتها :

— فيم تحلمين ؟

قالت الفتاة ونظراتها شاردة فى إثر آنى :

— جميل أن يكون الإنسان غنيا وأن يكون له بيت وزوج وأبناء .

فقالت الثانية وهى تتنهد ؟ :

— أمر ما فى الحياة الوحدة والملل والفراغ .

وعادت آنى إلى دارها فوضعت ما معها من هدايا فى غرفة الاستقبال وصعدت إلى مخدعها حيث وقفت أمام المرآة تتطلع إلى وجهها ، فأعجبها حسنها ورفت على فمها ابتسامة رقيقة زاخرة بالرضا ، وإذا بصوت على يقول فى أغوارها : « جمال الجسد يذبل ويذوى ، أما جمال الروح فيزداد رونقا وحسنا إذا غذيناه بالمشاعر الصافية النبيلة ، الجسد يترهل والوجه يتجعد والروح تزكو وتشف . وإذا ما فارقت الروح الجسد فما أسرع ما يدب فيه الفساد ويتعفن ويصبح رمة يفر منه من كان أشد الناس افتتانا به . وإذا ما انتهت رحلة الحياة يعود كل إلى أصله : الجسد إلى التراب والروح تعرج إلى الله .

راحت تبدل ثيابها وهى تفكر فى أمرها : كانت قبل أن تقابل عليا تسير فى زحمة الحياة لا تؤمن إلا بما تحس حواسها ، وما كانت تتلفت أو تقف لتفكر من أين جاءت أو إلى أين هى ذاهبة . إنها تعيش لحظتها بكل وجودها وتعب كأس اللذات كلما سنحت لها الفرصة ولا تحفل بشىء فى هذه الدنيا إلا بنفسها ، فإن كانت بعض الأحداث اعترضت سبيلها فإنها هزتها هزات خفيفة أو عنيفة وما أسرع ما تلاشى أثرها . فمعاشرتها لماكس لم تترك أثرها فى تفكيرها أو تزعزع بعض معتقداتها ، وحبها لكارل فتح فى قلبها نوافذ جديدة تطل على مشاعر جميلة ما كان لها بها عهد

من قبل . مشاعر حركت أمومتها النائمة وجعلتها تهفو إلى البيت والاستقرار . . أيقظت غرائز كانت هاجعة فى ضميرها . فلما فر منها كارل عادت تلك المشاعر إلى رقادها وسارت هى فى طريقها ، أما احتكاكها بعلى فقد خلف آثارا عميقة هيهات أن تمحى حتى وإن اختفى على من حياتها . إنه نجح فى أن يبذر بعض البذور فى نفسها وقد أخذت هذه البذور تنمو على الرغم من محاولات اقتلاعها ،

تسللت بعض أفكاره إلى عقلها ، وتسربت بعض معتقداته إليها كما تتسرب العدوى بالاختلاط أو تغرس المبادىء فى الصدور بالتلقين ومداومة تلقين نفس الشىء فى كل آونة وآن . . فمعتقداتنا ليست بنت أفكارنا إنما هى ثمار أفكار الأجيال التى سبقتنا ، ونتاج تزاوج أفكارنا بأفكار من حولنا .

قالت لنفسها : « حدثنى عن الله وعن الروح وأهدى إلى الكتاب المقدس فنجح فى أن يهز أركان إلحادى وجعلنى أفكر فى كل هذه الأشياء . وياليت الأمر وقف عند حد التفكير بل تعداه إلى أن أشترى بعض الكتب الدينية . »

وألقت نظرها على الكومودينو القريب من سريرها فألفت فوقه إلى جوار الكتاب المقدس بعض الكتب وقصة سالومى وكانت قد انتهت من خلع ثياب الخروج وارتداء روب من الحرير الأبيض فتمددت فى فراشها وتناولت قصة سالومى وراحت تستأنف قراءتها . .

وشغلت بالقراءة مدة عن نفسها ، ولكن سرعان ما أخذت أفكارها

تطفو على صفحة ذهنها كالحبب على سطح الكأس ، وعادت تفكر فى على وفيما خلفه فيها من أثر . .

قال لها ذات يوم : إنه يحب أن يجذبها إلى دائرة النور ، فلو كانت قراءة الكتاب المقدس والذهاب إلى الكنيسة والخجل من بعض التصرفات التى ما كانت تستشعر مهانة إذا مارستها والتفكير فى القوى الخفية المسيطرة على الأكوان ، هى المسالك المؤدية إلى دائرة النور فقد نجح ، صارت تجد متعة فى قراءة أسفار العهد القديم وأناجيل العهد الجديد وأعمال الرسل ، ولم تعد تسخر من ذهابها إلى الكنيسة ، وباتت تفكر فى نفسها وفى وجودها وفى كل ما تمد إليه بصرها فى الأرض أو فى السماء . .

وأصاخت سمعها للهمس الدائر فى أعماقها : « كل الرجال الذين قابلتهم منذ كنت أهيم على وجهى بين الأنقاض إلى أن قابلته لقنونى قشور المعرفة ، وكان كل همهم أن يرضوا الوحش الضارى الكامن فى جسدى . حتى كارل الذى خفق قلبى بحبه لم ينجح فى أن يوسع من مداركى أو يغذى عقلى بنور جديد يبدد الظلام الذى ران على وجدانى ومشاعرى وتفكيرى ، لم يتجاوز أحد منهم سطح جلدى أو سطح مخى ، بينما تغلغل هو فى كيانى حتى النخاع دون أن يضمنى إليه » .

واستراحت لأفكارها ، وراحت تذكر كل ما كان بينه وبينها وهى راضية ، وعادت تسمع صوتها السارى فى أرجائها : « حتى مزاجى نجح فى أن يغيره ، كانت أفلام رعاة البقر وأفلام المغامرات الأمريكية تستهوينى .

كنت أجد لذة فى مشاهدة القتال الدائر بين الأبطال وفى طلقات الرصاص وفى الدماء التى تجرى أنهارا وفى انتصار المهاجرين على هنود أمريكا واستئصال شأفتهم ، وكانت المواقف العنيفة تملؤنى بالنشوة العارمة ، إلى أن ذهبنا ذات مساء معا إلى السينما نشاهد أحد هذه الأفلام وبعد أن انتهى العرض التفت إلى وقال :

— هل أعجبك الفيلم ؟

— رائع . . أدار رأسى كأنما شربت زجاجة شمبانيا . .

— وما الذى أعجبك فيه ؟

— الحركة المتدفقة . . الصراع الجبار بين الشخصيات . . تصوير المعركة . كان المخرج رائعا عندما صور الهنود الحمر وهم يقتربون من الحصن . . والجنود صامتون وقد سددوا بنادقهم إلى صدورهم ، حتى إذا أصبحوا على بعد خطوات منهم فتحت النيران . . فراح الهنود الحمر يتساقطون كأوراق الشجر . . لم ينج واحد منهم . . . وأنت هل أعجبك الفيلم ؟

— أبدا . .

— لماذا ؟

— لأنى لا أحب هذه الأفلام . . التى لا هم لها إلا تغذية الأحقاد وغرس القسوة فى النفوس . . وتحبيذ قتل الإنسان للإنسان . . واحترام منطق القوة حتى لو كان فى خدمة الطغيان . . أما يكفى الأمريكان ما أتوا من ألوان القسوة حتى أبادوا الهنود أهالى البلاد . . فما بالهم

يصرون على أن يجعلوا العالم كله يشاركهم هذه القسوة . . وأن ينفعل بها ويصفق لها ؟

— يصورون حقبة من تاريخهم .

— بل يبررون ما فعلوه ويجعلون شعوب الأرض تنشرح صدورها للظلم والطغيان . . هذه الأفلام تعاون على تأييد ما تقاسيه البشرية من عدوان فى كل مكان . . لماذا لا تكون الأفلام دعوة للمحبة والسلام بدلا من أن تكون مسرحا للمآسى ومعرضا للغرائز والبغضاء والشحناء ؟ . .

— لأنها تصور واقعنا الذى نحياه بكل ما فيه من انفعالات وإحساسات وأهواء ونزوات . . وسمو وانحطاط . إنها تعرض كل الآراء . .

— وما أكثر ما تدس فينا من آراء مسمومة . . أذكر أنى شاهدت وأنا صغير رواية « جونجادين » للكاتب الإنجليزى « كيلنج » ، وتقع حوادث الرواية فى الهند أيام الاحتلال البريطانى ، وتصور كيف أن الوطنيين أرادوا التخلص من الاستعمار البغيض فنصبوا كمينا لفصيلة بريطانية ، وأحس جونجادين الهندى بالخطر المحدق بالبريطانيين ، فإذا به يتطوع باعتلاء برج عال وينفخ فى النفير محذراً أعداء بلاده ، ويصاب جونجادين بطلقة من أحد إخوانه الحانقين ولكنه يظل ينفخ فى النفير وهو يموت . وصفقنا له يومها تصفيقاً متواصلا حتى انتهى العرض ، ولم أندم فى حياتى على تصفيق بدر منى قدر ندمى على ما كان فى ذلك اليوم ، فقد صفقت للخيانة وأنا مغتبط غاية الغبطة مسرور غاية السرور . .

— الفيلم يعرض وجهة نظر الإنجليز ، ولكل شعب الحق فى أن يعرض وجهة نظره . .

— خطورة الفيلم فى أنه يستولى على عواطفنا ويجعلنا نتحمس فى غفلة منا لآراء خبيثة ، وينجح فى تلقيننا مبادئ قد تتعارض مع مصلحة البشرية جمعاء . ليت المشتغلين بالسينما ينسون جنسياتهم ولا يجندون جهودهم لخدمة قضايا أوطانهم بل لخدمة الوطن الكبير ، لمصلحة الإنسانية كلها .

— حلم جميل ، وما أكثر الأحلام النبيلة . .

وخضنا أحاديث أخرى كثيرة فى تلك الليلة ، وحسبت أن حديثه عن السينما إن هو إلا كلام عابر به رأى أبداه فى حماسة . ثم لا شىء آخر . . وما دار فى خلدى أنى تأثرت به دون أن أدرى ، أو أن ألفت إليه . .

وذهبت بعدها إلى دار السينما لأشاهد فيلما من أفلام المغامرات ، وتعمدت أن أذهب وحدى . . بعد أن عرفت أن عليا لا يرتاح لمثل هذه الروايات . وعرضت القصة وكانت زاخرة بالمواقف العنيفة التى تستهوينى ، ولكنى لم أكن أستشعر الغبطة التى كنت أحسها قبل أن أستمع إلى آرائه . كنت أشاهد الرواية بوعى جديد ومقاييس جديدة تختلف عن مقاييسى التى ما كانت تتجاوز الإثارة واللعب بالعواطف والرضا عن كل ما يفعله الأبطال .

وأثار دهشتى أننى لأول مرة فى حياتى أستهجن الدور الذى تلعبه البطلة وأحس كراهية لها ، ولا تستهوينى الأحداث الجسام التى يزخر بها

الفيلم . . كانت البطلة تمثل فتاة هب الثوار من قومها يدافعون عن وطنهم ، ويقفون فى وجه جيش محتل . . وحدث أن قابلت الفتاة قائد الجيش الغازى وأحبته . . فإذا بها تتطوع لاستدراج جيش بلدها إلى ممر فى الجبال لتمكن حبيبها من القضاء عليهم . . وفى سبيل حبها قضت على استقلال شعب . .

ما كانت الخيانة فى الفيلم بمثل هذا الوضوح ، ولكن ما قاله لى على فى أحد الأيام وكدت أسخر منه فى سريرتى أثار عين بصيرتى فرأيت ما لم أكن أراه واستنكرت ما لم أكن أستنكره . بل ما كنت أستحسنه ويرقص له قلبى طربا . . حتى مزاجى خلف فيه آثاراً . .

ونظرت إلى نفسها فى المرآه وهى ممددة فى سريرها . . ثم راحت تغنى : « أحب باريس فى الشتاء » وإذا بها تذكر تلك الليلة التى زار فيها على الكازينو . إنها تركت يدها له ليمسك بها . وجعلت تطوح ذراعها مع ذراعه فى توافق مع اللحن . وراحت تغنى وهو يغنى « أحب باريس فى الشتاء » إنه لم يستوقف نظرها . . وما كان يفترق عن مئات الرجال الذين أمسكوا بيدها طوال الليالى التى اشتركت فيها فى ترديد الأغنية مع الجماهير ، ترى لو كانت تعلم أنه سيدخل حياتها ويترك فيها بصمات أفكاره . . أكانت لا تحس وجوده كما حدث فى تلك اللحظات ؟ . .

وتذكرت مسابقة الأزياء . . وتذكرت عليا وهو يلف الثوب حول جسمها . إنها تتصور كل حركة من حركاته وهو يرفع إليها عينيه السوداوين وعلبة الدبابيس ، ويقول « هل لك فى مساعدتى ؟ » لم تكن لحركاته فى ذلك المساء أى معنى . . كانت تفكر فى أشياء أخرى غير المرض الذى

تشترك فيه ، وكانت فى قرارة نفسها تتمنى أن ينتهى ذلك العرض فما كان يهمها أى المتسابقين يفوز . . أما فى هذه اللحظة التى تعيش فيها مع ذكرياته فهى تفهم كل نظراته . . وتنفعل لها وتتأثر بها وتحس راحة لسماع صوته . . وتتمنى بكل جوارحها أن يفوز . .

إنه فاز فى تلك الليلة وانتهى الأمر . . فما بالها تنفعل بالمباراة كلما طافت بخيالها . . وتمور فيها حماسة لذيذة ؟ . وسألت نفسها : « لو أنه لم يأت إلى الكازينو فى تلك الليلة . أو لو أنه لم يقع عليه الاختيار للاشتراك فى مسابقة الأزياء . . لما كان لها أن تعرفه وأن تقضى أعجب شهر مر بها . . ألا ما أتفه الأسباب التى تغير مجرى حياتنا . . »

ورن فى جوفها صوته وهو يردد :

— على . . آنى . . على . . آنى . . هذا جميل . .

وإذا بها تتخيل ضحكتها الهازئة التى جلجلت بعد ذلك . . وتسمع قولها الساخر :

— أنا واثقة أنك ستنسى هذا الاسم قبل أن تغادر ملهانا . . إننا شىء طالما أنتم هنا . . ثم لا شىء إذا ما قضيتم مآربكم . .

وأحست تضاؤلا وهمس فى جوفها صوت ساخر : « ما أكثر الأشياء التى كنت واثقة منها قبل أن ألقاه . . وقبل أن يزعزع ثقتى فى آرائى . . ومزاجى ومعتقداتى وفلسفاتى » . .

وأغمضت عينيها فرأته وهو ينهض فى تلك الليلة التى حفرت فى ذاكرتها يصافحها قبل أن ينصرف ويقول : « آسف إن كنت أخذت منك

وقتا طويلا دون مقابل » . . وغمغمت : « ليت ذلك الوقت الذى أخذته . . منى دام ، أعطيتنى أكثر مما أخذت . . بل أعطيتنى دون أن تأخذ . . وكان عطاؤك أنفس من كل عطاء » . .

وعادت تغنى : « أحب باريس فى الشتاء » وشردت بذهنها فإذا بها تغنى فى انفعال : « أحب عليا فى الشتاء » وزحفت عواطف الحب إلى قلبها وصدرها وعقلها وتغلغلت فى روحها ، فرأت بعين خيالها عليا إلى جوارها فى الفراش ، وهى تدور نصف دوره وتضع صدرها على صدره وتلثم شفتاها شفتيه فى وجد وهيام . وتعبث بأناملها فى شعره ، وتسبل أجفانها على عينيها كأنما تخشى أن تشغلاها عن السعادة المرفرفة فى جنباتها .

وخفق قلبها بالحب ، وتدفقت دماؤها حارة فى أعماقها ، وزخرت حواسها بالاشتهاء ، فراحت تضم خياله إلى صدرها فى قوة وتمرغ وجهها فى صدره فى حنان . . وطفقت تغنى من أعماقها : « أحب عليا فى الشتاء » .

واستمرت تعانقه فى خيالها وهى سعيدة بالمشاعر الرقيقة التى تحركها تصوراتها . . وإذا بالمرأة الأخرى الكامنة فيها تصيح بها فى غضب وتقول :

— ماهذا الذى تفعلينه يا آنى . . ؟

— أقبله وأضمه إلى صدرى لأنى أحبه . . أحبه بكل جوارحى . .

— وهذا ليس حبا . . فما جرى فى خيالك إن هو إلا اشتهاء أنثى لرجل . .

— وهل هناك طريقة للتعبير عن الحب بين رجل وامرأة غير أن تضمه إلى صدرها وتقبله ويلتصق جلدها بجلده ؟ إنى لما أحببت كارل حبا صادقا لازيف فيه . كنت ألتصق به حتى أكاد أذوب فيه . . كان جسدى يتصل بجسده ، ومع ذلك كنت أسعد بمشاعر نبيلة تختلف عن المشاعر التى أحسها لما يتصل بى طلاب جسدى . .

— حبك لعلى يختلف عن حبك لكارل ، وصلتك به تختلف عن صلتك بكل الرجال الذين التصق جلدك بجلدهم .

— لمــــاذا ؟

— لأن صلتك به أسمى من الصلة التى كانت بينك وبين كارل . .

— ما كان بينى وبين كارل هو أروع صور الحب . . لا يمكننى أن أتصور أن يكون هناك حب بين رجل وامرأة أعظم من الحب الذى يربط بين زوجين متحابين . .

— ما بينك وبينه ليس حباً من الطراز الذى كان بينك وبين كارل . . إنه لون آخر من ألوان الحب . .

— وما هو ؟ . . وما طعمه ؟ . .

— حب خارج سلطان الجسد . . حب يقع فى دائرة النور . .

— حب روح لروح .

— أجل . . حب روح لروح ؟

— لا يمكننى أن أتصور أن مثل هذا الحب يمكن أن يكون . .

— إنه كائن بين المعلم وتلميذه . . بين صاحب المذهب ومريديه . .

— وإذا انفرد المعلم بتلميذته . . ألا تثور فيهما مشاعر جنسية . . ألا تنطلق بين جنباتهما شهوة عربيدة ؟ . .

— هذه المشاعر تسمو وترتفع فوق الجسد ، تصهرها حرارة الإيمان فتعرج إلى السماء كالبخور ، وتملأ المكان بأريجها العطر المهدئ للنفوس . .

وألفت نفسها تفكر فى البخور الذى يحرق فى الكنائس . . كانت مقتنعة بأنه يحرق لتعبق فى الجو رائحته العطرة وليشيع ذلك الغموض الذى يعاون على هيام الروح ، فإذا بها تفطن إلى معنى آخر جديد : إن حرق البخور يرمز إلى أن فى أماكن العبادة تحرق الشهوات وتتحول إلى أبخرة عطرة تصعد إلى السماء .

وكادت الثورة التى نشبت فى جوفها تخمد ، ونار الشهوة المندلعة فى حشاياها تخبو ، وإذا بمعارضتها تهب فجأة وتتمرد وتصيح قائلة : « ما هذا الهراء الذى أسلمت له نفسى . . حب الروح . . سمو العواطف . . تحول الشهوات إلى بخور عطر فواح . . لا . . لا . . ليس بين الرجل والمرأة إلا حب واحد . تضطرب فيه العواطف اضطرابا شهياً . ينتهى بإشباع جوع الجنس وإطفاء الرغبة المضطرمة فى النفوس .. خوفى هو الذى أمدنى بكل هذه الأوهام .. مم أخاف ؟ لست أدرى . . ما الذى دهانى ؟ ما الذى غيرنى ؟ أصبحت رعديدة ضعيفة . . أرتجف من أشباح أوهام . . .

وقالت المرأة الأخرى الكامنة فيها :

— بل أصبحت قوية . . لا تستجيبين لضعفك . . صارت لك إرادة تسيطرين بها على شهواتك . . تستطيعين الآن أن تفخرى بأنك ارتفعت فوق

نزواتك . . أكنت تتصورين أن يأتى يوم يغلق فيه عليك وعلى رجل يهفو إليه قلبك باب .. ثم لا يكون بينك وبينه ما يكون بين رجل وأنثى..

— هذا مايحيرنى لأن ذلك يتنافى مع طبيعة الأشياء . إنى لا أنكر أنى أصبحت أشتهيه بكل جوارحى .. أشتهى أن تلهب أنفاسه الحارة حواسى .. أن أضمه إلى صدرى . . أن أذوب فيه . . ولكن لا أدرى سر تلك القوة الخفية التى تحول بينى وبينه . أهى خوفى من أن يصدنى أو من أن يعرض عنى ؟ ومتى كنت أخاف رجلا ؟ إن كنت أحبه فليس هناك إلا طريقة واحدة للتعبير عن ذلك الحب . . أن أمنحه نفسى . . وسأفعل . ولن أستجيب لذلك الهراء الذى يدعونى لتغيير ناموس الحياة ، فما من امرأة فى الوجود أحبت رجلا وهيأت لها أسباب الوصال ثم أصمت أذنيها عن نداء جسدها الذى لا يقهر . . فما بالى أنا التى تحترف مهنة تقديم جسدها لمن يشاء ، كيف يجوز لى أن يخطر على ذهنى أن أصون ذلك الجسد ؟

— إنك ياآنى لا تصونين جسدك الذى امتهن ، ولكن تبقين على العلاقة الطاهرة الوحيدة فى حياتك التى نجحت فى أن تعيد إليك ثقتك فى الناس . .

— وهل ستنتزع تلك الثقة لو عبرت له عن حبى بالطريقة التى تعبر بها المرأة للرجل عن حبها . ؟

— لو أنك فعلت لجرفت فى لحظات كل بذور الخير الذى بذرت فى ضميرك . .

— لا قدرة لى على احتمال هذا الحرمان . . هذا فوق طاقتى . . أكاد أموت من الوجد . إنى أشتهيه ، وإنها لقسوة أن يطلب إلى امرأة تضطرم فيها كل هذه العواطف المندلعة فى جوفى أن تعرض عن رغبتها . فما من امرأة فى الوجود تستطيع أن تستجيب لهذه الأوهام التى تحاولين أن تقنعينى بها . . المرأة التى تقابل من تحب . . وتجد الفرصة للتعبير عن ذلك الحب . . ثم تمتنع إرضاء لفكرة لم توجد بعد . .

— بل وجدت . .

— أين ؟

— فى المجدل . . لقد قرأت قصتها وأنت تقرئين الإنجيل . . إنها مريم المجدلية . . أحبت المسيح حباً طاهرا . . مما فوق كل حب . .

— وأين أنا من مريم المجدلية ؟

— ما كانت تختلف عنك كثيراً . . ضبطت أكثر من مرة . وهى تزنى . . عرفت الحب الذى يعبر عنه بالتصاق الجلد بالجلد . . ذلك الحب الفانى الذى لا يعيش إلا لحظات . . ومع ذلك استطاعت أن تسمو فوق واقعها وأن تتذوق طعم الحب الخالد . . حب الروح للروح . .

— أتستطيع بغى أن ترتفع حقاً بمشاعرها إلى هذا المقام ؟ ولماذا أحبت المجدلية بالذات . . وهى التى كانت غارقة فى الدنس . . ذلك الحب الخالد العفيف ؟

— لتؤكد حقيقة . . لتقرر أن الجسد مهما انحط فالروح تستطيع أن تسمو به وأن تغسل أدرانه ، ولتكون مثلا حيا للناس . . للنفس البشرية الضعيفة . . التى تزل وتهوى ثم يجعلها الإيمان الصادق تحلق

وترتفع إلى أعلى ما تتطلع إليه نفس بشرية مبرأة من الدنس . . إنها إيحاء مشرق بالأمل . .

— أأ كون مجدلية أخرى ؟

— بالإرادة تـكونين . .

— هيهات ! إنني أضعف من أن أسيطر على عواطفي المشتعلة بالرغبة الجامحة . عزيمتي خوارة . إرادتي أوهن من خيط العنـكبوت . . أن أخلع ثيابي أيسر من أن أشعل سيجارة . . أن أضع شفتي على شفتيه أشهى عندي من أن أمدها إلى كأس خمر . . أن يلتصق صدري بصدره أحب إلى من أن أهيم معه في الخيال وأن يمتليء فراغ صدري بأوهام . . إنني أحن إليه . . أريده . . أريده بكل خلجة من خلجاتي . . بكل جارحة من جوارحي . بكل جسدي . ولم يحل بيني وبينه إلا تلك الحواجز التي يقيمها بيننا كلما التقينا ، إنني لن أسمح له اليوم أن يبتعد عني . . لن أدع له فرصة الخوض في أحاديثه التي تقاوم رغباتي ورغباته . سأطوقه أول ما أراه بذراعي ، وسأمطره بقبلاتي الملتهبة . . ولن يستطيع لها دفعا . .

إنه أنار قلبي ؟ أجل . . فتح عيني على حقائق جديدة ؟ أجل . . تغلغل في حتى نخاعي ؟ أجل . . أجل . . لا أنـكر كل ذلك . . أحببته كما تحب التلميذة معلمها . ولـكن هل يمنع هذا من أن أحبه حب المرأة الرجل ؟

اليوم عندما يجيء سنضطجع هنا في فراشي . .

وهمت واقفة وراحت تغني :

I love Aly in the winter, I love Aly in the fall,
I love Aly every moment . . .

واتجهت إلى المرآة تتزين ، واستعانت بكل تجارب ماضيها على أن تبرز فتنتها وأن تشحذ أسلحتها لتدك حصون مقاومته ، إن انسحب ليختفى فى قوقعة رهبته ، وليفر من رغبته التى لابد أن تتحرك عندما تضمه إلى صدرها وتقبله فى وجد وهيام .

وراحت تختار ثوبا من الثياب التى تعاون على كشف محاسنها ، وانفعلت وهى ترفع الثوب فى يدها وتفحصه بعينيها وسرت فيها موجة من القلق ، وضايقتها مشاعرها التى تحركت فيها فقالت لنفسها فى إنكار :

— ما هى هذه لانفعالات يا آنى ؟ . . إن هو إلا رجل مثل غيره من الرجال زاخر بالدوافع الفطرية محترق بالشهوة يتلمس لها الإطفاء . .

ووقعت عيناها على الكتاب المقدس وقصة سلومى والكتب الأخرى التى كانت فوق الكومودينو فخفت إليها وأخفتها فى الصوان ، كانت تخشى إن قادته إلى هذه الغرفة أن تذهب نفسه شعاعا إذا وقعت عيناه على كتاب . . وأتمت زينتها ومسحت خلف أذنيها بالعطر الفواح ، وراحت تتفرس فى نفسها فى المرآة ، الشعر كأسلاك الذهب ، والعينان زرقاوان عميقتان ،والشفتان ممتلئتان تتراقص عليهما ألسنة اللهب ، والصدر الممتلىء العارى يخطف البصر . . والجسد الملفوف لفا فى الثوب الأسود يسيل لعاب الشهوة ، والخصر الذى دق إنما غار بين الصدر والأرداف ليغرى الذراع بأن تلتف حوله . كانت كل مفاتنها تتألق وتسفر عن دعوة صريحة لجسد آخر . . كانت زاخرة بجاذبية جنسية طاغية . .

ونظرت فى ساعتها . كانت الخامسة إلا خمس دقائق . . لم يبق على موعد حضوره إلا خمس دقائق ، فهو يضع مفتاحه فى الباب مع عقرب الثوانى لا يقدم ثانية ولا يؤخر ثانية .

وهمس صوت ساخر فى جوفها يقول :

— مفتاحه ؟

ورنت ضحكة عالية فى جوفها . . وإذا بنفس الصوت الساخر يقول :

— لم يستعمل رجل منذ اخترعت المفاتيح مفتاح شقة امرأة قدمته إليه وهى طائعة مختارة مثل استعماله له . . استعمله ليدخل على أطراف أصابعه إلى غرفة الاستقبال لينتظرنى حتى أهبط إليه . . يخشى أن يوقظنى . . أن يطير النوم من عينى . .

ولم ترتح للسخرية التى انتشرت فى صدرها . . وراحت تؤنب نفسها :

— إن كان أحجم عن مغازلتك . . لخوفه أو لصلاحه أو لسبب آخر لم يستطع قهره ، فما الذى حال بين المرأة التى تتجر فى الغزل وبين نيله إن كانت حقاً تشتهيه ؟

— إن كانت حقاً تشتهيه . . إننى شغفت به حباً . . أحن إليه بكل جوارحى . . أكاد أشتعل من الوجد . . أشتهيه بكل حواسى . . بكل خفقات قلبى ورفرفات صدرى ونبضات عروقى . .

— ربما . . لم أعد واثقة من شىء . . .

— حتى انفعالاتى التى عاشت معى منذ تفتحت عينى على مشاعر الجنس ستختلط على . .

— ما أكثر الانفعالات الجديدة التي جست في جنبات هذا الجسد.. الذي تعلم كيف يتمرد عليك . .

— يتمرد على أنا ؟

— نعم . . لم يعد يقبل ما يفعله الرجال به دون اكتراث . . كما كان شأنه من قبل . أصبح ينقبض ويقلق ويتقزز ويثور أحيانا . .

— كيف يثور على ؟ ألست أنا هذا الجسد ؟

— كان ذلك هو الواقع قبل أن يولد فيك ذلك الشيء الذي راح يفصل بينك وبينه ، والذي أخذ يعلمه كيف يتمرد ويثور . . إن ذلك الشيء الوحيد هو الذي يخدر كل شهواتك عندما تخلين بعلى . .

— وما هو ذلك الشيء ؟

— النور الجديد الذي تدسس في ظلام نفسك . .

— حتى لو كان هذا هو الحقيقة فأنا قادرة على إطفاء ذلك النور ، وسأطفئه الآن حينما يأتى .

— قلت لك من قبل إن هذا ليس بقوة بل إنه غاية الضعف . .

— أو ليس من الضعف أن يثور على جسدى ؟ سأدفعه إلى ما أريد وسيستجيب إلى إرادتى وهو منشرح .. يعربد بالنشوة .. وينعم باللذة . . وتقر عينه بالرضا والارتواء . .

ونظرت إلى نفسها فى المرآة مرة أخرى ، ومدت يدها إلى شعرها وتعمدت أن تهدل خصلة على جبهتها لتزيد فى طغيان فتنتها ، وظلت تديم النظر إلى صورتها هنيهة ثم غمغمت قائلة :

— لن يستطيع بشر أن يقاوم كل هذا الإغراء . .

وسارت لتغادر خدرها ، وما خطت خطوات حتى التفتت لتلقى نظرة أخيرة على فتنة ظهرها فى المرآة ، ثم استأنفت سيرها صوب الباب . .

وهبطت فى الدرج ومشاعر حارة تمور فى صدرها . . وإحساسات ناعمة تتدفق فيها لتكسو وعيها بضباب يحجب عنه وهو فى غيبوبته حركات الشهوة التى راحت تنتشر فى كل أرجائها . .

وبلغت غرفة الاستقبال فجلست على مقعد مواجه للباب حتى تراه وهو قادم لتسرع إليه وتحييه وهى مفتوحة الذراعين ، وتستقبله بضمه إلى صدرها . . وتقبيله قبلة حارة ينتهى بعدها كل شيء . .

وأدارت عينيها فى الغرفة فوجدت الهدايا التى اشترتها على النضد فى لفائفها . فقامت إليها ورفعتها بين ذراعيها ، وقبل أن تنصرف بها مس أذنيها وقع أقدامه . فالتفتت فألفته أمامها يحييها بالألمانية وهو يبتسم :

— جوتن مورجن !

فأعادت وضع اللفائف على النضد وأصبحت يداها فارغتين ، وراح شيطانها يوسوس لها أن تبسط ذراعيها وأن تضمه إليها وأن تمطره بقبلاتها ولكنها لم تفعل ، بل قالت فى نبرات تنم عن الانفعال :

— جوتن مورجن !

وقال وهو يدنو منها :

— أأستطيع أن أساعدك ؟ ما هذا كله ؟

— بعض هدايا متواضعة لك . .

— لى أنا ؟

— بل لأبنائك .

قال وطافت بوجهه موجة من الحنان :

— شكرا !

وتقدم منها خطوة . وكان أقرب ما يكون فى تلك اللحظة إلى قلبها ، ووسوست لها نفسها أن تلف ذراعيها حوله وأن تقبله ، وتآزرت كل مشاعر الرغبة تغريها على رفع ذراعيها وضمه إلى صدرها ، فتقدمت خطوة ولم يعد يفصل بينه وبينها إلا شبر أو بعض شبر ، وفجأة دارت على عقبيها وانصرفت وهى تهرول وعلى يتبعها بنظره وفى عينيه دهش . .

صعدت فى الدرج وهى مسرح لانفعالات كثيرة متباينة اختلطت حتى لم تعد تميز منها شيئا ، إلا أنها منطلقة بكل كيانها إلى غرفة نومها . .

فتحت الصوان فى حركة فيها عنف تشى بحدة انفعالها فأخرجت منه الكتاب المقدس ، ثم قفلت راجعة دون أن تغلق الصوان وأخذت تهبط فى الدرج قفزا . . حتى إذا ما عادت إليه قالت وهى تجلس والكتاب بين يديها :

— ماذا تحفظ أيضا غير حكم « الجامعة »

فقال وهو يقلب بصره فيها :

— لماذا ؟

— لأنى أشتاق الساعة إلى القراءة فى هذا الكتاب .

وراحت تقلب صفحات الكتاب فقال :

ـــ أعلب مزامير داود .

ـــ أى مزمور على التحديد تحب أن أقرأه .

فشرد ببصره وراح يفكر ثم قال :

ـــ أحفظ المزمور الثالث عشر بعد المائة عن ظهر قلب .

ـــ حسنا !

وراحت تبحث عن المزمور الثالث عشر بعد المائة فى الكتاب حتى إذا عثرت عليه جعلت تقرأ بالألمانية وعلى يتلو المزمور فى ضميره دون أن تتحرك به شفتاه ، وإن كان ينفعل به كل الانفعال .

ـــ هللوا يا . سبحوا يا عبيد الرب

سبحوا اسم الرب .

ليكن اسم الرب مباركا من الآن وإلى الأبد

من مشرق الشمس إلى مغربها اسم الرب مسبح

الرب عال فوق كل الأمم

فوق السموات مجده

فى مثل الرب إلهنا الساكن فى الأعالى

وشرد عن تلاوة المزمور وإذا به يتلو من القرآن فى حرارة : «سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، هو الذى خلق السموات والأرض

وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير » .

واستغرقت آنى فى القراءة فأحست شهواتها تحرق كما يحرق البخور فى المعابد وأنها تعرج إلى السماء.، وشمت روحها رائحة عطرة أزكى من رائحة البخور . .

٧

وقف على فى شرفة غرفته بالفندق بعد أن نسق حقائبه استعدادا للرحيل يلقى على المدينة نظرة وداع ، فلم يبق على مغادرته إياها إلا يوم واحد . . إلا صباح ومساء . . وفى البكرة ينطلق إلى المطار وفى ذهنه أفكار ، وفى كهوف صدره رصيد جديد من رماد مشاعر وانفعالات ، وفى رأسه ذكريات . . وإن كل ما تقع عليه عيناه الآن سيصبح بعد ساعات ذكرى . .

وأطل على مرفأ القوارب والزوارق والمراكب الشراعية فألفاه ساكنا هادئا ، وأنوار الطريق والأضواء المنبعثة من الدور تنعكس على سطح الماء . كان المشهد أشبه بحسناء ران على جمالها حزن . . يخفق له القلب خفقات ناعمة ولا يدق فى عنف ، بيد أن عليا أحس مشاعر حية خفاقة تشتعل فى وجدانه . لم يكن يبصر فى تلك الليلة بعينيه ، بل كان يرى كل شىء بذخيرة المشاعر والانفعالات التى غزت فؤاده طوال إقامته فى هامبورج . .

لقد سار هو وآنى على ذلك اللسان الخشبي الممتد فى الماء ، فلم يعد بالنسبة إليه مجرد جسر بل صار يحس تعاطفا معه ، ويستشعر وجوده أكثر من أناس كثيرين مروا بحياته .

وتدسس إلى جوفه حنان وهو يلقى الطرف على النهر ، ففيه انسابا في زورق هو وهي كتفه إلى كتفها وفخذه تحتك بفخذها والنشوة تترقرق في حناياه . وكانت النشوة التي تغمره وهو في وقفته بالشرفة يتذكر ما كان . . أمتع من تلك التي ذاقها وهي معه ، فما كان يعكرها قلق أو خوف أو يجعلها مرة المذاق ذلك الرجل الآخر الـكامن فيه الذي لا هم له إلا تنغيص حياته وتحريضه على الزهد في كل المشتهيات . .

ونظر إلى اليسار فرأى أبراج الـكنائس الخضراء غارقة في فوف من الضوء ، وانسكبت فيه مشاعر خاشعة امتزجت بما جادت به كنوز قلبه ، فهو يمتلئ بخشوع وطمأنينة وسلام كلما مد بصره إلى مئذنة أو برج كنيسة أو صومعة . بيد أن هذه الأبراج الخضراء صار لها في نفسه مكانة تفوق كل ما عداها من أبراج ، فهي تذكره بنصر يفعمه بالرضا والانشراح كلما فـكر فيه ، وأحيانا يتملـكه الزهو عندما يرى أنه نجح في أن يدفع امرأة غارقة في الدنس إلى بيت من بيت الله .

ظل برهة وهو شارد يجتر ذكرياته ويمضغ في أناة ما يتولد فيه من مشاعر وإحساسات ، وخطر له أن يذهب إلى فراشه لينام ، ولـكنه حن إلى أن يطوف بالمدينة يهيم فيها لا هو نائم ولا هو يقظان . .

وغادر الشرفة ودخل إلى غرفته فوقع بصره على حقائبه الموضوعة على حاملها بجوار الباب فبعثت فيه إحساسا غريبا ، إحساسا بمشاعر الفراق جعله ساهما حزينا وأوحى إليه بدنوه من عدم يخشاه .

وتساءل : لماذا لا تبعث حقائبه في نفسه البهجة ؟ إنه عائد إلى بيته . .

إلى زوجه وأبنائه . . إلى أهله وأصدقائه . . إلى وطنه ومحبيه ؟ إنه ينفعل ويشتد انفعاله ويتوق إلى العودة بكل جوارحه ويرقص قلبه طربا لقرب اللقاء ، بيد أن كل هذه الفرحة والنشوة والتفتح والحنين والهيام تتلاشى سريعا ليحل محلها أسى وفتور . . لا هو جزع . . ولا هو حزن عميق .. ولا هو هلع وانخلاع قلب . . بل وجوم يخفف لوعته استسلام ، فما من مرة حزم فيها حقائبه تأهبا للرحيل إلا وتذكر يوما يرحل فيه ولا يعود . .

غادر الغرفة وسار فى الممر الطويل الموصل إلى المصعد كان الهدوء مسيطرا ، ولم يقابل أحداً فى طريقه للهبوط ، حتى الخدم اختفوا فى غرفهم فجعل يتلمت وقد أرهفت حواسه ، ستغيب كل هذه الدنيا عنه وستختفى مع جزء من حياته ، وأخذ ينظر إلى الأشياء نظرة ملؤها المحبة ، وأحس كأنما يقبل كل ما يراه بعينيه .

وبلغ المصعد الكبير وراح يهبط فيه وهو يرقب الانفعالات التى ارتسمت على وجهه فى المرآة المثبتة فى الجانب الأيمن . كانت الدعة تكسو ملامحه وكانت عيناه تشعان بالمحبة . ووقف المصعد وخرج منه إلى قاعة الفندق ، وكان أول ما قابله معرض الجواهر ولم يكن أكثر من جوسق صغير ما كان يتسع لوقوف أكثر من شخص واحد فى داخله ، وكانت تبعث فيه الحياة تلك الشقراء .. التى تمتاز بصفاء عجيب جذب عينى آنى يوم جاءت لتناول الشاى معه وترك فى نفسها أثرا عميقا .. حتى إنها كثيرا ما حدثته عنها دون أن تعرف سبب تفكيرها فيها وتذكرها إياها فى أوقات كثيرة .

كان المعرض مغلقا فقد انقضت أربع ساعات على مغادرة الفتاة الفندق ، ومع ذلك وقف يرنو إليه خافق القلب تسرى فيه مشاعر المحبة ، ورأى بعين خياله الفتاة وهى تبتسم ضاحكة فانفرجت أساريره عن بسمة معبرة كلها شاعرية ، وغمغم مودعا بالألمانية كما كان يفعل كلما مر بها وهو فى طريقه إلى المصعد « أوف فيدر زين » .

وسار يقلب الطرف فى الصور الزيتية التى تزين الحيطان ، وكان يفحص عن كل صورة ويقف ببصره مدة عند كل منها كأنما يتزود منها ، ثم انساب إلى القاعة الداخلية ووقف ينظر إلى الركن الذى جلس فيه معها أول يوم جاءت فيه لمقابلته ، فاشتد وجيب قلبه ورقت مشاعره وانبثق فيه حنان ، وسار إليه وهو مسحور بعواطفه الجياشة بين جنباته حتى إذا بلغ الكرسى الذى جلس فيه ذلك اليوم قعد برفق وراح يرنو فى سهوم إلى الكرسى الذى جلست هى فيه وهو يحس تجاوبا بينه وبينها .

وشرد يفكر . بات كل ما كان بينه وبينها رؤى وذكريات . . ولم يبق إلا الغد . . لم يبق إلا لقاء الوداع وبعده لا شىء . . إنه واثق أنه سينفعل ويضطرب ويتهدج صوته وقد تطفر من مآقيه الدموع ، ولكن ماذا سيكون موقفها يا ترى ؟ . . هل سترتمى فى أحضانه وتبكى على كتفه وتقبله قبلة الوداع ؟ طبيعة الوداع أن تلتصق الأجسام وأن تتشبث الأيدى بكل ماتقع عليه من جسد الحبيب . وأن تلتصق الشفاه بالشفاه وقد تختلط الدموع بالدموع قبل الفراق . فهل سيضمها إلى صدره المتلهف إلى صدرها ؟ وهل يقف مايكون بينهما عند حد القبل الحارة الملتهبة ؟ إنه يشتهيها

بكل جوارحه . . يحن إلى إطفاء اللوعة الموارة فى جوفه ، يتعطش إلى إرواء ظمأ رغباته . فلو قدر له أن يحتويها بين ذراعيه وأن يطبق فمه على فمها فلن يحول بينه وبين ما يشتهى شىء . . .

هل الوداع إلا تعلق جسم بجسم . . فى انفعال شديد وعناق ولثم وبكاء وزفير وذوبان إن كان إلى الذوبان سبيل . . لتأكيد الأواصر التى ستنفصم بعد حين . . إن لم يكن هذا هو الوداع . . فما يكون ؟ أيكون تصافحاً بالأيدى ثم تلويحاً بمنديل ؟ لا . . لا . . إنه فراق كفراق الموت . . فراق لرحلة طويلة تحتاج إلى زاد كثير . فهل تكفى ليلة واحدة لتخفيف ما سوف يقاسيه من حرمان وحنين ؟

ليلة واحدة ؟ يا ليت الزمان يجود . . كانت الليالى كلها ملك يمينى ولكنى تغابيت وتعاليت وأوهمت روحى أن على أن أنتشلها وأرفعها إلى . من أنا أيها المغرور ؟ ليتنى سلكت معها نفس السبيل الذى سار فيه كل من اتصل بها من الرجال ، فلو أنى فعلت لما تلظيت بنار الشوق وما اضطرم فى جنباتى الحنين .

إن كنت ندمت على ما فات فلن أدع الغد يتسرب من يدى كما تسربت أيامى فى غفلة منى . سأقضى معها ليلة مترعة باللذة ، وأشرب فى نهم كأس الشهوة لأعوض كل ما أضعته بغبائى . من حسن حظى أنى ثبت إلى رشدى قبل ان تفلت منى آخر فرصة لإرواء ظمئى الذى سيورثنى الجنون . .

وهمس فيه صوت ساخر يقول .

— ثبت إلى رشدك . .

— أجل ثبت إلى رشدى . . لماذا سكت يا صديقى العنيد . . يا من تشاركنى جسدى ولا تتحرك إلا لتنغيصى ؟

— لن أقول شيئا ، وسأدعك لنفسك .

— حسنا تفعل . لأنى قررت أن أضع إصبعى فى أذنى وألا أصغى إليك سأنطلق على هواى . ولن ألتفت إليك . .

— سأسكت لأنك لم تعد فى حاجة إلى ، أصبحت أثق بك . . فكل أفكارك أصبحت زاخرة بإيمان عميق . تصورت الفراق كفراق الموت . . فهل يتزود المقبل على الموت بغير التقوى . لم أعد أخشاك فلن تقدم مختاراً على معصية ، ولكنى أخشى أن تغريك بالخطيئة فى غفلة من شعورك . .

— لا تحاول أن تخدعنى . . كفانى ما كان منك . . أنت سبب كل ما قاسيته من آلام ووجد . . ووقدة الشوق المدلهة فى كيانى . . لن أكف ليلة غد عن العناق والقبل حتى أرتوى . .

وسرت إلى أذنيه أنغام للموسيقى الراقصة المنبعثة من البار وتدسست إلى وجدانه . . فراح يصيخ سمعه إليها وهو نشوان . ولم تطل فترة نشوته فما أسرع ما عاد إليه وجومه وقلقه المرفرف فى صدره والسارى فى كيانه حتى ليكاد يحسه وهو يهز أحشاءه . .

قام وسار صوب الباب فى بطء ، وفكر فى أن يعرج إلى البار ليشارك الناس مرحهم وعبثهم فلم يجد استجابة من نفسه . كان يسعد بانفراده بذاته وينعم بالمشاعر المتجددة فيه ، حتى الوجوم الذى ينتابه يحس له وقعاً جميلا . .

خرج إلى الطريق ولفحه الهواء البارد فأنعشه ، وكادت نفسه تصفو بعد أن الوجوم والشرود والحزن الخفيف عادت إليه فاستسلم لها فى رضا . ووصل إلى إشارة المرور وكان النور أحمر وكان الطريق خالياً من السيارات . . ومع ذلك ظل واقفاً ينتظر . .

وأدهشه رضاه بوجومه وحزنه الذى قد يبلغ درجة التلذذ ، وخطر له أنه قد يكون مريضا مثل ماكس ففزع ، وراح يرقب إشارة المرور ففطن إلى أنها تمثل صورة رجل واقف مضاءة بالنور الأحمر على لوحة الإشارة المستديرة ، وما لبث النور الأحمر أن اختفى وأضيء النور الأخضر ، وإذا بصورة الرجل الواقف تتغير وتصبح صورة رجل فى وضع يدل على السعى والسير . وراح يتشاغل بما رأى عن الفكرة القلقة التى ولدت فى نفسه . لقد وقف عند هذه الإشارة مئات المرات فى الليل والنهار دون أن يلحظ الرجل الواقف فى إشارة المرور ولا الرجل الذى يسعى إذا أضيء النور الأخضر ، وغمغم : «ألا ما أكثر ما يغيب عنا من أشياء موجودة » وزاد ذلك الخاطر فى فزعه ، أيكون مريضا مثل ماكس وهو لايدرى ؟ وحنق وهو يجتاز الطريق ورن فى جوفه صوت غاضب يقول : « لماذا أعذب نفسى بيدى . . لماذا ؟ » وإذا بصوت آخر يقول : « لأتلذذ بالعذاب كما كان يتلذذ به ماكس . » وعاد الصوت الحانق يقول : « لم قصت على قصتها مع ماكس ؟ لماذا أسهبت فى وصف شذوذه ؟ وما الذى عاد عليها من سرد تفاصيل فعاله ؟ لا شيء غير اللذة العابرة التى تستشعرها عندما تكشف عن ضعف الآخرين . . فتحت عينى على عالم ما كنت أحب أن أراه . . عالم راح

وهو يصور لى أنى منه . . لا . . لا . . هذا بشع . . هذا بغيض ! إن آنى لم تكن تقصد شيئا من هذا . . كانت تنظر إلى كصديق فاعترفت لى بكل ماضيها . . بكل ما فيه من مآسى وآلام لتنفس عن صدرها وطأة الذكريات الأليمة . . فليس فيما باحت به شيء جديد . . ولكن العيب فى طبعى . . فما أقرأ أعراض مرض ما حتى يصور لى وهمى أنى مريض به » .

وكان قد بلغ مرفأ القوارب والزوارق والمراكب الشراعية فراح يتلفت ، وإذا بعواطف شاعرية تشدو فى نفسه بأعذب الألحان ، فينساب كالمسحور وهو شارد اللب يسعد بالمشاعر الندية المنتشرة فى جنباته كالعبير . وبلغ المقعد البعيد المطل على النهر فإذا بفتى وفتاة متعانقين وقد غابا عن الوجود فى قبلة طويلة ، فعبثت بمهجته إحساسات حانية وهفت كبده إلى الحب وتاق للوصال . .

ورأى بعين خياله الزورق ينساب فى النهر وهما فيه جنبا إلى جنب ، الكتف تحتك بالكتف والفخذ تحتك بالفخذ ، فما الذى منعه من امتصاص رحيق زهرتها المتفتحة ؟ ودار على عقبيه وسار وهو مطرق يفعل خياله ما قصر عن فعله لما كانا يحاولان أن يصما آذانهما عن نداءات الجسد . وعجب من الإنسان يفر من شيء حتى إذا نجح فى الفرار منه . . عاد واشتهاه . .

وبلغ الطوار المغطى بالعشب الأخضر فراح يضرب على غير هدى ، وما كان بصره يقع إلا على فتى وفتاه متعانقين أو ممددين على العشب جنبا

إلى جنب ، إنه سار فى هذا الطريق إلى جوارها فما الذى منعه من أن يلف ذراعه حول عنقها ويعبث بطرف أذنها كما يفعل الطليان ؟

— الطليان ؟ الطليان سمعتهم طيبة هنا . . ترى ما هى السمعة التى سأخلفها ورائى ؟

وهمس فيه الصوت الساحر :

— سمعة بنى جنسك كلهم فى الميزان .

وأعرض عن السحرية وراح يفكر فى حماس فيما يكون بينه وبين آنى غداً قبل الوداع . .

ووقعت عيناه على أضواء مطعم الألستر الواقع عند منحنى النهر . وكانت جدرانه من نوافذ زجاجية منحركة على ارتفاع نحو متر من الأرض ، وكان شكله دائريا ثلاثة أرباعه يطل على النهر ، ويطل على الطريق شرف صفت فيه مناضد وكراسى لرواد الصباح أو بعد الظهر عندما تكون الشمس ساطعة والجو دافئا . وقلما يتهيأ ذلك لسكان الشمال . .

ومشى متباطئا نحو الضوء . وصعد فى درج المطعم ونظر من الزجاج فألفى القاعة غاصة بالناس ، ولمح النضد الذى جلسا إليه هو وآنى أكثر من مرة خالياً ، فأسرع إليه وجلس بحيث أولى القاعة ظهره واستقبل النهر الهاجع الذى كانت تتراقص على صفحته الأضواء المنعكسة من الدور وأعمدة النور كالأشباح . .

وانثالت الذكريات على رأسه : هنا عرض على آنى أن يطهو لها طعاما شرقيا ، وهنا قدمت له مفتاح شقتها . . لقد قدمت له نفسها فما باله

أساء استعمال الحق الذى منحته إياه ؟ لو خطر لها على بال أنه سيقصر استعمال المفتاح على ما استعمله فيه حتى الآن ، لوفرته لرجل آخر يعرف فيما يستعمل .

وتحرك قلقه وانقبضت نفسه واستشعر نوعا من الخزى ، وهب شيطانه يوسوس له أن ينهض من توه فينطلق إلى دارها ويستعمل المفتاح مرة أخرى فيما تستعمل فيه مفاتيح شقق الغوانى ، وأن ينتظرها فى فراشها حتى تعود ليقضى معها الليلة المشتهاة . .

ومد يده فى جيبه فأخرج المفتاح وراح يقلبه فى كفه ، وإذا بصديقه العنيد الذى يشاركه عقله والكامن فيه لتنغيصه يهمس قائلا :

— جسر الشيطان . .

وخطر له خاطر لا يدرى من أين جاءه قضى على الحماس الذى ولدته فكرة الانطلاق إلى بيتها لانتظارها فى الفراش ، ولكنه قوض كل ما دبره أو فكر فيه ، قام فى نفسه سؤال : ماذا يكون موقفه لو أنها جاءت فى رفقة رجل آخر فى البكرة ووجدته فى الفراش ؟ . . أعطته حقاً تنازل عنه فبات من حقها أن تمنحه من تشاء دون أن يتبرم أو يستاء .

وراودته فكرة أن ينهض فينطلق الساعة إلى الكازينو ، ويقابلها يقول لها فى صراحة إنه قرر أن يبيت عندها الليلة ليتزود منها قبل الوداع ، واستخفته الفكرة حتى إنه هم بالانصراف ، وإذا بالحوار الذى دار ذات مساء بينه وبينها حول تفكيره فى زيارة الكازينو يرن فى جوفه فى وضوح وجلاء ، قال :

— بالأمس طار النوم من عينى وأرهقنى الأرق حتى إنى فكرت

فى ارتداء ملابس الخروج بعد منتصف الليل فى الساعة الواحدة للفرار من ذلك القلق . .

— وأين كنت ستذهب ؟

— إلى ريبربان . . إلى كازينو بارى .

— إذا فكرت فى شىء من ذلك مرة أخرى فأرجو ألا تفعل . .

— لماذا ؟

— لأنى إذا رأيتك فى أثناء الاستعراض فسأضطرب وقد أفر من المسرح . .

— لا أستطيع أن أتصور هذا كيف أتصور أن من تخطر على المسرح وهى ثابتة الخطو مرفوعة الرأس فى ثقة واعتداد يمكن أن تهتز فيها شعرة لمجرد أن تزيد العيون المصوبة إليها عينين . .

— لأن كل العيون المصوبة إلى بالنسبة لى لا شىء . . أما العينان الأخريان فهما شىء آخر . شىء له قيمة عندى . . له وزن . .

— أتخشين أن أنظر أليك بنفس النظرة التى نظر بها إليك كارل ؟

— أنا واثقة أنك لن تحتقرنى . . أحسست صدق قولك عندما قلت لى : « حاشاى أن أحتقر إنسانا فيه نفخة من روح الله ، وعلى الرغم من ذلك فإنى لا أحتمل أن تنظر إلى وأنا أعرض نفسى على الناس » .

— مادمت لا تخشين احتقارى فما تخافين ؟

— لو أنك احترفت عرض جسمك على النساء ، أفتضطرب إذا اتجهت نظراتهن إليك وأنت فى عملك ؟

— أبدا . .

— وإذا وقعت عيناك فجأة فى أثناء العرض على أمك أو زوجك أو ابنتك فماذا يكون حالك ؟

— قد أسقط مغشيا على . . .

— هذا هو حالى معك الآن . أصبح لك فى نفسى شأن آخر غير سائر الرجال . لو أنى فكرت قبل أن ألقاك فى أن شيئا من هذا قد يقع لى فى يوم من الأيام لضحكت وقهقهت حتى تعرورق عيناى بالدموع . أما بعد أن التقينا وقبست منك بعض النور فقد تبدلت حتى إنى فى كثير من الأحيان أنكر نفسى . .

وشرد ببصره إلى النهر وهمس فيه هامس يقول : « ما بالى يتملكنى الزهو كلما أتذكر ما كان منى حيالها ؟ وكيف أذكر النور ونفسى معتمة بالشهوة ؟ أمرى معها عجيب ! ما إن أفكر فى أن أضمها إلى صدرى الملهوف حتى تسرى فى رعدة خفيفة وخوف غامض وتتدفق فى مشاعر سامية تنتشلنى من التردى فى الهاوية ، وترتفع بنا إلى الملأ الأعلى لنسبح كالأطياف . . .

من أنا ؟ خفقة قلب وشهوة جسد أم إشراق نور ورفرفة روح ؟ . اللارض أنجذب أم إلى السماء أهيم ؟ أقطعة لحم أنا ما أسرع ما يدب فيها الفساد وتصبح جيفة أم روح زكية هفهافة تملأ الكون بالعبير ؟

أنا قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . . أنا بذرة فى الطين أنبتت وأثمرت وأزهرت وملأت الكون بأريج فواح ، أنا من يتمرغ

فى الطين وبين جنباته إشراق بنور الله . أنا ابن ذلك الرجل القديم الذى رأى ربه رأى العين ثم عصاه . .

وصمتت الموسيقى التى كانت تعزف لحنا رقيقا هادئا ، ونظر فرأى الموائد فوقها الأباجورات تنبعث منها أضواء حمراء خافتة تحرك المشاعر وتوقظ الخيال . . فإذا بها تذكره بملاهى ريبربان فيستشعر قوة خفية تجذبه إلى هناك . .

إذا كانت فكرة الانطلاق إلى الكازينو ومقابلة آنى لم تصادف هوى من نفسه فلماذا لا يذهب إلى ريبربان ؟ . يسير مع حشود الناس ويهيم معهم فى التيه حتى يسرى التعب فيه ويعود لينام وذهنه صاح . . ومشاعره متيقظة . . وعواطفه مرهفة . وعين خياله مفتوحة . . ترى فى وضوح عجيب ما يجرى فى رأسه من رؤى وأفكار . .

وهناك سيأكل الهامبورجار وقد يتحدث مع فتاة المحل التى حسبت أنه من الطليان . . وسيقف أمام صور آنى العارية يتفرس فيها دون أن يخشى أن تفاجئه آنى أو يسرى فيه ذلك الخوف الذى يتدسس فى نفوس من يسترقون الخطا فى الظلام . . ويخشون أن يضاء النور فجأة ويكشف ما هم فيه من مهانة وصغار . .

وعاد يفكر فى آنى . . واحتلت صفحة ذهنه صورتها وهى عارية تقبل وتدبر تعرض جمالها . إنها جميلة حقاً . . وعلى الرغم من جمالها الصارخ . . فما حدثها عنه . وما أطرى حسنها مرة ، كل ما يذكره أنه فى تلك الليلة التى اختير فيها لمباراة صنع ثوب من قماش ودبابيس قال لها

بعد أن فاز : « لو أنصفوا لمنحوك الجائزة فالفضل للجسم البديع ! » ولم يجر ذكر جسدها على لسانه بعدها أبدا . ما الذى عقد لسانه عن أن يمتدح حسن الشىء الذى تفخر به . .

الشىء ؟ . . أأسمى ذلك الجسم الذى ينطق بالحسن . . وينبض بالحياة ، وتهفو إليه كل جوارحى . . وتسرى فى قشعريرة لذيذة حنونة لمجرد أن يتصور عقلى أننى أمرر يدى عليه فى رقة : « الشىء » . . إنه جوهر الجمال . . الجمال المتألق المشتعل . . الفتنة التى تنجذب إليها نفسى كما ينجذب إلى الشمس عبادها .

وفى ذلك الجو المفعم بالحنين والوجد تسلل إلى ذهنه صوت خافت يتساءل : « ربت على ساقها فى بساطة عندما كنت ألف الثوب حول رجليها . . فى تلك الليلة التى اشتركت فيها فى مباراة الأزياء . لم تتحرك فى شهوة ولم أحس أى احساس جنسى ، فما بالى اللحظة أكاد أدوب وجدا . وأرتجف شوقا لمجرد تصورى أننى مررت يدى عليها . . »

« وما أكثر الأشياء التى تحيرنى ، غازلت الفتاة النرويجية فى حانة البيرة عقب أن جلست إلى مائدتها مباشرة ، فما الذى معنى من مغازلة آنى وقد أمضيت معها شهرا ؟ لو أننى قلت لها كلمة واحدة من كلمات الغزل لما كان هذا حالى معها » .

واحتلت ذهنه مشاهد تلك الليلة : رأى الفتاة النرويجية وهى تجلس وإلى جوارها شابان يغطان فى النوم من أثر الإغراق فى الشراب فقال لها :

— ما كانا فى حاجة إلى شراب وهما فى رفقة هذا الجمال .

ولم يكتف بذلك بل عرض عليها نفسه فقال :

— ليتنى كنت أحدها . .

— ياليت . .

وراح يفكر : « لماذا لم أقل شيئا من ذلك لآنى ؟ » فقام الرجل الآخر الكامن فيه يرد على سؤاله : « لأنك لم تكن تخشى شيئا . كنت تعلم أن كل ما بينك وبين الفتاة النرويجية لن يتعدى الدعابة . كان معها ملاكان حارسان وكان وجودها يطمئن خوفك فيجعلك تتصرف على سجيتك دون أن تخشى العواقب . أما مع آنى فلم يكن معكما رقيب إلا أنفسكما . أية كلمة غزل أو نظرة اشتهاء أو لمسة حانية قد تكون الجسر الذى يعبر عليه الشيطان إليكما » .

فقال فى نفسه فى حنق : « كان غبائى يحرضنى على أن أحطم جسور الشياطين قبل أن تمتد ، أن أصم أذنى عن نزعات النفس . وما كان غبائى إلا أنت ، لقد واتتنى فرصة نادرة لما حدثتها عن التلقيح الصناعى ، كنت أستطيع أن أسخر من الفكرة دون أن أفقد مرماى ، وأن أنفذ إليها فى رشاقه دون أن تحس ، ولكنك أنت الذى دفعتنى إلى أن أتحدث فى حماسة وأنا أتكلم عن أطفال أنابيب الاختبار . »

فقال له الرجل الآخر الكامن فيه : « أكنت تريد أن تنفذ إليها فى رشاقة حقا دون أن تحس ؟ . ولماذا دون أن تحس ؟ كان سواء لديها أتحس أم لا تحس . ولكنك أنت الذى كنت تضع الحواجز بينك وبينها باختيارك لأنك كنت تريد شيئا آخر غير ذلك الجسد . » فقال

فى غضب : « أنا أم أنت ؟ . . تتنصل الآن من كل فعالك . . كنت مرحا قبل أن ألقاها ، ولقد بلغ ذلك المرح درجة الخفة لما كسرت أدق زجاجة الكوكا كولا بأكواب البيرة التى رفعها صديقا الفتاة النرويجية تحية . » ورنت أصوات جوفه : « أنت كلب . . أنت كلبو . أنت كلب . أنت كلبو . . » وعاد يخاطب ضميره : « ولكنك أنت الذى قضيت على هذا المرح ، . وجعلت تغرينى بالحكمة وتمدنى بأفكار بعدنى عنها . لماذا ؟ لماذا ؟ » فقال له الرجل الآخر الكامن فيه : « كنت تريد أن تفر منها فكنت أعاونك على الفرار . » فقال وهو يزفر « بل أنت الذى كنت تزين لى الفرار . » فقال له الرجل الآخر الكامن فيه : « ولماذا أطعتنى ؟ » فقال فى تبرم : « لأنى وثقت بك » فقال : « وهل ترعرعت ثقتك فى ؟ » قال : « وجدت أنك لا تعدنى إلا بأوهام . لو طاوعتك لعدت إلى بلادى وفى رأسى ذكريات وفى جسدى وقدة اشتهاء . » قال : « بماذا تعود إلى بلادك لو أنك أطفأت هذه الوقدة ؟ » قال : « سأعود وقد ارتويت ، ولن يكون فى نفسى حسرة . » قال : « ستعود بوخز فى ضميرك ، سيرهقك ويضنيك ويذيقك ألوان العذاب . » فقال وهو يتململ فى مقعده فى قلق : « لا . . لا . لن أدع ضمفى يستبد بى ، لن أمنحك أذنى . غداً سأرضى رغباتى . غداً سأحقق كيانى . غداً سأكون سيد نفسى » فإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يقول فى سخرية : « ولماذا الغد ؟ لماذا لا تنهض الآن لتحقق كيانك . . لتكون سيد نفسك ؟ . » فقال : « إنى لا أحب أن أجرحها ما دامت رؤيتها لى فى الكازينو تثير مشاعر بغيضة إلى نفسها . .

غداً عند الوداع ستتاح لى فرصة لن أدعها تفلت أبداً . . سأرتوى وسأرتوى وسأرتوى . ولن أصغى إليك . . » قال الآخر : « إن كنت تريد أن تحقق كيانك حقاً ، وأن تكون سيد نفسك حقاً ، فإنك تستطيع أن تحقق ذلك الآن . . » قال : « وكيف ؟ » قال الآخر : « تذهب فى التو إلى تلك الفتاة التى قابلتها فى ملهى التليفون ، تلك الفتاة المرحة الخفيفة التى رقصت معها والتى رمتك أنت وبنى جنسك فى أثناء مداعبتها لك بالشذوذ يمكنك أن تذهب إليها الآن وأن تبرهن على وجودك . . وأن تنفى التهمة عن نفسك وعن بنى جنسك . . بالإثبات ! » فقال فى استياء : « لا . . لا . إنى أريد آنى . » فقال الآخر : « وما الفرق بينها وبين آنى ؟ إن كان الأمر يتعلق بتحقيق كيانك وإثبات سيادتك على نفسك » . قال : « إنى أشتهى آنى ولا أشتهى تلك الفتاة . » قال الآخر : « لماذا ؟ » قال : « مسألة مزاج » قال الآخر : « ولماذا يفرق مزاجك بين فتاة وفتاة ؟ » فقال فى استياء : « لا أدرى . . ولا أريد أن أدرى . . ولا تحاول أن تحرفنى عن هدفى . . أريد آنى . . أريد آنى . . وسأغلق فى وجهها جميع مساربى المؤدية إلى ضعفى . » قال الرجل الآخر : « بل المؤدية إلى مكامن قوتك . » قال وهو ينهض لينصرف : « لا . . لن يؤثر فى غداً مثل هذا الكلام المعسول المبثوث فيه السم ، إن كان قد نجح فى تحويلى عن إرادتى ، فلن أسمح له أن يفسد ما بقى من ساعات فى حياة صلتى بها . » قال الآخر : « ما بدا لك . . أنا واثق منك . . واثق من كل تصرفاتك . . ولكنى أحب أن أجادلك . . قل لى هل لو أحسست وأنت

مع آنى أن ما تفعله يغضب الله . . هل تقدم عليه ؟ » قال : « وهل أنا أتقى من آدم ؟ كان يعرف أنه يعصى أوامر ربه ومع ذلك أقبل على المعصية . إنى سأستغفر الله بعد أن أغسل يدى من كل ما بينى وبينها . » قال الآخر : « تستغفر الله . . ألا تخجل من هذا التفكير ؟ » قال : « وم أخجل ؟ الله يعرفنى أكثر مما أعرف نفسى . يعرف أن ليس لى عزم . . يعرف ضعفى . » قال الآخر : « أنت كإبليس . . لم يزل عن جهله وإنما زل عن فقهه . » قال : « لست كإبليس أبداً . أنا ابن أبى . . ابن من سما وهبط . فلماذا تدعونى للرفعة . ولا تدع لى حق الهبوط . لماذا ؟ » . .

قال الرجل الآخر : «حق الهبوط . ما أكثر ما تمرغت فى الطين لن يوردك موارد التهلكة إلا غرورك . »

وراح يطوف فى شوارع هامبوج والوقت يمر فى بطء شديد ، وراح يقطع الزمن فى مشاهدة المعروضات فى واجهات المحال الزجاجية . ووقف يتفرس فى بعض المصنوعات الجلدية الفاخرة . . حقائب مختلفة الأحجام ، ومصنوعات من جلود التماسيح ، وأدوات زينة ، وأدوات سفرة فى أكياس من الجلد . . وأحس جسما يقترب منه ، فالتفت فإذا فتاه تبتسم له وتلقى عليه تحية المساء وتقول :

— إيطالى ؟

وابتسم ضاحكا — واختفى ذلك الوجوم الذى ران على وجهه وأفكاره وكل مشاعره ، وقال :

— بل برازيلى . وأنت من أين ؟

— من برلين .

ونظرت إليه وهى تبتسم وقالت :

— ألا نجلس فى مكان نتحدث فيه ؟

كان يريد أن يقضى على الملل الذى تسرب إليه فقال :

— أين ؟ . .

— أى مقهى قريب . .

— حسنا .

وفتحت حافظة مصنوعة من الشبك وأخرجت منها حذاء ذا كعب عال ، وخلعت الحذاء الذى لا كعب له ولبست الآخر ثم قالت :

— تفضل . .

وسارت إلى جواره واتجها إلى مقهى قريب ، وقادته إلى ركن بعيد وجلسا بعيدا عن الأنظار . . قال :

— أنت من برلين . فما جاء بك إلى هنا . .

— جئت أعمل فى عيادة طبيب . وأنت ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

— بعض الأعمال التجارية . .

— تاجر ؟

— لا . . مهندس ، أقوم بتسلم إحدى السفن لحساب الشركة التى أعمل بها . .

— عمل عظيم . .

— وماذا كنت تعملين قبل أن تأتى إلى هامبورج ؟

— أدرس الآداب فى باريس . .

— عظيم عظيم جداً . وفى أى من فرع فروع الآداب تخصصك ؟

ونظرت إليه بدهشة كأنما لم تفقه قوله ، فراح يحدثها عن الأدب الفرنسى ، والأدب الانجليزى ، والأدب الألمانى ، ويسرد على مسامعها أسماء الكتاب القدامى والمحدثين ، وهى تصغى إليه دون أن يظهر عليها أنها سمعت باسم واحد منهم ، وأخيرا صاحت فيه :

— أنت مدرس ، لا يمكن أن تكون مهندسا أبدا . . مدرس . .

وهمس فى جوفه الرجل الآخر يقول له : « ها هى دى المعصية التى كنت تبحث عنها لتحقق كيانك وتختار مصيرك فى حرية وقد جاءت تسعى إليك ، فهيا حقق كيانك وكن سيد نفسك . » فقال : « لا . . لا أريد هذه أو غيرها من النساء ، إنى أتوق شوقا إلى آنى . أريد آنى . . »

ونهض فنهضت معه وسارا حتى خرجا من المقهى ، فقال لها وهو يمد يده مودعا :

— مساء الخير !

فقالت وهى تنظر إليه بعينين مفتوحتين :

— ألن تجىء معى ؟

— أين ؟

— نذهب إلى بيتى ، وتستطيع أن تبقى معى حتى الصباح . .

— آسف ، عندى موعد هام الآن . .

وأحس أنه أساء إليها فقال :

— سأزورك بعد غد وأقضى عندك ليلة ، ومعى العنوان .

وأخرج بطاقة كانت دونت فيها عنوانها وجعل يهزها ليؤكد لها كلامه ، ثم صافحها وانصرف . . وإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يقول له : « ولماذا هذا الكذب ؟ ستكون بعد غد فى دارك . . » فقال : « مجرد مجاملة ، وهل حاسبها أحد على ادعائها أنها من المشتغلات بالآداب ؟ » قال الرجل الآخر : « عملها له صلة بالأدب ، بل أكثر من صلة ، قد يكون موحيا لعمل أدبى أو محركا لفعل يثلم الأدب . »

وكادت نفسه تصفو ولكن سرعان ماعاد إليه وجومه وتفكيره فى آنى ، وأخذت مشاعر الحنين تمور فى جوفه وتمده برؤى وخيالات تؤجج نيران رغبته وتشعل لهيب اشتهائه وتجعله يهفو إلى أن يضم آنى فى قسوة حتى يسمع بأذنيه أنين عظامها

ونظر فى ساعته وزفر فى ضيق مما أبطأ مرور الزمن ، وخطر له أن يذهب إلى محطة السكة الحديد يتشاغل بمراقبة النساء فى غدوهن ورواحهن. وكاد أن ينطلق إلى هناك ولكنه تذكر الفتاة التى هرب منها منذ لحظات ، فقد يقابلها مرة أخرى فى بحثها عن صيد جديد ، أو قد يقابل قطة أخرى من قطط الليل . . تدعوه إلى مادعته إليه طالبة الآداب . .

وفكر فى أمره فاحتار . . نار تتلظى بين جنبيه وفتاة جميلة تدعوه إلى إطفاء النار فيهرب منها ، ولما يخلو بنفسه يعاود التفكير فى امرأة اخرى غاية ما يرجوه منها أن ينال ماتدعوه إليه الفتاة .

وسأل نفسه : « أأحب آنى ؟ . . هل تفتح لها قلبى ؟ إننى ذقت الحب وعرفت لوعته ، وعشت فى ذلك القلق اللذيذ الذى يخلقه ، وهمت فى عالمه الحالم أسبح فى الرؤى العذاب بأجنحته والقلب خافق والعين ساهمة والصدر عامر بأشهى المشاعر والإحساسات . إن ما بينى وبين آنى شىء آخر غير هذا ، شىء هادىء رزين ترتاح إليه نفسى ، يضطرب أحيانا ويضطرم وتندلع ألسنة لهيبه حتى تكاد تحرق روحى وتشعل مكامن الرغبة والاشتهاء فى جنباتى » .

وخطر له أن يذهب إلى السيرك فقد ذهب إليه معها مرة ، وهو يستشعر حنينا إلى كل الأماكن التى زراها وهى فى رفقته ، فهو يحس تجاوبا بينه وبينها ، صار لها طعم خاص فى مذاق روحه ، وأصبح من حقها عليه أن يودعها قبل أن يرحل

وهمس فى جوفه هامس يقول : وهناك الهامبورجار ، فهيا بنا إلى ريبربان نأكل الهامبورجار ونتملى من صور آنى .

ومر به تاكسى وكاد أن يناديه ، بيده أنه قرر فجأة أن ينبذ كل هذه الأفكار وأن يعود إلى الفندق لينام .

ومشى يخترق شوارع مقفرة من الناس حتى إذا بلغ أول الطريق المؤدى إلى الفندق وقع بصره على المطعم الروسى ، فإذا به يتجه إليه ويدخله ، وينساب بين الموائد وهو يتلفت وموسيقى القوقاز تعزف ، حتى وقف على مقربة من المائدة التى جلس معها إليها ، فألقى عليها نظرة بعثت فى نفسه مشاعر رقيقة حزينة ، ثم دار على عقبيه وانطلق لا يلوى على شىء . .

ورجع إلى الفندق ودخل غرفته وأخـــذ يخلع ملابسه فى تكاسل وخمول ليوهم نفسه أن النوم يداعب جفنيه ، وارتدى بيجامته وسار إلى السرير وهو مسبل العينين ، وما إن تمدد فيه حتى ألفى كل حواسه متيقظة وأن بصر ذهنه حديد .

وانثالت الرؤى على رأسه فراح يدور فى الفراش كأنما تلسعه النار ، وطوقته أفـكاره وحاصرته فلم يجد جدوى من مقاومتها واستقر رأيه على أن خير ما يفعله التسليم .

رأى نفسه وهو يدخل عليها ذلك اليوم الذى قدمت إليه فيه هدايا أبنائه ، كانت مرتبكة قلقة وفى عينيها رهبـة أنـكرها ، ولم تقو على أن تواجهه بل هرولت هاربة تلوذ بالـكتاب المقدس ، كان ذلك غريباً .

وسأل نفسه : « ما الذى يقلق آنى ؟ ومم تخاف ؟ وما الذى يدعوها إلى الفرار والاحتماء بالـكتاب المقدس ؟ إنه يعرف سبب قلقه وخوفه . . فهو يخشى غضبا قد يصب عليه من السماء . أما هى فما الذى يقلقها ؟ وما الذى يستطيع أن يحرك خوفها ؟ وما الذى كانت تريد أن تحرقه بقراءتها فى الـكتاب المقدس ؟ » إنه يذكر أنه اشتهاها يوم وقفت إلى جواره فى المطبخ وكاد أن يضمها إليه ، بيد أنه اصطنع أسباب الهرب ، وهم بأن يحتويها بين ذراعيه وهما فى غرفة الاستقبال بعد الغداء وياليته فعل . . ولـكنه أسرع يحتمى من نفسه بالـكتاب المقدس . . « ترى هل اختلجت فى جنباتها نفس المشاعر التى كان يحسها . . وهل سولت لها نفسها ما سولت لى نفسى يوم فرت بروحها إلى الـكتاب المقدس ؟ . »

ولو أنها كابدت ما كابدت ، ووسوس لها شيطانها بما وسوس به شيطانى ، فما الذى منعها — وهى التى تقدم نفسها عن رضا لكل طالب — من أن تحقق رغباتها وأن تلبى نداء الجسد ؟ . .

قالت لى يوما إنها تحس أن بعض النور انسكب فيها ، فلو أن ذلك النور هو الذى حال بينها وبينى فلماذا لم يقف ذلك النور حائلا بينها وبين غيرى من البشر ؟ . . إنها لاذت بالكتاب المقدس . وكنت قد دبرت أمرى من قبل ووطدت عزمى على أن أستغل ذلك الكتاب إذا ما أغرتنا القوى الخفية التى تدفعنا دفعا إلى الهرب من المشاعر التى تزين لنا تحصيل لذة الجسد . . فى أن أحطم الحواجز التى تفصل بيننا . كنت وطنت نفسى على أن أدعوها لقراءة فقرة من نشيد من الأناشيد تحرك الحس وتفتح مجال حديث مشتهى ، فما الذى يجعلنى أدعوها لقراءة ذلك المزمور الذى يكتم أنفاس أية شهوة ويرفعنا إلى العلا ؟ » .

ورن فى جوفه النشيد :

— حبيبى أبيض وأحمر

معلم بين ربوة

رأسه ذهب إبريز

قصصه مسترسلة حالكة كالغراب

عيناه كالحمام على مجارى المياه مغسولتان باللبن

خداه كخميلة الطيب

شفتاه سوسن تقطران مرا مائعا

يداه حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد
بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق
ساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز
طلعته كلبنان فتى كالأرز
حلقه حلاوة وكله مشتهيات

وملأت صورة آني وهي عارية كل رأسه وعبثت بكل جوارحه وحركت وجده وجعلته يستشعر كل وجوده . وانسكبت فى جنباته مشاعر ضغطت على صدره . . جعلته يلتقط أنفاسه ويزفرها فى صوت مسموع ، وطفت إحساسات الغواية حتى غمرت كل مقاومة فيه وأسكتت صوت عقله فقال فى حماسة :

— غدا سأختار مصيرى وأنا حر من كل قيد ، وأحطم أوهامى وأحقق كيانى وأثبت لنفسى الخوارة أننى سيد ذاتى . . المتصرف فى رغباتى ، ولن ألقى بسمعى إلى صوت ضعفى . إن غدا ليوم عظيم . .

٨

استيقظ فى البكرة على الرغم من أن النوم لم يعرف طريقه إلى عينيه إلا بعد أن انتصف الليل بكثير . . وقام نشيطا يدور فى الغرفة يفعل أشياء لا غرض منها إلا تمضية الوقت الذى يمر فى بطء شديد . . وخطر له أن يهبط ليدفع حساب الفندق حتى فجر الغد . . ليستطيع أن يتصرف فيما يبقى معه من نقود وشيكات سياحية ..

وراح يرتدى ثيابه وهو يغدو ويروح ، ليطيل الوقت الذى يستغرقه عادة فى ربط كرافتته وتزرير أزرار بنطلونه ودس رجليه فى جوربه . . وتسريح شعره وتلميع حذائه وارتداء جاكتته والنظر إلى المرآه فى صبر طويل . .

وخرج من الغرفة وسار فى الممرات الطويلة الهوينى ، ولم يتجه إلى المصعد بل ذهب إلى الدرج ليهبط فيه فى أناة وهو يتلفت ويتفرس فى الزخارف والصور التى تزين الجدران ويقرأ كل لافتة تقع عليها عيناه . وقد اكتشف لأول مرة أن بالطبقة الثانية من الفندق حلاقا للرجال وآخر للنساء ، وفكر فى أن يذهب إلى الحلاق ليقص شعره بل ليملأ فراغا من وقته الذى لا يدرى كيف يقضيه . ولكنه تذكر أنه حلق رأسه بالأمس قبل أن يذهب للقاء آنى . . فمشى فى البسطة الفسيحة الواقعة أمام الغرف

ومدخل حلاق السيدات حتى بلغ مقعدا وثيرا فى مواجهة الحلاق . فغاص فيه وراح يدير عينيه فى السقف وفى المكان ، وما أسرع أن دب الملل فى نفسه فنهض وهو يتمتم : « ألا ما أطول الزمن » .

واتجه إلى الدرج واستأنف نزوله ، فلما بلغ رجل الحسابات طلب منه كشف حسابه ، ومشى فى الممر الطويل الموصل إلى معرض التحف الشرقية حتى إذا بلغه ألفى صوانى خان الخليلى الفضية مبعثرة على أرائك ومناضد مطعمة بالصدف ، فسرح خياله وفكر فى الصينية التى اشتراها من هنا . . اشتراها لتكون عربون صداقة بينه وبينها ، وما دار بخلده يوما أن الصلة التى بينهما ستتوطد أواصرها كما حدث ، وأن آنى ستبعث فيه مثل هذا القلق السارى بين جنباته . إنه راحل غدا . . لن يترك خلفه من أثر إلا الصينية التى ستذكرها به كلما وقعت عيناها عليها . .

أحقا ستذكرها الصينية به ؟ . . إن تجاربه تنبئه أن شيئا من ذلك لن يكون . سيأتى يوم تقع فيه عيناها على الصينية دون أن تذكرها بشىء أو تحس حتى وجودها . إنه أحب فى شرخ شبابه فتاة حبا ملك عليه كل حواسه وحسب أنه لن ينساها مادام قلبه يخفق ، ومرت السنون وأسدلت عليها ستر النسيان . . وفى ذات ليلة خطرت على ذهنه فأجهد ذاكرته فى أن يتذكر اسمها دون جدوى . . ألا ما أعجب الزمن . .

ونظر فى ساعته وغمغم فى ضيق : « متى تحين الساعة الخامسة ؟ الساعة الخامسة سيكون غائبا عن الوجود فى قبلة طويلة حارة . . زاخرة بالانفعالات . . تعوض ما قاساه من حرمان منذ أول ليلة قابلها فيها

فى الكازينو حتى الأمس الذى تسنمت فيه رغباته الذروة . عندما قابلته وهى تخفى فتنتها بروب من النيلون الشفاف .

وعاد إلى رجل الحسابات ووقف ينتظر وهو شارد اللب يلفه قلق وتطوف به ذكريات . . وتولد فيه أمانى ورغبات . . وترن فى جوفه أحاديث ومحاورات . وتشتعل فى روحه إحساسات طليقة . . وتمور بين جنباته مشاعر غليظة تقصر عن الانتشار والإشعاع

ومر بعض الوقت ولم يقدم إليه الرجل كشف الحساب . فعاد ينظر فى ساعته وفطن الرجل إلى قلقه فقال له :

— آسف إن كنت تسببت فى تعطيلك .

فقال على وهو يحاول الابتسام :

— أبداً . .

وقال فى نفسه : « تعطيلى ؟ ليت كل هذه الساعات الفاصلة بينى وبين الساعة الخامسة تمر فى لمح البصر إنى أكاد أدوب شوقا » . .

وسدد ما عليه من حساب وخرج يهيم على وجهه يضرب فى الطرقات ، وخطر له أن يذهب إلى حديقة الحيوان أو يركب سيارة أو تروللى باس يحمله إلى أى مكان ويعود به دون أن يغادره فكل غايته أن يختصر عمر الزمن ، ولكنه أعرض عن هذه الفكرة وطفق يمشى فى الشوارع القريبة من الفندق .

ووجد نفسه يتجه إلى دكان المرأة السمينة التى تبيع الخضر والفاكهة والتى تأبى أن تحدثه بالإنجليزية على الرغم من إجادتها لها وتكلف ابنتها

الشابة الصغيرة بخدمته ، إنه يذهب كل يوم إلى ذلك الدكان يشترى تفاحة أو تفاحتين وموزة واحدة أو عنقودا من العنب . كان فى أول أمره يشترى بالكيلو ولكنه مع مرور الزمن فطن إلى أن ذلك أمر غير مألوف لمن كان وحيداً مثله . .

وألفى الدكان مغلقاً فانقبض ، كان اليوم يوم الأحد . . وسيغادر البلاد دون أن يلقى على من فيه نظرة وداع . . وقف على الطوار المقابل للدكان يرصده وهو منفعل بعواطف رقيقة يشوبها شيء من الأسى . .

ودار على عقبيه لينصرف ، وإذا به يلمح الشابة الصغيرة قادمة من شارع ضيق فى مواجهة الدكان ، فانتظرها وقد انشرح صدره وانبسطت أساريره وانقشع القلق الذى لازمه مذ فتح عينيه فى الصباح

كانت حركاتها وسكناتها لطيفة مفعمة بجمال الشباب . . ورأته فأقبلت عليه فى بساطة وحيته وقال لها :

— إلى أين ؟ إلى الكنيسة ؟

فقالت فى هدوء :

— إنى لا أذهب إلى هناك أبداً ، ذاهبة لأتريض مع بعض أصدقائى . . وأنت ؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة فيها شيء من القلق :

— ألقى نظرة وداع على المكان . . سأسافر غداً . .

فمدت له يدها وصافحته فى حرارة وقالت :

— مع السلامة . .

وانصرفت مهرولة . . كانت كل حركة من حركاتها تنطق بالمرح والانطلاق ، واستشعر شيئا من الراحة . . وعجب من نفسه . . فراح يتساءل : « ما الذى سره لما وقعت عيناه عليها ، ولماذا انتشرت فيه طمأنينة لما ودعها وليس بينه وبينها أكثر من سلام عابر أو كلام لا يخرج عن دائرة البيع والشراء ؟ . . » وإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يقول : « لأنى إنسان ، فالإنسان من يألف الناس ويألفه الناس » وهمس فيه هامس يسأل : « ومن لا يألف الناس ولا يألفه الناس . ماذا يكون ؟ » قال الرجل الآخر : « يكون بشراً . فالإنسان بشر . . وليس حتما أن يكون البشر إنساناً . فالإنسان هو من ارتقى من البشر وأرهف حسه ، وملأ الحب قلبه ، فيتعاطف مع الناس ويتجاوب مع كل ما فى الوجود وينجذب إلى كل ما تقع عليه عيناه » .

واستأنف سيره على غير هدى . . وراح يضرب فى جنبات الحدائق القريبة يرقب مشاهد الغرام من بعيد . . أو يجلس على مقعد يشاهد مباراة فى الكرة بين بعض الشبان ، أو يعجب من شباب ينغمس فى قراءة كتاب أو صحيفة بينا فتاته تنام على صدره أو تداعبه بقبلاتها . .

وفى الظهيرة ذهب إلى مطعم يشوى الدجاج وما أكثر ما تناول غداءه هناك . لم يذهب لأنه جاع بل ليمضى بعض الوقت الذى أصبح مروره ثقيلا يتلف الأعصاب . .

وجلس إلى مائدة يفصلها عن الموائد الأخرى حاجزان مرتفعان من الخشب ، وجاءت إليه فتاة تنتظر أوامره . . إنه رآها كثيرا .

وكان ما يلفت النظر فيها مفتاح يتدلى من الحزام الملفوف حول وسطها . .

نظر إلى المفتاح وقال :

— مفتاح قلبك ؟

فقالت وهى تبتسم :

— هذا مفتاح مسكنى . . أما مفتاح قلبى ففى عيون الشاب الذى سيتزوجنى .

— وإذا قدمت امرأة إلى رجل مفتاح مسكنها فماذا يعنى هذا ؟

فتبسمت ضاحكة وقالت :

— مسكنى له مفتاح واحد ، فلو قدمته لإنسان فمعنى ذلك أنى سأبيت فى الطريق . .

— هذا مجرد سؤال . .

— سؤال لا يحتاج إلى جواب . .

وضحكت وهمت بالانصراف ، بيد أنه اعترض طريقها بيده وقال :

— ولكنى أحب أن أسمع الجواب .

— من تعطى مفتاح شقتها لرجل تهبه كل شىء

— وإذا استعمل الرجل المفتاح فى أن يدخل عليها فيبادلها الآراء ولا يبادلها القبلات ، ويداعب ذهنها ولا يداعب جسمها ، ويدع روحه تلتقى بروحها دون أن يلتقى صدره بصدرها ، فماذا يكون رأيها فيه ؟

ولاحت كل أسنانها وهى تضحك ، ومالت إلى الوراء حتى كادت أن تقع وقالت :

— هذا الرجل لا وجود له يا سيدى . .

— وإن وجد ؟

— يستحق القتل ليصعد إلى السماء ، فلا مكان له فى الأرض . .

وغادرته وإذا به بحركة لاشعورية يتحسس المفتاح الذى لا يزال فى جيبه ، وطافت به موجة من وجوم واستشعر تضاؤلا وخجلا وتساءل : « ترى أهذا هو رأى آنى فى ؟ . . وهل ينتظر من أنثى أن يكون لها فى رجل مثلى غير هذا الرأى ؟ إننى أستحق القتل . . هذا حق . . ولكن لا . . فما تزال أمامى فرصة لأنقذ نفسى من ذلك الهوان الذى أكاد أغرق فيه . . اليوم فى الساعة الخامسة سأمحو كل ما لحقنى من عار . »

واستمر فى إطراقته يفكر ، وضاق صدره وانتابه قلق وطافت به موجات يأس ، وجاهدت إشراقات أمل لتطل برأسها ، وتباينت انفعالاته واختلط عليه أمره حتى أصبحت غاية أمانيه أن يخرج مما هو فيه .

وعادت الفتاة تحمل صينية عليها ما طلب . ولاحظت وهى تصف الصحاف أمامه أنه يرقبها فى اهتمام فقالت له فى خبث :

— أتفكر ياسيدى فى مداعبة عقلى ؟

فقال وفى صوته رنة جد :

— لم يعد هناك وقت لذلك . سأغادر هذه البلاد فى الفجر ، سأعود إلى بلادى . . وداعا . .

— ألك زوجة يا سيدى ؟

— نعم .

— من الخير أن تعود إليها . .

وانبثقت فى أعماقه عواطف نبيلة . . وانتشر فيه الحنين . . واتسع أفق بصره حتى كاد يرى فى وضوح زوجه وابنه وابنته ، وهم يرقبون عودته متلهفين فرحين . . فخفق قلبه وفاض وجده . . وترقرقت فى عينيه الدموع . .

وتناول غداءه وقام لينصرف ، وإذا به يقف برهة يديم النظر إلى الفتاة بعينين صافيتين يشع منهما عطف وحنان ومحبة .. فإذا بالفتاة تقف مأخوذة لحظة . . ثم تقول :

— أتمنى لك يا سيدى سفرا سعيدا . .

— شكرا .

وانصرف وهو مستسلم للعواطف الرقيقة المتألقة فى حناياه ، وإذا بمشاعر أخرى تسترق الخطا لتستولى عليه ، وما أسرع ما انتشرت فيه إحساسات حارة تحرضه على أن ينطلق من فوره إلى آنى . واشتدت قوتها حتى كادت تعصف بكل مقاومة فيه . كانت كل جارحة من جوارحه تدعوه إليها وتئن أنينا كله حنين .

ولم يستطع أن يصبر على العواطف المشبوبة فى أحشائه ، وجعل ينظر إلى الساعة فى ملل وتبرم وضيق ويهزها هزاً كأنما يحثها على الإسراع ، وتمنى لو أن الساعات الفاصلة بينه وبين لقائها تسقط من عمره فلا قيمة لها عنده . . بل إنها تزيده إرهاقا وعذابا . .

وتصرم الوقت فى بطء شديد ، وما أشرفت الساعة على الرابعة حتى غادر الفندق إلى محطة الأوتوبيس ، ووقف ينتظر وقلبه يدق وخوفه يسرى فى صدره ، وركبه القلق فطفق يدس يده فى جيب بنطلونه ويخرج منديله ويمسح أنفه ويعيده إلى جيبه ثم يتلفت ذات اليسار وذات اليمين ويمرر أصبعه بين رقبته وياقة قميصه ، وما يلبث أن يدلك بكفه مؤخر رأسه ويشرد بفكر فيما سيكون . .

وأقبل الأوتوبيس وصعد إليه وجلس وهو مرهف الحس . متوتر الأعصاب . . وراح يستبق الأحداث . . ويرى نفسه بعين خياله وهو يضع المفتاح فى الباب . . ويدخل مسرعا إلى السلم الداخلى فيرتقى درجاته قفزا ويندفع إلى غرفتها فتلقاه مفتوحة الذراعين ويتبادلان القبل ثم يرتميان على الفراش . .

وانبهرت أنفاسه وتأججت نار مشاعره وتدفقت فيه أشواق ، وامتزجت بالقلق الموار فى جنباته وأطارت السكينة من نفسه وجعلته لا يستقر فى جلسته . . ويتحرك ويتلفت ، ويضع ساقا على ساق ، وما أسرع ما يهبط الساق المرفوعة ويضع الأخرى فوقها . .

وزاد فى قلقه السكون الذى التزمه الرجل الآخر الكامن فيه ، فما هب ينهاه عما عقد العزم عليه وما سخر من أفكاره ولا أزجى إليه نصائحه . بل تركه ليؤكد وجوده ويثبت أنه سيد موقفه .

ونزل من الأوتوبيس واتجه إلى المرفأ النهرى ، ووقف ينتظر الزورق البخارى وفى جوفه عاصفة من العواطف والانفعالات ، ولم يستطع أن

يستقر فى مكانه فراح يغدو ويروح تلوح عليه ضراوة مشاعره . .

وأقبل الزورق يتهادى وقبل آن يلمس المرفأ ويستقر . . كان قد قفز إليه واتجه إلى مقدمته وقعد . . ونظره فى اتجاه منزلها . . وتحرك الزورق يشق عباب الماء ، وهب النسيم يداعب وجهه . . كان رخاء ولكنه لم ينعشه . . فقد كان غائبا عن الوجود بالانفعالات المزمجرة فى وجدانه .

وبلغ الزورق الشاطئ الآخر فقفز وراح يغذ السير لا لأنه تأخر عن موعده فقد كان أمامه نصف ساعة . وما تستغرق المسافة الفاصلة بين الشاطئ ومنزلها بضع دقائق . . بل بفعل الطاقة الزائدة المتدفقة فى عروقه وشرايينه وأعصابه .

ووقف أمام بيتها مبهور النفس يكاد قلبه يقفز من فيه ، وحاول أن يعيد الطمأنينة إلى نفسه دون جدوى فقد ذهبت شعاعا . ونظر فى ساعته فألفى أنه جاء قبل موعده بعشرين دقيقة . ورأى أن يتريث وأن يتمشى ويذهب ويجىء حتى تحين ساعة اللقاء فما وضع المفتاح فى قفل الباب قبل الخامسة أبدا ولكنه لم يستطع صبرا فأخرج المفتاح من جيبه وهو يكاد يموت خوفا . . كانت رهبته تفوق كل الرهبة التى أحسها أول يوم جاء فيه إليها ومفتاح الباب معه .

ودلف إلى البيت وقلبه يرفرف فى صدره ، ولم يهرول ولم يجر إلى السلم الداخلى كما كان يرى نفسه بعين خياله ، بل تقدم فى بطء وهو يكاد يفقد كل إحساس بوجوده . . وسار كالمأخوذ إلى غرفة الاستقبال يترقب .

ودار بعينه فى المكان وهو يضطرب ، ومر ببصره على صورتها وهى عارية دون أن تحفل بها بنفسه ، وجلس فى مقعد قريب يلتقط أنفاسه . . ويجمع شتات شجاعته التى بخرها خوفه ، ويرد السكينة إلى قلبه قبل أن يصعد إلى غرفة نومها ليضمها إلى صدره فى وجد وهيام .

ولمح من خلال نظراته القلقة رسالة على النضد القريب ، فمد يده فى اضطراب وتناولها وقرأ ما كتب على الظرف :

« إلى صديقى على » ، فإذا بعواصفه كلها تتوتر وتتشحذ ، وإذا بها تمده بانفعالات ثائرة حارة فيستشعر كأنه محموم .

وفتح الظرف بيد مرتجفة وأخرج الرسالة وجعل ينظر إليها بعيون زائغة ، وراح يقرأ وهو متفتح الحواس والمشاعر والوجدان :

« عزيزى على . .

أكتب إليك هذه الرسالة فى الصباح الباكر بعد أن ارتديت ثيابى استعدادا للفرار منك ، بعد ليلة طويلة مسهدة كنت فيها نهبا لأفكارى وعواطفى وشهواتى ، وذلك النور الجديد الذى بثثته فى روحى ، وبعد أن استقر رأيى عقب صلاة طويلة حارة على أن أهرب بكنزى الذى فزت به .

رأسى مزدحم بالأفكار وجسدى يرتجف بالانفعالات ، وأشواقى تغرينى بالتمرد على ما اتخذت من قرار ، وضحكات ساخرة تزلزل كيانى ، وشيطانى فى غضب ينسج خيوط مكائده فى مهارة ليثنينى عن عزمى ، كان فى رعب شديد من أن أنتصر عليه مرة فى حياتى لأنه يعرف أننى إذا انتصرت عليه

فقد سلطانه المطلق على ، فراح يزين لى السبل التى تقودنى إليه ولكنى وقفت إلى جوار إرادتى وأعرضت عنه .

كنت الشىء النبيل الوحيد فى حياتى ، وكانت الصلة التى بيننا أنظف صلة يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان . . فما أعظمها أن تكون بين رجل وامرأة .. وكنت النور الذى تدسس إلى ظلام نفسى .. وكشف كنوز قلبى ولولاك لبقيت تلك الكنوز مطمورة فى مجاهل حياتى ككنوز الأرض الكثيرة المدفونة فى جوفها والتى لا قيمة لها قبل أن يماط عنها اللثام . .

وكان ذلك الشىء السامى فى كل مرة التقينا فيها مهددا أن يتمرغ فى حمأة الرذيلة . . وسوس لى شيطانى أكثر من مرة أن أشبع رغبات جسدى وأن أطفىء لهيبه أنا لا أنكر أننى اشتهيتك وأنى كنت أحن حنينا إلى أن أذوب فيك ، ولكنى كنت أجاهد نزواتى لأبقى على الشىء الطاهر الوحيد فى حياتى الغارقة فى الدنس والرذيلة . .

أحببتك ، ولكن حبى إياك كان يختلف عن حبى الرجال الذين كانوا يشاركوننى مضجعى ، وكان أسمى من حبى كارل الذى تمنيت يوما أن يكون زوجى . . قد يكون ذلك الحب هو الذى حدثتنى عنه ، حب الروح للروح . . ولكنى كنت أشتهيك بجسدى ، كنت أحس نحوك أحاسيس الجنس الطاغية . . وكثيرا ما كنت أعجز عن أن أميز بين حب الروح وحب الجسد .. كان الخيط الفاصل بينهما رفيعا حتى إنى بت أخشى عليه أن ينقطع وأن يتقوض ذلك الصرح الهائل للطهر الذى أقمته على مستنقع نفسى الآسن .

وتملكنى خوف شديد أن أكون المعول الذى يهدم سعادتك والسعادة الجديدة التى ملأت جوانحى أملا وإشراقا ، وشاعت فى أرجاء نفسى قصة سالومى التى انتهيت من قراءتها أخيرا . أحبت سالومى يحي حبا جارفا .. اشتهته بكل خلجة من خلجاتها وأصمت أذنيها عن تعاليمه . . جذبها جمال جسده وعميت عيناها عن النور المشع من روحه . . وراحت تراوده عن نفسه فأعرض عنها ، وأذل ذلك كبرياءها فهرعت إلى الحاكم المفتون بها تحرضه على قتله وتمنيه الأمانى إذا قدم لها رأسه فى صينية من فضة . .

وقتل الرجل الذى أبى أن يتمرغ فى الطين بعد أن اتصلت الأسباب بينه وبين السماء ، وحمل رأسه الفانى إليها وبقى نور رسالته للبشرية . .

كان القتل من نصيب يحي مذ هامت به تلك المرأة التى أغلقت عينيها عن النور المشع من الرجل الذى اشتهته ، وكان عليه أن يختار بين قتل وقتل . واختار أن يضرب عنقه ويسفك دمه . . وكان هذا القتل أهون على نفسه من ذلك القتل الذى كانت تدعوه إليه .

فلو أنها استطاعت أن تغريه ليلبي نداء جسدها لقتلت مبادئه ولأطفأت ذلك النور الطاهر الذى لا يزال يشع وسيظل يشع إلى الأبد يبدد ظلام نفوس تضرب فى دياجير الظلام على غير هدى ، ويهديها إلى طريق الخلاص . .

أأكون سالومى جديدة . . جاءت لتحقق ما أخفقت فيه سالومى الأخرى ؟ أأكون أداة إطفاء للنور المشع فى جنباتك . . وذلك النور الساطع فى جنباتى ؟ . . أين أنا من سالومى . . وأين أنت من يحي ؟ . .

ما أنا إلا امرأة تتاجر بجسدها ، لا صديق لى قادرا على أن يحمل إلى رأسك على صينية ، وما أنت إلا رجـل اعتنق بعض مبادئ سامية وما أحسب أنك تستطيع أن تثبت للتجربة . ولـكن لا . . ما ينبغى أن نحط من شأننا فأنا إن استجبت لشيطانى لأطفأت ذلك النور الذى يشع فى ضميرك ، ولأجريت عليك قتلا أقسى من القتل الذى ذاقه يحيي . لماذا أطفئ نور إيمانك ؟ الأنى أحببتك واشتهيتك ؟ . . فلا كان هذا الحب الذى يجذبك إلى الطين بعد أن تفتحت عيناك على نور المعرفة إنى على الرغم من أوزارى التى تثقل كاهلى سأبذل كل مافى من قوة وإرادة وعزم لأبقى على ذلك النور الذى ولد فينا بل لأزيد فى انتشاره حتى يبدد ظلمات أنفسنا . .

أصبحت أخاف أن ينطفئ بصيص النور الذى تدسس إلى وجدانى ، صار ذلك الأمل الذى ألقيت بذرته فى ضميرى أعز شيء عندى حتى بت أرتجف فرقا من أن أضعف ساعة وداعك وأن أقوض فى لحظة الصرح الشامخ الذى راح يتطاول فى روحى ليبلغ السماء . . آه لو ضعفت فلن أغفر لنفسى أبدا أنى كتمت أنفاس الوليد الجديد قبل أن يشب ويشتد عوده ، ويأخذ بيدى فى مسالك الحياة الوعرة ويبث فى الطمأنينة والرضا والسـلام .

ولم ييأس شيطانى منى فراح يحثنى على البقاء لأودعك . . لأقول لك كلمة طيبة قبل الفراق . . وطفق يطمئن خوفى . . ويتملق عواطفى حتى كدت أركن إليه ، ولـكنى استلهمت بصيص النور المؤتلق فى روحى

فأيد الفرار ، فقد تكون لمسة من يدك ليدى أو نظرة من عينك لعينى أو قبلة من شفتيك لشفتى فى لحظة الوداع جسر الشيطان الذى يعبر عليه ليدمر كل ما فينا من مقاومة ويقطع أسلاك النور التى تصل بيننا وبين السماء . .

وكان على ألا أدع للشيطان فرصة إقامة جسور بيننا فأعرضت عن نزعاته ووسوساته وإغرائه وكل ما كان يمنينى به من شهوات ، ولما دب اليأس فى قلبه — ولا أحسب أنه يعرف اليأس أبدا — راح يسخر منى . . من المرأة التى كانت من ساعات فى أحضان رجل ثم تحاول الآن أن تبدو فى ثياب الراهبات ، واستمر يخزنى بسخريته حتى كدت أنهار ، وكاد ينجح فى أن أنكر حقى فى التشبث بالطهر ما دمت أقدم نفسى عن طواعية لكل الرجال . . واستمر يؤكد لى أن الطهر لا يتجزأ أبدا وأنه سواء أكان الرجل الذى يضطجع معى أنت أو سواك . . ورحت أقنع نفسى أنك شيء آخر يختلف عن كل الرجال ، وأن بصيص النور الذى نجحت فى غرسه فى ضميرى سينجح يوما فى أن ينتشر ويترعرع ويقتلع جذور الدنس من أعماقى . .

ولم يقنعه منطقى ، وزادت سخريته واشتد فى إيلامى وأخيرا قررت أن أفر لأنقذ إيمانك . . إن لم يكن من حقى أن أتشبث بالطهر . ولم يهدأ لشيطانى بال . . على الرغم من هذا القرار الحاسم الذى ملأ نفسى ، فطفق يوسوس ويهمز ويحرض رغباتى ويؤجج نار شهواتى . . ويغرينى على أن أبقى لألقاك ، ووجدت أن قرارى فى حاجة إلى قوة لا تقهر ، قوة

تباركه وتؤيده وتهزم ذلك العاتى الذى كنت له أطوع من بنانه ، بل كنت ابنة من بناته تسعى بالفتنة بين الناس . .

وتوجهت إلى الله وصليت صلاة حارة من أعماق قلبى ، وابتهلت فى صدق وأنا أقول : « ولا تدخلنا فى تجربة . . ونجنا من الشرير . » . . وما انتهيت من صلاتى حتى أحسست راحة بعد أن احترقت وسوساته . . وقلق وانفعالاتى كما يحترق البخور فى المعبد وينتشر عبيره وهو يرتفع إلى السماء .

وأضاءت الصلاة طريقى ، وكان الفرار سبيلى إلى الخلاص ، أما الدخول فى تجربة قد ينتهى بطمس ذلك النور الذى وضعت بذرته فى نفسى فهو الدمار والهلاك ، ونهضت أرتدى ثيابى لأهرب بالفترة النظيفة من حياتى التى يهددها شبح لقاء .

كم هو قاس على قلبى أن أدعك تسافر دون أن أودعك ، ولكن عزائى أنى أضحى بشىء فى سبيل شىء أسمى وأعز ، أوليس الإبقاء على الأفكار النبيلة الطاهرة التى ستصاحبنى طوال حياتى أعز وأسمى من كل العواطف التى تشتعل فى جنباتى لحظات الوداع ثم تخبو وتموت ؟

كنت مؤمنة بأشياء كثيرة معتمة ليس بها إشراق ، كان ذلك قبل أن ألقاك ، أما بعد أن سكبت فى روحى كل هذه الأشواق المرفرفة المتجهة إلى السماء فقد تزعزع ذلك الإيمان ليحل مكانه إيمان جديد مفعم بالأمل والسمو والارتفاع ، كنت مؤمنة بأن نهايتى ستكون هناك فى سان باولى ، فى نافذة من النوافذ الزجاجية التى يعرض فيا النساء أجسامهن على أنظار

أصحاب الشهوة الرخيصة الذين هم فى عجلة من أمرهم ، لا يجدون فسحة من الوقت لإطفاء أشواقهم ، ولـكن هذا الإيمان اجتث من أعماقه . كانت أفـكارك المشرقة التى جعلتنى أعتنقها دون أن أحس هى المعول الذى قوض ذلك الإيمان وأنبت فى إيمانا جديداً عميق الجذور يؤكد لى أن نهايتى لن تـكون هناك ، لن تـكون أبداً خلف زجاج نافذة من نوافذ سان باولى . فالروح التى عرفت النور لن تقبل أبداً أن تستقر فى جسد مظلم تزيده المشاعر الغليظة ظلاما على ظلام .

تذكر ولا شك أنى حدثتك أكثر من مرة عن فتاة الفندق التى تعمل فى معرض المجوهرات ، كانت صورتها بوجهها الصافى الذى ينطق بالسكينة وراحة البال تطفو دواما على سطح ذهنى ، وكان يحيرنى كثرة رؤيتى ذلك الوجه بعين خيالى . لم أكن أعرف الدوافع التى تذكرنى بها بين الحين والحين ، أما الآن فقد وضح لى كل شىء . عرفت أنى كنت أتمنى فى أعمق أعماقى أن أكون مثلها ، فتاة ناعمة البال ترقب مستقبلها فى أمل دون أن تنتفض من الخوف . .

لماذا لا أكون مثل تلك الفتاة ؟ . لماذا لا أكون مثل ملايين الفتيات اللائى يعملن فى المحال والمـكاتب والمصانع وينمن فى الليل ملء جفونهن ؟ لماذا أتمرغ فى الطين إن كنت أستطيع أن أنتشل آدميتى من المذلة والهوان ؟ . . لقد وطدت العزم على أن أتطهر من دنسى ، أن أصلى لله وأبتهل إليه أن يقف إلى جوارى ويحمينى من نفسى ويأخذ بيدى إلى طريق الخلاص . .

عزيزى على . .

لم يعد عندى ما أريد أن أفضى به إليك ، ولم يبق إلا أن أشكرك على أجمل أيام حياتى .. التى قضيتها معك .. ولن أقول وداعا بل أقول رافقتك السلامة . فكيف أودعك . . ونفحة الإيمان التى جئت بها من الشرق الساحر ستظل فى سويداء قلبى ما حييت ، وستبقى آثار أفكارك فى ضميرى نابضة بوجودك يفوح منها أطيب أريج . .

لقد تكشفت لى اليوم حقيقة بسيطة رائعة لا أدرى كيف غابت عنى طوال عمرى الذى أنفقته فى جمع المال فى نهم لا يشبع وجشع لا يقنع .. وجدت أن الأفكار هى ميراث البشرية ، وأن كنوز الذهب وشهوات الناس تتبدد كالأوهام ، وأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . .

رافقتك السلامة ياحبيبى . . يا أعز حبيب .

(آنى)

وطوى على الرسالة وبقى شارد البصر لا يفكر فى شىء وإن كانت المشاعر الرقيقة تنتشر فى جنباته ، والطمأنينة تملأ جوانحه ، ثم نهض وأخرج المفتاح من جيبه ووضعه على النضد ، وألقى على المكان نظرة وداع . . ووقعت عيناه على صورتها وهى عارية فلم ينفعل ولم يخفق قلبه ولم يقف بصره عندها . . بل راح يجول هنا وهناك . . وهو يستشعر تجاوبا وحبا بينه وبين كل ما فى الغرفة من أشياء . .

ودار على عقبيه وسار فى خطا بطيئة ، لم يكن حزينا بل كان فى أعماقه يحس راحة ، وسمع صوتا فى أغواره يقول :

— أنا سعيد . .

فإذا بالرجل الآخر الكامن فيه يقول :

— لماذا ؟

— لأنى جنبت التجربة .

— كنت أتمنى أن تبقى آنى وأن تحين لحظة الوداع وأن تذرف أنت وهى الدموع وأن تتبادلا القبل . .

— لو أن شيئا من ذلك حدث لما استطعت أن أكبت عواطفى ولانقدت لشهواتى . .

— ما كان شىء من ذلك ليحدث ، إنك تنفعل وتشتهى وتتمنى حتى إذا التقيت بمن تشتهى أمات إيمانك كل شهوة . . إن الشيطان أهون من أن يمد جسوره فوق روح مؤمنة .

— تقول ذلك لأنك الآن فى أمان . . بعد أن تجنبت العاصفة .

— أستطيع أن أذهب إلى التجربة برجلى . . وأن أتحداها ؟

— وكيف ؟

— أذهب إلى آنى الليلة فى الكازينو وأودعها ، إنى لو لم أكن أغلقت الباب خلفى لانتظرتها فى فراشها . .

— إن كان الله جنبنا هذه الكأس فلماذا تصر على تجرعها ؟

— إنها فرت لأن إيمانها لم تتغلغل جذوره بعد فى نفسها ، تخشى عليه من هبوب أية ريح ، أما أنا فلم أعد أخشى أن تقتلع إيمانى العواصف . .

— لن يوردك موارد الهلاك يوما إلا غرورك .

وظل على يصارع بنفسه ساعات . . كان يطلب السلامة . . وكان الرجل الآخر الكامن فيه يصر على التحدى واعتصار التجربة حتى نهايتها ، فكيف يقتنع أنه أقوى من رغباته إن لم يكن قد وضع موضع الاختبار الصحيح ؟

ورأى أن يفر بنفسه وينجو من الوسوسات التى راحت تملأ صدره وتزين له الانطلاق إلى ريبربان ، ففكر فى أن يحمل حقائبه وأن يذهب إلى المطار ينتظر حتى تحمله طائرة الفجر إلى بلاده ولكن الساعات الباقية الطويلة التى سيلدها الزمن قبل الصباح جعلته يعرض عن الفكرة . .

وراح يضرب فى شوارع هامبورج على غير هدى . . وخطر له مرة أن ينطلق إلى مرفأ القوارب والزوارق وأن يؤجر زورقا يقطع به ساعة من الساعات الطويلة الباقية ، وفكر فى أن يدخل السينما ليقضى على ثلاث ساعات طويلة مملة ، وفكر فى كل أماكن اللهو والتسلية ، ولكنه لم يجد استجابة من نفسه التى كان يزداد توترها كلما أوغل الليل واقترب من الانتصاف . .

وقرب الساعة الحادية عشرة مساء ركب تاكسيا ، وقال للسائق :

— ريبربان من فضلك . .

وانطلقت السيارة وهو فى شبه غيبوبة واختلطت مشاعره وإحساساته حتى لم يعد يتبين شيئا أو يميز حقيقة رغبته ، ولاحت لعينيه أضواء ريبربان المتألقة فخفق قلبه وقال للسائق :

— كازينو دى بارى من فضلك .

ووقفت السيارة أمام الكازينو وهبط منها وقلبه فى صدره يدوى دويا وخوفه يلفه لفا . واندفع من الباب الخارجى فى حماسة حتى إذا دنا من الباب الذى يؤدى إلى قاعة العرض مس أذنيه أصوات الفرقة وهى تغنى : « أحب باريس فى الشتاء . . . » فتسمر فى مكانه وماتت فجأة كل الانفعالات المزمجرة فى جوفه وغشيته طمأنينة عجيبة ، وسولت له نفسه أن ينصرف فآنى التى عشق روحها ليست هى هذه المرأة التى تخطر الآن عارية على خشبة المسرح ، إنها امرأة أخرى رآها بعقله وغاص فى أعماقها ببصره ومال إليها بمشاعره النبيلة ، كانت آنى أكثر منه إرهافا لما قالت : إن حبها إياه كانت تشوبه شهوة جنسية . . وأن الخيط الفاصل بين حب الروح وحب الجسد رقيق غاية الرقة حتى إنها كانت تخشى أن أية لمسة حسية قد تمزقه . إنه لم يكن اشتهاها لما كان ينفعل انفعالات حسية كلما فكر فيها ، كانت روحه تهيم حبا بروحها ولم تكن تلك المشاعر إلا تعبيرا عن الهيام الروحى . فإذا ما تقابلا واتصلت الروح بالروح تبخرت كل الشهوات والرغبات ولم يبق إلا الصفاء والهيام والانتشار فى روح الوجود ؛ لم تكن النار المتلظية فى جوفه شهوة بل اشتعالا ولم تكن خفقات قلبه رغبة جنسية بل وجدا واشتياقا روحيا

وهمس فى جوفه صوت ذلك الرجل الكامن فيه يقول :

— ألم أقل لك لم يكن لنا أن نفر ، كنا نخاف وهما . . نخشى أن يتمزق الخيط الرفيع الفاصل بين حب الروح وحب الجسد . . والحقيقة أنه ليس هناك مثل ذلك الخيط إلا فى خيالنا ، فالانفعالات الحسية التى

نستشعرها إن هى إلا عواطف كاذبة قصرت عن أن تترجم حقيقة مشاعرنا السامية . .

ودار على عقبيه وانصرف ، ومر بصور كثيرة لآنى وهى عارية فلم يمرها أى التفاف ، وغادر الكازينو وانساب إلى سان باولى وتدفق مع سيول الناس حتى ألفى نفسه فى ذلك الطريق الذى به حاجز خشبى يفصل بين دنيا داعرة تحاول أن ترخى على دعارتها نقابا من الطهر ، ودنيا سافرة تكشف عوراتها فى صراحة وتمارس حياتها دون نفاق أو رياء . .

وانساب بين النوافذ الزجاجية التى جلس خلفها النسوة العرايا وراح يتلفت وقد غمره حزن عميق . ورن فى جوفه صوت آنى يقول : « كنت مؤمنة بأن نهايتى ستكون هناك فى سان باولى فى نافذة من النوافذ الزجاجية التى تعرض فيها النساء أجسامهن على أنظار أصحاب الشهوة الرخيصة الذين هم فى عجلة من أمرهم ، ولكن هذا الإيمان اجتث من أعماقه ، لن تكون نهايتى أبدا خلف زجاج نافذة من نوافذ سان باولى ، فالروح التى عرفت النور لن تقبل أبدا أن تستقر فى جسد مظلم ، تزيده المشاعر الغليظة ظلاما على ظلاما » . .

وأحس تلك الراحة التى يحسها المرء إذا وقعت عيناه على زهرة بيضاء جميلة نابتة فى ماء آسن . . ودار على عقبيه ومشى وهو مطرق يفكر . وما إن ترك سان باولى خلفه حتى انفرجت قبضة الأسى التى كانت آخذة بخناقه وانتشر فى صدره هدوء . وبلغ حانة البيرة ووقف عندها يلقى نظرة أخيرة على كازينو دى بارى . . كانت الموسيقى النحاسية الصاخبة

وهتافات الناس تدوى دويا . . ولكنه لم يكن يسمع شيئا . . كان مشغولا عن كل ما حوله بمشاعر الرضا والسعادة التى ملأت جوانحه ، ومد بصره إلى السماء وهتف فى إيمان عميق : « اهدنا الصراط المستقيم » وانطلق فى طريقه وقد احترقت كل مشاعره وانفعالاته كما يحترق البخور فى المعبد ، وإذا به يشم بروحه أطيب عبير . .

دار مصر للطباعة

